

حمدان بن عثمان خوجة

المرأة

تقديم وتعريب وتحقيق
د. محمد العربي الزبيري



حمدان بن عثمان خوجة

المرأة

تقديم وتعريب وتحقيق

د. محمد العربي الزيري



تمهيد .

لم تكن الحملة الفرنسية ضد الجزائر آتية كما يزعم المؤرخون الفرنسيون في أغلبيتهم، ولم يكن الهدف منها تأديب الداي أو الثأر للكرامة كما يدعون، ولكنها فكرة اختمرت طويلاً في أذهان ملوك وأباطرة فرنسا ابتداء من هانري الرابع ، ومروراً بلويس الرابع عشر ونابليون بونابرت . لقد هدّدوا جميعاً وتوعّدوا وحاولوا وأقسموا ، ولكنهم في النهاية لم يفلحوا . لقد قاموا بذلك لأنهم كانوا يرغبون في تأسيس إمبراطورية استعمارية مترامية الأطراف ، لا تبعد كثيراً عن الوطن الأم ليسهل تسييرها ، وقمع ثوراتها ، ولأن الكنيسة في ذلك الحين كانت تريد شن حروب صليبية جديدة على بلاد الإسلام التي بدأ الضعف يسري إلى جسمها .

غير أن الجزائر كان لها من القوة ما يمكنها من الصمود في وجه أعدائها ،

ومن أن تفرض عليهم العرائم المختلفة والإتاوات . وكانت أوروبا تحبس بذلك فتعمل دائماً على تجنب الاصطدام بها .

وازدهرت الإيالة على مر القرون ، حتى صار يضرب المثل بكنوز قصبته التي يقول ميشال هبار : « إنها كانت تحتوي على حوالي خمسمائة مليون فرنك فرنسي . عندما وقع الاحتلال » (1) . ولكي تكون للقارئ فكرة عن هذا المبلغ لا بأس إذا أضفنا أن الأجر اليومي في فرنسا كان يقدر في ذلك الحين بفرنك واحد . ومن حيث الثقافة كان جميع الجزائريين ، سنة 1830 ، يحسنون القراءة والكتابة وكانت مدينة الجزائر تشتمل على مائة مدرسة ، بينما كانت قسنطينة تشتمل على 86 . وتلمسان على 50 ، وفي القطر بأكمله ، كانت هناك عشر جامعات تقدم للطلبة تعليماً عالياً ، وهي موزعة على مختلف أنحاء البلاد ، يومها الطلبة بعد حفظ القرآن وإنهاء المرحلتين الابتدائية والثانوية وينذكر السيد ميشال هاباربان « كل قرية كانت ، قبل الاحتلال الفرنسي مزودة بمدرستها » (2) . ويكفي هذا التخصيص دليلاً على مستوى الثقافة في الإيالة قبل عملية الغزو الفرنسي .

أما من حيث الاقتصاد ، فلإن خصوبة الجزائر وجودة تربتها مشهورتان حتى أن الكولونيل سالدان السويسري يقول أنه لم ير ، في سائر أنحاء أوروبا ما يشابه ناحية البليلة التي زارها (3) .

وقال السيد بيسكاتوري أمين اللجنة الإفريقية ، وهو يقدم تقريره لأعضاء

(1) ميشال هابار ، قصة نكت المعهد ، باريس 1960 ، ص : 88 .

(2) نفس المصدر ، ص : 138 .

(3) نفس المصدر ، ص : 69 .

البرلمان « إن سكان مقاطعة وهران المحصنة عديدون ، وهم أكثر حضارة مما كنا نتوقع » (4) .

ويذكر السيد ديرودولا مال بأن نواحي جيجل وبجاية كانت تنتج الحبوب والحبوز والشعير والزيتون ، وكثيراً من الحلوود والشموع والشحوم ، وكانت سهول عذابة تمتد على مساحة تقدر بحوالي ألف ومائتي ميل مربع .

أما عن الصحراء ، فإن بوعزيز بن قانه يقول : إنها سهل شاسع من الرمال يرتفع قليلاً على مستوى البحر ، ولا نعرف له حدوداً . فيه رقاع فسيحة مغطاة بالأعشاب تصلح للرعي في زمن الشتاء . . . وفي الصحراء تنضج السنابل في شهر مارس (5) .

ولما كان قادة فرنسا متأكدين من أن حملتهم تعتمد على حد السلاح وحده لا يمكن أن تنجح في احتلال الجزائر ، فكروا في تنظيم حملة سيكولوجية تسبق الحملة العسكرية ، وعهد بهذه المهمة للقائد العسكري نفسه الجنرال دوبرمون الذي كلف كلارمون دوتونار ، ودوسامي بصياغة ثلاثة بيانات بلغة عربية قريبة من العامية الدارجة في الجزائر سلمت آلاف النسخ منها إلى بارون دوبينيوسك (6) رئيس شرطة بونايرت سابقاً ، فتوجه بها إلى تونس التي وصلها يوم 30 أفريل 1830 ، وفي تونس جمع عدداً من المترجمين الأكفاء

(4) ديرودولا مال ، مقاطعة قسنطينة ، باريس 1837 ، ص 57 .

(5) بوعزيز بن قانه ، شيخ العرب ، الجزائر 1930 ، ص 42 .

(6) هو نفس الشخص الذي سيكلف بتنظيم شرمة مدينة الجزائر والذي سيتكلم عنه حمدان في الكتاب الثاني من « مآثره » .

القادرين على شرح النصوص للجماهير الشعبية في بلدان المغرب الأربعة . وكان المراد من هذه العملية تنفير السكان من السلطة وحثهم على ملازمة السلبية قصد عزل الداي فيسهل الانتصار عليه . ويقول البيان الأول :

« نحن الفرنسيين ، أصدقاءكم ، نتوجه إلى الجزائر لنطرد الأتراك منها ... إننا لا نغزو المدينة لنصبح سادة عليها ، إننا نقسم على ذلك بدمائنا ... فانضموا إلينا وكونوا أهلاً لحمايتنا ستحكمون بلادكم كما كنتم في السابق : سادة مستقلين في وطنكم ... وإن الفرنسيين سيتصرفون معكم كما تصرفوا ، قبل ثلاثين سنة ، مع أشقائكم المصريين الأعزاء ... إننا نتعهد باحترام كنوزكم ، وأماكنكم وديانتكم المقدسة ... إننا أصدقاء صادقون لكم ، وسنبقى كذلك إلى الأبد ... فاهملوا إلينا ، إنكم ستسعدوننا وستفيدكم صداقتنا إننا سنعيش في السلم من أجل سعادتكم وسعادتنا » (7) .

أما البيان الثاني فإنه وزع في أواخر ماي من نفس السنة وهو موجه للجنود الأتراك يدعوهم إلى عدم المقاومة . ومما جاء فيه : « انني (ملك فرنسا) أضمن لكم بقاء بلدكم على ما هو عليه وأعدكم وعداً صادقاً بأن مساجدكم ، كبيرة كانت أم صغيرة ، ستبقى معمورة » (8) .

وكان مضمون البيان الثالث قريباً من محتوى الثاني ولكنه موجه إلى القبائل في داخل البلاد . وورد فيه : انني أؤكد لكم بشرتي أنني سأنجز جميع وعودي بوفاء ... أنني أتعهد أمامكم وأمام الملأ وأعدكم وعداً لا رجعة فيه ولا غموض بأن مساجدكم وجوامعكم ستحترم ، وأن ديانتكم ستمارس بحرية

(7) ميشال هابار ، ص 22 .

(8) نفس المصدر ، ص 23 .

كما كانت في السابق . . . فابعثوا لنا نوابكم ، فإننا ستفاهم معهم ، ونسأل الله العيش معكم في وقام » (9) .

وبينما كانت هذه البيانات توزع على السكان الآمنين ، كان دوبرمون يصرح لبحارته في مرسيليا أنه يريد غزو الجزائر ليتخذ منها مستعمرة ، وكان بولونيك يتحدث عن توسيع فرنسا في إفريقيا ، وشارل العاشر يعد بمتابعة الحروب الصليبية (10) .

وبالفعل ، فإن البيانات قد ساهمت كثيراً في التأثير على النفوس وفي استمالة الأشخاص نحو الوسائل السلمية ودفعهم إلى الابتعاد عن الداي . ومع ذلك فإن مجلس الأعيان الذي دعا إليه حسين داي للنظر فيما آلت إليه أوضاع البلاد، والبحث عن وسيلة تساعد على إنقاذ الإيالة وإخراجها من المأزق الذي وقعت فيه ، إن ذلك المجلس قد أجاب إجابة واحدة بقوله : « سنحارب إلى أن نستشهد عن آخرنا » (11) .

غير أن هناك مجلساً آخر من التجار والرأسماليين قد اجتمع في نفس الليلة بمحضر باب البحرية ، يزعم جورج إيفار بأن حمدان هو الداعي إليه ، ويؤكد هذا الأخير بأنه لم ينضم إليه ، ونحن نصدق لأن إيفار استنتج ذلك فقط ولم يعتمد على وثيقة . وعلى كل ، فإن المجلس المذكور قد فضل أن يكون الحل سلمياً عن طريق التفاوض . ثم أرسل وفداً إلى القصبة يخبر الداي بما أجمع عليه المجتمعون ، وكانت إجابة الداي أنه سيعمل وفقاً للرغبات التي عبروا له عنها .

(9) نفس المصدر ، ص 25 .

(10) نفس المصدر ، ص 26 .

(11) نفس المصدر ، ص 25 .

ويقول حمدان « أنه أرسل ، في الموعد ، مكتائجي الإيالة وقنصل إنكلترا للتفاوض ، وسيدي بوضربة وولدي الحاج حسن كترجمين يجيدان الفرنسية » (I2) أما الفرنسيون ، فلأنهم كلفوا الكولونيل « براشويس » ترجمان نابليون الذي كان قد أرسله ، ذات مرة ، للتفاوض مع الإيالة . ويقول ميشال هابار : « إن صدق الجزائريين ونيتهم الحسنة قد أثرتا في نفس ذلك الضابط الذي كان يعلم أن دوبرمون خادع ، فاضطربت أحواله بعد عودته إلى مركزه . ولازم الفرلش ثم فارق الحياة بعد حوالي أسبوعين من الاتفاق » (I3) .

ولما تم احتلال المدينة ، وطرد الداي وبعض أتباعه ، ظهرت نوايا فرنسا الحقيقية : فتسارع الأجناد إلى القصبة يبحثون عن الكنوز التي سمعوا الكثير عنها ، ثم أرسلت المبالغ إلى لندن يتقاسمها الملك وصديقه تاليران . وراح المارشال كلوزيل ينهب عشرات المكتارات من أراضي مئيجة القصبة يعمرها أو يهبها لذويه ومساعديه بعد أن قتل أصحابها الحقيقيين أو نفاهم من بلادهم . وقام دوروشمبو ودوروفيكوا يدعوان إلى فكرة الاستئصال متبعين في ذلك سياسة كلوزال الذي يقول : « عندما نشعل الحرب ، فإن ذلك لا يعني أننا نخدم الجنس البشري » (I4) . وعليه أوصى جنوده حينما هجموا على مدينة البلدة بالآلة يبقوا على شيء في طريقهم ، وكلما قتل لهم رجل ينبغي عليهم تعويضه بمحق قبيلة بأكملها لأن تلك هي الوسيلة الوحيدة لإخضاع العرب » (I5) .

ولم يردد الجزائرالات الذين تولوا القيادات المختلفة في أن يقترحوا إبادة

(I2) المرأة ، الفصل الثاني من الكتاب الثاني .

(I3) هابار ، ص 26 .

(I4) نفس المصدر ، ص 97 .

(I5) نفس المصدر ، ص 106 .

الأمة الجزائرية بأكملها زاعمين أن أفرادها لا يتجاوز عددهم الثلاثة ملايين ، بينما يمكن توطين أكثر من عشرة ملايين معمر فرنسي في أرض الجزائر الشاسعة .

وأحس الأهالي بالخديعة ، فراحوا ينظمون المقاومة ويدافعون عن أراضيهم المقدسة . وإلى جانب الكفاح المسلح الذي تزعمه الحاج أحمد باي قسنطينة والأمنير عبد القادر بن محي الدين فيما بعد ، ظهر نشاط سياسي واسع النطاق قام به أولئك الذين كانوا يعتقدون أن الأمة الفرنسية متحضرة وشريفة . وبما أن الحضارة تعتمد ، بالدرجة الأولى ، على حقوق الإنسان ، فإن الفرنسيين سيساءلون الشعب الجزائري على تقرير مصيره بنفسه ، كما أنهم سيأخذون بيده إلى أن يلحق بركب التقدم . ولكن قادة الحملة خيبوا الآمال . وبما لا شك فيه أن أحسن من يمثل هذا التيار السياسي رجلان أحدهما تركي وهو ابراهيم ابن مصطفى باشا ، وثانيهما جزائري وهو حمدان بن عثمان خوجة الذي سنحاول تقديمه للقراء والتعريف به على ما يلي من الصفحات .

أصله ، نشأته ، ثقافته :

ينتمي حمدان بن عثمان خوجة إلى أسرة جزائرية عريقة كانت تملك الأراضي الشاسعة في سهول متيجة ، والبنائيات الضخمة والمحلات التجارية في مختلف أنحاء العاصمة وضواحيها . وبحكم وضعها الاجتماعي هذا استطاع بعض أفرادها أن يلعبوا أدواراً هامة في تسيير الإمالة فكان الحاج محمد - حمدان - أميناً للسكة قبل الاحتلال ، وذا نفوذ قوي يحسب له ألف حساب خاصة في الأوساط التجارية . أما والد حمدان فقد كان فقيهاً وأميناً عاماً للإمالة « مكتابجي » يشرف على الحسابات الإدارية (الميزانية) وعلى السجلات التي تشمل أسماء ورتب ورواتب الانكشاريين . يقول حمدان نفسه « إن هذه الوظيفة لا تقل أهمية عن وظيفة شيخ الإسلام التي يضطلع بها المفتي الحنفي

الذي يعتبر الشخصية الثانية في الدولة بعد الداي « (16) » .

إن الوثائق والكتب والمجلات التي تكلمت عن حمدان لا تذكر بالضبط تاريخ ميلاده . ولكننا إذا اعتمدنا على ما قاله بنفسه من أنه عاش في الجزائر إلى أن بلغ الستين من العمر ، وعلمنا أنه غادر البلاد نهائياً سنة 1833 ، استطعنا أن نقول بأنه ولد سنة 1773 ، أي قبل ميلاد الولايات المتحدة الأميركية واعتراف الجزائر بها ، كدولة مستقلة ، بثلاث سنوات .

وكانت ولادته في عهد الداي محمد عثمان باشا ، أو بابا محمد كما تسمية المصادر الغربية، الذي حكم الجزائر مدة ست وعشرين سنة ابتداء من عام 1766 . وقد كان هذا الداي عالماً وعاملاً ، قام بإنجازات جبارة كقنونة المياه وتوزيعها ، وتنصيب العيون في الشوارع والساحات العمومية ، وبناء المدارس والمساجد والكنائس والحدائق ، وتطوير الصناعات الحربية وتدعيمها ، وتشجيع الثقافة ، والعلوم بجميع أنواعها . وباختصار ، لقد كانت ولايته عهد ازدهار بالنسبة للإيالة . وعليه ، نستطيع القول بأن جميع الشروط كانت متوفرة لكي ينشأ حمدان نشأة مرضية في جو مناسب للتعليم ومساعد على الثقف .

ووفقاً لما جرت به العادة في ذلك الحين بدأ حمدان يحفظ كتاب الله عز وجل ، وأخذ بعض المبادئ في العلوم الدينية على يد والده . ونعتقد أنه انتهى من هذه المرحلة التعليمية الأولى في سن الحادية عشرة، لأننا رأيناه سنة 1784 ، يرافق خاله إلى اسطمبول (17) ، وبما أنه لا يمكن أن يكون قد أرسل في مهمة رسمية ، فلأننا نرجح أن يكون والده قد سفره على حسابه إلى عاصمة

(16) حمدان بن عثمان خوجة ، المرأة ، باريس 1833 ، ص 103 .

(17) كان خاله قد كلف في تلك السنة ، بحمل الهدية إلى الباب العالي .

الدولة العثمانية مكافأة له على ما بذله من مجهود لإنهاء تعايمه الابتدائي وتفوقه فيه .

وبعد رجوعه من الاستانة ، شرع في المرحلتين الثانوية والعالية دائماً تحت إشراف والده ، وإن كما لا نشك في أنه تتلمذ على أساتذة آخرين كانوا يقومون بالتدريس في ذلك الحين ولم تذكر المصادر عنهم شيئاً .

وفي هاتين المرحلتين تبهر حمدان في علم الأصول ، وتمكن من الفروع الفقهية ، ثم درس التاريخ والمنطق ، وجال في عالم الفلسفة والتصوف د كل ذلك نستنتجه من «مرآته» ومن رسالة له أسماها «حكمة العارف بوجه ينفع لمسألة ليس في الإمكان أبدع مما كان» وعالج فيها قول الغزالي ليس في الإمكان أبدع مما كان .

أما كتاب حمدان «إتحاف المنصفين والأدباء في الاحتراس من الوباء» (18) فإنه يدل دلالة قاطعة على طول بابه في علم الطب . ويؤكد حمدان نفسه هذا الدليل عندما يقول في حديثه عن العدوى : «بل قد يكون لها (أي الوباء) أسباب أخرى ، إلا أنها قليلة ، فنقول على وجه الاحتمال لا القطع بحسب ما طالعناه من كتب الطب ، إن فساد الأهوية وكثرة المعفونات تورث ، بإذن الله ، أمراضاً وحميات مشهورة لا تنكر ، فربما تشتد سمية المعفونات في بعض الأفراد حتى تصير مؤثرة ، بإذن الله ، في كل ما يجاورها ، فلذلك قدمنا أن الشيء قد تكون له أسباب متعددة» (19) .

(18) حمدان خوجه ، إتحاف المنصفين والأدباء في الاحتراس من الوباء ، تقديم وتحقيق الأستاذ محمد بن عبد الكريم ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 1968 .
(19) نفس المصدر ، ص 125 .

وبالإضافة إلى تبحره في العلوم ، وغوصه في ميادين المعرفة ، فإن حمدان قد اهتم بإنفان اللغات . فكان إلى جانب العربية - لغته الأساسية التي ألف بها وكتب وكاتب - يجيد اللغة التركية . يدلنا على ذلك قول أحمد باي في مذكراته : «إنني لا أدري هل سلمت رسائلي إلى السلطان أم لا ، ولكنني أعلم علم اليقين بأن حمدان الذي كان في القسطنطينية هو الذي ترجمها إلى اللغة التركية» (20). وليس من الغريب أن يكون حمدان قد بدأ يتعلم التركية منذ صغره نظراً لأن والده كان موطعاً سامياً يحسن التركية بالقوة ، ولرغبة ذلك الوالد في إعداد ولده لأن يتقلد منصباً سامياً مثله . وهناك دليل آخر على أن حمدان كان يعرف التركية معرفة جيدة ، ويتمثل في أنه كان مترجماً بالمطبعة العامرية في القسطنطينية ، وأنه نُقل كتابه : «تحاف المنصفين ...» بنفسه من العربية إلى التركية قبل أن يهديه إلى السلطان محمود خان الثاني . ولا يمكن أن يكون حمدان قد تعلم التركية بعد أن قصد عاصمة الدولة في المرة الأخيرة ، لأن ذلك وقع سنة 1836 وكان عمره إذ ذاك ثلاثاً وستين سنة وهو سن لا يسمح لصاحبه بتعلم لغة إلى درجة الإتقان خاصة وأنه لم يمكن في تركيا إلا أربع سنوات ثم التحق بجوار ربه .

ومن جهة أخرى ، كان حمدان يتكلم الفرنسية والإنكليزية بطلاقة ، لكنه لم يكن يجيد الكتابة بهما . ومن الممكن أن مصالحه التجارية ، واحتكاكاته بقنصليتي إنكلترا وفرنسا اللتين كانتا تتنافسان على احتلال الصدارة في الجزائر في ذلك الحين ، وكذلك زياراته المتكررة إلى بعض المناطق في فرنسا وباريس على وجه الخصوص . من الممكن أن كل ذلك هو الذي ساعده على تعلم

(20) أحمد باي ، مذكرات أحمد باي ، المجلة الإفريقية ، 1949 ، ص 89 .

اللغتين ، بالإضافة إلى ما كانت له من علاقة متينة بالسيد حسين دغيز ، وزير خارجية طرابلس السابق الذي كان يجيدهما نطقاً وكتابة ، وكان كثير الإقامة في بلاد الإنكليز .

وهكذا كان حمدان ذا ثقافة واسعة ، لم يكتف بما كان يكتب بالعربية والتركية . وإنما كان يبذل كل ما في وسعه للاطلاع على ما ينشر باللغات الأخرى في العالم الغربي خاصة ، وكان يستعين في ذلك بصديقه الوفي حسونة الدغيز الآنف الذكر الذي كان يترجم له كل كتاب ذي شأن عظيم مثل حقوق الإنسان أو مبادئ القانون الطبيعي المطبقة على سلوك الأمم والملوك وعلى شؤونهم ، (21) . ولقد أفادته تلك النافذة التي فتحتها على الغرب بحيث أننا سنرى تأثيرها واضحاً في رسائله العديدة التي كتبها دفاعاً عن الوطن المسلوب .

ونتيجة لهذه الثقافة المتينة الواسعة ، فإن حمدان قد ترك للمؤرخين عدداً كبيراً من الوثائق الهامة حول مأساة الجزائر والمصائب التي أصابت أبنائها ، وكذلك بعض الرسائل في الفلسفة والطب وفي التصوف . ويذكر الدكتور عبد الجليل التميمي أن حمدان خوجة يعدّ عالماً كبيراً له طلاقة في الرأي وتلاعب بمترادفات الكلام والأفكار ، يضاف إلى ذلك خط شرقي جميل (22) .

وبالفعل ، فإن أسلوب حمدان خوجة سهل وعذب جذاب ، يعتمد

(21) كتبه ايمرفاتل بالفرنسية ، ولكن ترجمة السيد دغيز قد ضاعت على ما يبدو لأننا لم نعتز على نسخة منها في جميع المكتبات العمومية .

(22) الدكتور عبد الجليل التميمي ، بحوث ووثائق في التاريخ المغربي ، 1816 - 1871
الدار التونسية للنشر ، مارس 1972 ، ص 134 .

على الحجة القاطعة والبرهان الساطع ، وكتاباتہ. كلها تدل على عمق في التفكير وحذنة في معالجة القضايا السياسية والاجتماعية على حد سواء .

وفيما يلي نقل فقرة من الاعتراض الطويل الذي تناول ثمانية عشر موضوعاً والذي أرسله إلى وزير الحرب في حكومة فرنسا يوم 15 محرم سنة 1249 3 جوان سنة 1833 ، ننقلها لكي يأخذ القارئ فكرة عن طريقة حمدان في الكتابة وعرض المسائل :

« والخامس ، أخذوا جامع كجوة (كشاوة) وصيروہ كنيسة ، وهو أجدّ جوامعنا ، ومشيد بما لا مزيد عليه ، فنطلب رده لما ذكرنا ، ولأن الدولة الفرنسية لا تعجز عن بناء أمثاله ، حتى تنفر القلوب ، وتغير أمر الدين وتخالف الشروط » (23) .

حياته العملية :

عندما توفي عثمان ، كان الابن قد أنهى دراساته بعد أن استقى من مختلف يتابع العلم والمعرفة ، كما رأينا ، ولذلك ، فإنه لم يتردد ، وشغل بكل فرحة وابتهاج منصب والده : يدرس العلوم الدينية خاصة لأبناء الجزائر والوافدين إليها. ومن الممكن أن حمدان كان يأمل في الحصول على وظيفة المكتابجي التي كانت مستدة لأبيه والتي كان يعد إليها منذ طفولته كما سبق

(23) يوجد نص الاعتراض كاملاً في كتاب الدكتور عبد الجليل التميمي الآنف الذكر وكذلك أجوبة وزارة الدفاع على جميع النقاط حسب ترتيبها . كما أن نفس الاعتراض مترجم إلى الفرنسية كوثيقة أولى في كتاب المرأة .

أن ذكرنا، واستعد إليها فعلاً ، ولكن الدايات لم يشرفوه بذلك . وإذا كانت الوثائق الرسمية قد سكبت عن الأسباب ؛ وإذا كان المؤرخون الذين اهتموا بحمدان لم يبحثوا هذا الجانب الهام من جوانب حياته ، فإننا عندما نجتهد بعض الشيء نستطيع حصر الأسباب الرئيسية فيما يلي :

1 - صغر سنه في ذلك الحين ، وبالتالي قلة تجربته .

2 - كثرة الأحداث وعدم استقرار الأوضاع في مستهل القرن التاسع عشر ، الأمر الذي جعل الدايات يفقدون ثقتهم في كل شيء ، ولا يركنون لأحد .

3 - مساعي خاله الذي نعتقد أنه كان يعمل على إبعاده من الدوائر الحكومية ليساعده على تسيير محلاته التجارية .

ومهما يكن ، فإن حمدان لم يلبث طويلاً في التدريس ، ثم صار يولي كل عنايته للفلاحة والتجارة مع خاله ، وقد نجح فيهما نجاحاً باهراً إلى درجة أنه أصبح من كبار الأغنياء وذوي الشأن في مدينة الجزائر ، تقدر ثروته ، قبيل الاحتلال ، بأربعين مليوناً من الفرنكات (24) ولكي يتصور القارئ قيمة المبلغ نشير الى أن قطار القمح كان يساوي ، آنذاك ، حوالي عشرين فرنكاً .

يقول حمدان ، في عرض جال قدمه إلى لويس فليب ملك الفرنسيين يوم 19 جوان سنة 1835 : « كنت أملك بمزارعي ، في منطقة متيجة ،

(24) حسب تقويم الإدارة الفرنسية نفسها، انظر محظوظات أكس I و I هـ وكذلك عبد الجليل التيمي ص 134 .

عشرة آلاف رأس غنم وستمائة رأس بقر ، وأربعمائة ثور للحراثة ، وستين جملاً ، ومائتين ما بين فحول وفرسان ، وستين بغلاً ، وعدداً آخر من الحيوانات . وبالإضافة الى هاته الثروة الفلاحية كنت أملك ستمائة معسلة ، ما بين خمسة وستة آلاف كيلة من القمح والشعير (25) ، وعدة آلاف من الهكتارات الصالحة للزراعة (26) . وجاء في المرأة : «لاني كما ذكرت في السابق أحد المالكين في النتيجة ، وأزرع سنوياً ، في هذا السهل ، ولحسابي الخاص ، حوالي مائة وستين حمولة جمل من القمح ، وحوالي مائة أو مائة وعشرين من الشعير ، (27) » .

ولى جانب النشاط الفلاحي ، كان حمدان تاجراً كبيراً في مدينة الجزائر ، بل إن السيد سان جوهن - القنصل الإنكليزي - يذكر بأنه كان «يعد أهم تاجر في البلاد (28) » ، له محلات كثيرة في العاصمة تتعامل مع كامل أنحاء الإيالة . وعندما وقع الاحتلال الفرنسي تعرضت متاجرهم ، كغيرها إلى النهب والسلب ، ثم أمرت السلطات بتهدم بعضها ، وزيادة على ذلك أصبحت القوافل لا تأتي من الداخل بسبب عدم توفر شروط الأمن ، وخوفاً من أن تلقى نفس المصير . كل ذلك قد دفع التجار إلى التخلي عن نشاطهم والتخلص ، بجميع الوسائل ، مما كان لديهم من سلع . يقول حمدان : « كنت أملك بمغازاتي عدداً من

(25) المتعبود هنا هو الإنتاج السنوي ، لأن ستة آلاف كيلة تساوي 1500 طنطار ولا يمكن أن يدخر فرد واحد مثل هذه الكمية الهائلة .

(26) عبد الجليل التميمي ، ص 190 .

(27) المرأة الفصل الخامس .

(28) عبد الجليل التميمي ، ص 134 .

البضائع والأقمشة التي لم تبع نتيجة عدم تمكن القوافل القاطنة بداخل البلاد من دخول مدينة الجزائر ، وأجبرت أثر ذلك ، على بيع تلك البضائع بالخسارة ، (29) .

وفوق ذلك كان حمدان يقيم علاقات تجارية مع كل من إنكلترا وفرنسا ، فكان يستورد من الأولى أزوت البوطاس والأسلحة بمساعدة بعض اليهود ، وكان يجلب من مرسيليا ، بالاشتراك مع خاله الأنف الذكر ، أنواعاً مختلفة من الأقمشة القطنية والبرازة وبعض الآلات والأدوات الضرورية للصناعة والفلاحة كما أنه كان يصدر إليها كثيراً من الحبوب والصوف والجلود والشموع والمرجان.

ولكن كانت التجارة الخارجية ، بالنسبة لحمدان ، مصدراً هاماً من مصادر تزوته الطائلة فإنها كانت في نفس الوقت وسيلة من وسائل التفتح ، سمحت لذلك العالم المسلم بأن يطلع على أنماط الحياة المختلفة ، وكذلك العادات والتقاليد والأنظمة السياسية التي كانت سائدة في أوروبا وآسيا الصغرى ، وفي الشرق الأوسط في ذلك الحين .

لقد زار عاصمة الدولة العثمانية وهو رجل ناضج ، وطاف بمختلف أنحاء شبه جزيرة البلقان .

وعلى الرغم من أن المصادر تغفل التاريخ الذي بدأ فيه تلك الرحلة الطويلة فإننا ، بالاعتماد على تاريخ العودة الذي كان سنة 1801 حسبما أورده بنفسه في المرأة (30) ، نستطيع أن نحصر يوم الإبحار من مدينة الجزائر في آخر سنة

(29) نفس المصدر ، ص 190 .

(30) المرأة الفصل الثالث عشر من الكتاب الأول .

من القرن الثامن عشر ، وقد يقال من أين لنا أن نزعّم بأنه أبحر ، ولم يأخذ طريق البر ، ونجيب بأنه لو لم يكن كذلك لم يتونس وهو ذاهب ، ولما كان عندها ، يترك الفرصة تمر دون تخليد الحادث في مرآته أو في وثيقة أخرى من الوثائق الكثيرة التي تركها لنا في شتى الميادين ، ولكنه لم يزر العاصمة التونسية إلا وهو راجع. وقد ذكر أنه بقي فيها أسبوعاً كاملاً (31). وقد يقال كذلك لماذا نحدد عام تسعة وتسعين وسبعمائة وألف لبدء الجولة ، ويكون الجواب في منتهى البساطة لأنه لو كان ذلك في العام الذي قبله لما نسي حمدان أن يشير إلى أنه سافر في السنة التي توفي فيها حسن باشا (32) ، وتولى مكانه مصطفى (33) ولا يمكن أن يكون قد غادر المدينة سنة ثمانمائة وألف لأن المدة تكون ، عندئذٍ قصيرة ، ونحن نعلم أنه زار مناطق مختلفة من آسيا الصغرى ، وكذلك مصر وليبيا في حين أن عصره لم يكن عصر السرعة لا في الجو والبحر ولا في البر .

ومن جهة أخرى ، فإن مصالحه التجارية قد قاده إلى عدد من بلدان أوروبا وخاصة إيطاليا وفرنسا وإسبانيا وإنكلترا . يقول حمدان : ولقد عشت في أوروبا وتلوقت طعم الحضارة واتي لأحسب من جملة أولئك الذين يعجبون بالسياسة التي تمارسها بعض الحكومات هناك (34). وبما لا شك فيه أن حاجة لم يقتصر على غالبة الأوساط التجارية في أوروبا ، ولكنه كان ،

(31) نفس المصدر .

(32) تولى الحكم سنة 1792 وتوفي نتيجة دملة في رحله سنة 1798. وفي عهده بني جامع المنصور بنهج الديوان (القنصة) وجنان للداي خارج باب الوادي ، وهو مستشفى مايزو حالياً .

(33) ابن أخت بابا حسن ، تولى سنة 1798 واغتيل سنة 1805 ، وفي عهده تم بناء جنان مصطفى باشا .

(34) المرأة ، وثيقة رقم 5 .

كذلك ؛ كثير التردد على النوادي الفكرية حتى قيل أنه من رواد بنجامان كونستان (35) وكثير الاحتكاك بالأوساط السياسية، يشهد على ذلك قوله : « في سنة عشرين وثمانمائة وألف كنت في باريس ، وتشرفت برؤية الدوق دورليون يتأبط ذراع الدوقة زوجته وهو يحاط بكامل أفراد أسرته . كنا لا نسمع عنه إلا "الخير" ، وكان الحفل كله مديحاً وتبركاً » (36) .

ونتيجة لهذه الإقامات المتعددة صار حمدان يهتم بالغ الاهتمام بالقضايا الأوروبية ، ويتتبع الصراع السياسي والثقافي الذي كان يتم في كل أنحاء القارة ، كما أنه كون لنفسه علاقات ودية مع شخصيات تنتمي إلى أوساط مختلفة وخاصة أولئك سيصبحون ، في يوم من الأيام ، أحرار ملكية جولييت . ولا يريد خوجة أن يكون ذلك الاطلاع الواسع مقصوراً عليه وحده ، بل « ان جميع البدو يعرفون كل ما يجري في أوروبا ، بينما لا يعرف الأوروبيون ماذا يصنع البدو في افريقيا » (37) .

والجدير بالذكر أن حمدان لم يقطع صلته بأوروبا حتى بعد الاحتلال . وتبدل كثير من الفقرات في «مرآته» على أنه ظل يتتبع الأحداث الخطيرة عن كثب ، ومن ذلك قوله للحكومة الفرنسية عندما دعاها للاعتراف بالسيادة الجزائرية والانسحاب نهائياً من الإيالة : « عندئذ ، فإن روسيا ، من جهتها . ستكون مضطرة إلى الاعتراف بالجنسية البوالمونية . . . وإن هذا التحرر الليبرالي سيزيد من شهرة عصرنا ، خاصة وأن الجزائريين لا يتلينون بدين الأوروبيين (38)

-
- (35) شارل أندري جوليان ، تاريخ الجزائر المعاصر ، ص 74 ، وبنجامان كاتب وسياسي فرنسي ولد سنة 1767 وتوفي سنة 1830 .
(36) المرأة ، الفصل الثامن من الكتاب الثاني .
(37) المرأة ، الفصل العاشر من الكتاب الثاني .
(38) نفس المصدر ، الفصل الثاني عشر من الكتاب الثاني .

واخيرا ، فإن زيارات حمدان لاوروبا قد جعلته يتعرف على كثير من العقليات والأفكار التي ساعدته مساعدة قيمة في كتابة الاعترافات وتقديم الحجج والبراهين التي يفهمها سادة القارة الأوروبية آنذاك .

الكاره :

إن الذي يدرس المؤلفات العديدة التي تركها لنا حمدان خوجة لن يتردد لحظة واحدة في اعتبار الرجل من أكبر مفكري العالم الإسلامي الذين ظهوروا في القرن التاسع عشر . وتتجلى أفكاره واضحة في دعوته لليقظة الشاملة ومن خلال نظرته للحكم واتجاهاته القومية .

فبالنسبة للنقطة الأولى كان يرى أن اليقظة الحقيقية لا تتم إلاّ بنيل التعصب وبالعمل على تطهير الدين من الشوائب التي جمعت العقول ، وعليه نادى بالثورة ضد أولئك الذين أغلقوا باب الاجتهاد ، وظلوا يدورون حول أنفسهم يتغلبون بالنقاش البيزنطي ، يقلدون ولا يحاولون الابتكار ، أولئك الذين تمسكوا بالتقديم : فضلوا وأضلوا ، وقنعوا من كل شيء بالقشور . وفي مثل هؤلاء الرجعيين يقول : « وهذا دأب المزيفين من مدعي التصوف دائماً يتجهمون على استخراج الأحكام الشرعية - بمجهلهم - من الآيات ومن الأحاديث ، ويتغالون في الدين . قال تعالى : « لا تغفلوا في دينكم » (39) . ثم المقرر أنه إذا كان في واقعة تسعة وتسعون قولاً تقتضي التفكير ، وقول واحد يقتضي عدم التفكير ، فالفتوى على هذا القول الواحد دونها . والقول القصير في معرفة هؤلاء هو ما ذكره الإمام الغزالي في « الإحياء » أن الناس على ثلاث : فرجل يدري ويدري أنه يدري ، فذلك عالم فاتبعوه . ورجل

(39) الآية ٧٩ من سورة المائدة .

لا يدري ويدري أنه لا يدري، فلنك جاهل فعلموه. وربل لا يدري ولا يدري أنه لا يدري، فلنك شيطان فاجتنبوه» (40).

وكان خوجة أول من نادى بالفهم بين الحضارتين الأوروبية والإسلامية لأنه لم يكن يرى أي فارق بين مبادئ الشريعة الإسلامية الحقبة ومبادئ الحرية الأوروبية التي كانت آنذاك تشكل أساس الحكم الشوري والجمهوري ولكنه كان يرى أن سر تخلف المسلمين في كثير من الميادين ناتج عن جهل سائر الملوك للقوانين، وعن الجحود والتزمت. ولذلك كان يدعو إلى التفتح والتحرر وإلى تطبيق المبدأ الأساسي الداعي إلى مسايرة العصر والقتال بأنه: ترتب عن الزمن وحاجات الإنسان ظروف لم تتوقعها القوانين، فيجب على المشرع أن يفهم الضرورات ويعمل على إيجاد كيفية حكيمة لتطبيق القوانين (41).

وما يدل على روح التجديد عند حمدان وتمسكه بالثورة على القديم للأخذ بأسباب الحضارة وللتقدم في ميادين العلم والمعرفة، قوله في رسالة بعثها من باريس إلى السلطان محمود الثاني (42): «إن كل عصر له متطلباته وخصائل جديدة، ولدى ظهور عادة حديثة وجب التخلي عن القديم حتى ننفذ حلول اضطراب وقلق في الشعب وحتى لا يعرقل ذلك تسيير دولاب الإدارة الناجحة» (43).

وإن هذا الشعور بواقع المسلمين في ذلك الحين، وبضرورة التفتح والتحرر

(40) حمدان خوجة، إتحاف المنصفين، المقصد الخامس.

(41) المرأة، الفصل العاشر من الكتاب الأول.

(42) بعث هذه الرسالة من باريس يوم 16 أوت سنة 1833.

(43) عهد الجليل التميمي، ص 170.

للتخلص من التخلف قد جعل خوجة لا يرى حرجاً في الاستعانة بالافرنج والاستفادة من تجاربهم لاصلاح أمور حاضرتنا وللاارتقاء إلى سابق مرتبتنا . وكيف لا نأخذ عنهم ، والله سبحانه يقول في حقهم : « يعلمون ظاهرة من الحياة الدنيا » (44) ونحن قد سلمناهم مهارتهم في الطب واختصاصهم بالصنائع المهمة ، وقد أخذنا بعض المههم منهم ، وتعلمناها عنهم كعمل البارود وكيفية المحاربة به وآلات ذلك بغير تكبر (45) ومع ذلك فإن حمدان كان يجعل التعلم عن الإفرنج مشروطاً بعدم تنافيه مع روح الاسلام وتعاليمه ويحصره في الميادين العلمية التي كان المسلمون في حاجة ماسة إلى أن يتقدموا فيها . جاء في هذا الصدد : « لا مجال لإنكار كون الإفرنج في زماننا وقبله قد تمهروا في العلوم الرياضية والطبيعية والصناعية مع عدم تفيدهم بما يتعلق بأمر أخراهم ، وخصوصاً الطب والنجوم والهندسة وكثير من العمليات حتى صار ذلك كالمختص بهم مع إقرارهم بأن مأخذهم لذلك كان من كتب الإسلام ، ثم زادوا عليها ما صح عندهم بالتجربة والملاحظة . أما المسلمون فقد أهملوا علم الطب ونحوه وصرفوا كل همهم إلى العلوم الشرعية والأدبية لمقاصد متنوعة . . . ولكن أكثر الناس أعداء ما جهلوا » (46) .

وفيما يخص النقطة الثانية ، فإن حمدان كان يعتبر القرن التاسع عشر هو قرن التنوير والحضارة والعلاوة وعليه فهو يميل إلى أن يكون الحكم ديموقراطياً وشورى بين الناس اقتداء بالقرآن الكريم الذي أوصى النبي

(44) الآية السابعة من سورة الروم .

(45) حمدان خوجة ، إتحاف المنصفين ، المقصد الرابع .

(46) إتحاف المنصفين ، المقالة السابعة .

محمد (صلح) باستشارة أصحابه (47) ولأن الشورى أقرب للعدل، والعدل أقرب للتقوى ، وإعطاء كل ذي حق حقه هو مقتضى حكمة الحكيم .

لقد كان المجتمع ، أول الأمر ، في نظره يسير وفقاً لقوانين متفق عليها هي من وضع الحكماء والمتبصرين . وكانت تلك القوانين وحدها قادرة على حماية الحقوق ورعايتها لا تحتاج إلى قوة تحميها لبطانتها ولعدم تعقيد الأوضاع نتيجة البداءة خاصة . ثم تطور المجتمع وتزايدت الحاجات على التوالي ، فنشأت أوضاع جديدة ، وظهرت حرف كثيرة ومهن متعددة واختصاصات وصلاحيات مختلفة ، وتضاربت المصالح . الأمر الذي أوجب تكوين حكومة وتعيين رئيس لها . ومن هنا يقول حمدان : « يبدأ كل شيء وسواء كان الرئيس سلطاناً ، ملكاً أو والياً ، أو غير ذلك ، فإنه يتود ، ويعطي المثال ، وأن أعماله الجائرة توهن عزيمة شعب بأكمله » (48) .

وهناك شروط كثيرة يجب أن تتوفر في الحاكم لينجح في مهمته . وقد عددها حمدان في « المرأة » وفي « إنحاف المنصفين » إذ يقول : « يجب على الحاكم أن يتخلص من أهوائه اللئيمة وأن يكون قوياً رحيماً ، لا طاغية حقوداً . . . لا ينبغي له أن يقوم بأعمال تثير الظنون ولا إن يكون له سلوك مشبوه ومطبوع بغضب مخزٍ . . . كما يجب عليه أن يجتهد في تخفيض أسباب الجفوح لأن البؤس كثيراً ما يؤدي إلى القيام بالأعمال الشريرة » (49) ويضرب على

(47) رسالة حمدان إلى السلطان عمود الثاني باريس 16 أوت 1833 ، انظر عبد الجليل التبيسي ، ص 168 .

(48) المرأة ، الفصل الثاني عشر من الكتاب الثاني ،

(49) المرأة ، الفصل التاسع من الكتاب الثاني .

ذلك مثلاً بتصرفات المارشال كلوزيل الذي لم يكن في قلبه رغبة بالضعفاء ولم يكن يحرص على تحقيق الخير والرفاهية للسكان الذين عين والياً عليهم بل لأنه كان يستولي على المؤسسات الخيرية التي كانت موجودة ، فيضمها لأملاكه أو لأملاك الدولة الفرنسية ، وبذلك نفر الأهالي ، وجعلهم يلجؤون بدورهم إلى العنف للدفاع عن أرواحهم وما تبقى لهم من متاع (50) .

وعلى العكس ، فإن حسن السيرة والعمل الصالح لفائدة الرعية يمكنان الحاكم من استمالة القلوب « وذلكم - يقول حمدان - هو الفتح الذي ما دونه فتح » (51) . وبهذا الصدد يؤكد أن الحكومة الفرنسية تستطيع أن تتبع (في الجزائر) نفس الطريقة التي طبقت في مصر . . . ذلك أن إصلاح مصر ، وتدعيم النفوذ الفرنسي فيها لم يتحققا بواسطة الإدارة التصفية والعنف وإنما يمود الفضل كله لنائب الملك وللعمل باسمه في إدخال الحضارة والفنون (52) .

والحاكم الخير هو ذلك الذي يسهر على شؤون رعاياه ويعرض نفسه للأخطار ليدفع عنهم الضرر ويحقق لهم المنفعة . وهو في سلوكه لا ينبغي أن يكون متحيزاً لطبقة أو لمجموعة معينة ، وإنما يجب أن تكون مجهوداته كلها معبأة في سبيل الوحدة ومن أجل تحقيق المآرب في إطار ما أمر به الشرع .

ويرى حمدان كذلك أن الحاكم أو الوالي كرب الأسرة « لا يجوز له أن يساعد بعض بنيهِ على ترك دفع الضرر على بقية أولاده بلهمل أو حسد أكثر

(50) جورج إيفار ، حمدان خوجة ، المجلة الإفريقية ، 1913 ، ص 124 .

(51) نفس المصدر ، ص 137 .

(52) المرأة الفصل الثاني عشر من الكتاب الثاني .

مثله بين الأخوة» (53) بل يتحتم عليه ألا يصدر الأحكام عن غير معرفة وبدون تفكير ، وأن يتحرى في الأمور ، ويلتقى في القضايا المطروحة بين يديه ، لأن الاغراض والزميمة كثيراً ما تتسرب إلى مجالس العدل . وإذا كان النمام أو المفرض مجنوناً ، يجب أن يكون الحاكم عاقلاً كما يقول المثل الشعبي . ولتدعيم هذا المثل يذكر حمدان بعض تصرفات المارشال بورمون اللامسؤولة والتي لا تسمح لنا هذه الصفحات بذكرها .

وهكذا ، فإن حمدان يرى في الحكم مسؤولية خطيرة ، ووسيلة لتحقيق سعادة الآخرين بواسطة التفاني المستمر والتضحية الدائمة .

أما عن القومية ، فإنه كان يميز فيها بين نوعين : أولاً تلك التي تنادي بحق كل أمة في أن تكون وحدة سياسية مستقلة ، والتي تعلمها عن أوروبا التي شهدت ميلاد تلك الحركة في الربع الأول من القرن التاسع عشر . وقد استطاع خوجة أن يتتبع تطورها بفضل ثلاثته عبر مختلف الأنحاء الأوروبية كما سبق أن رأينا . وللأسف عز عليه أن يرى اليونانيين وشعوب البلقان والبلجيكيين والهولنديين وغيرهم يطالبون باستقلالهم ويحفظون بمساعدة الدول العظمى ، في حين أن بلاده تسلب منها حريتها وتستعمر من طرف إحدى تلك الدول العظمى نفسها ، ولا يقوم أحد بنجدةها . ولقد صرخ في وجه المغتصبين قائلاً : « إنكم تعطلون الملايين الليونانيين والبولونيين ! ! وتنجدون تلك الشعوب بأموال الجزائريين . . . إنكم تستغلون هذا البلد المسكين ، ومع ذلك فإن الجزائريين ، أيضاً أناس » (54) . فلماذا لا تخرج فرنسا المتحررة من

(53) إعفاف المنصفين الثامنة .

(54) المرأة القصل الحادي عشر من الكتاب الثاني .

الجزائر وترك إدارتها لأبنائها ، فتكون بذلك قد مهدت الطريق لسائر الشعوب التي تكافح من أجل تقرير المصير ؟ ولماذا تسكت الحكومة الفرنسية عن الجرائم التي ترتكبها جيوشها يومياً ضد السكان الآمنين في مختلف أنحاء الإيالة ؟ .. إن كل تلك الأعمال الوحشية لن تغيد الفرنسيين في شيء لأنها لن تخرجهم من الورطة التي وقعوا فيها عندما أقدموا على نكث العهد واحتلال الجزائر .

هذا ، ويعتبر حمدان هو أول من استعمل عبارة «الجزائر للجزائريين» (55) ، مؤكداً بأن ذلك المفهوم هو الإطار الشرعي الذي يمكن أن تجدد فيه فرنسا أحسن وسيلة تساعد على الانسحاب من الإيالة بكل شرف .

وثانياً ، تلك التي تعني الانتماء إلى أمة معينة والتعلق بها . وقد كان حمدان يرى أن الجزائر تشترك في العقيدة مع كثير من الشعوب ، ولذلك كان ينادي بالعمل على بعث القومية الإسلامية بواسطة الرجوع إلى الأصل والتخلص من التعصب الأعشى الذي منع المسلمين من الأخذ غن الإفرنج الذين يقول خروجه أنه رأى انتظام أمورهم واعتنائهم بأمور السياسة في صيانة جمهورهم (56) .

وإذا كان حمدان ، كما رأينا ، قد نادى بضرورة استقلال الجزائر ، فإنه كان مع ذلك يرى أن السلطان العثماني هو صاحب الأمر والنهي بالنسبة لجميع البلدان الإسلامية التي تكون الخلافة . وبهذا الصدد ، كان يدعو محمود الثاني إلى اتخاذ مسؤولياته في الدفاع عن كل شبر من التراب الإسلامي فيقول : « إن المسلمين الذين استشهدوا ودفنوا في هاته التربة ، سوف يسألونكم ، يوم الحساب ، لماذا تخليت عنهم (57) » .

(55) إيفار ، ص 119 .

(56) إتحاف المنصفين ، مقدمة الرسالة .

(57) رسالة حمدان إلى صاحب الجلالة محمود الثاني ، باريس 29 ربيع الأول 1249 ،

الموافق 16 أوت 1833 . (انظر عبد الجليل التميمي ، ص 170) .

وأخيراً ، وعلى أساس ما تقدم نستطيع القول بأن حمدان من أكبر دعاة الإصلاح والقومية . لقد سبق ، في ذلك ، كلاً من الأفغاني وعبد ، ولكنه لم يحظ حتى الآن ، برعاية الباحثين ، فندرج أن تسلط كثير من الأعضاء على هذا الجانب الهام من جوانب تلك الشخصية القذة التي ما زالت محتاج إلى فهم ودراسة .

حياته السياسية :

إن جميع المؤرخين الفرنسيين الذين كتبوا عن حمدان قد حاولوا جاهدين أن يقدموه مشوهاً للقراء ليحرمونا من شخصية أخرى هي من ألمع وجوه المقاومة السياسية في بلادنا . ونحن إذا كنا لا نلوم هؤلاء المؤرخين على مثل تلك التصرفات اللاعلمية لأننا ندرك أنها تخدم مصالح وطنهم (وأبنا لا نفتنم جميع الفرص لإزالة الشبهات عن وطنه ، حتى ولو كان ذلك على حساب الآخرين) ولكننا نرثي لحال بعض « الجزائريين » الذين ما زالوا ، بعد عشر سنوات من الاستقلال ، لم يحاولوا خط طريقهم بأيديهم ، وكتابة تاريخهم وفقاً للواقع لا كما يصوره لنا غيرنا .

إن الشخصيات المنسية في تاريخنا ، كثيرة والمظلومة أكثر . وعلينا ، نحن أبناء هذا الجيل أن نتخلص من القيود : فتعيد تأهيل كل مشوه ، وننفض الغبار عن كل منسي حتى تسلط الأعضاء على الماضي ، وعلى أساسه نبني المستقبل اذ لا يمكن أن يكون هناك مستقبل بدون ماض ، كما لا يمكن أن تبني القصور بدون أساس .

لقد قال السيد جورج إيفار: «إن حمدان شخصية سياسية غامضة» (58) واتهمه بأنه ساهم في التعجيل بالاحتلال مدعياً بأنه قد يكون ساعد على تأزم الوضع بين الجزائر وفرنسا سنة 1827 ، وبأنه رفض الانضمام إلى المفتي الحنفي الذي كلفه الداي بتجنيد الأهالي للدفاع عن مدينة الجزائر ، وبأنه هو الذي دعا إلى اجتماع الأعيان الذين طلبوا من حسين أن يتفاوض مع الفرنسيين ، كل هذه الاتهامات مجموعة تجعل من خوجة ذلك الرجل الخائن الذي يستحي كل مواطن صالح أن ينتسب إليه . وللتدليل على هذه الحياة يذكر إيفار بأن ابن حمدان - الحاج حسن - قد توجه صحبة أبي ضربة ، إلى مقر قيادة الجيش الفرنسي ، يوم 4 جويلت ، للتفاوض مع الجنرال بورمون .

إن الذي يقرأ هذا النثر المصقول لا يستطيع إلا أن يتبرأ من رجل عمل كل شيء ليرزح شبه تحت نير الاستعمار . ولكن كما يقول المثل : إذا كان النمام مجنوناً ينبغي للمستمع أن يكون عاقلاً . ونحن إذا أردنا أن نكون عاقلين ، ونعثر على الحقيقة عارية يجب أن نعود إلى الفقرة السابقة ونسأل إيفار كيف يمكن أن نصف بالفموض شخصية تقول أمام الملا : «إنهم (الفرنسيين) يجب أن يلاحظوا بأن أي رجل يحب بلاده حياً صادقاً لا يستطيع أن يكتب بأعصاب هادئة دون أن يتوقف عند كل حادث يمثل له إبادة مواطنيه ، أو تقتيلهم ، أو تدنيس مدافن أجداده ... هذا وما أنا إلا صدى للأحداث ، ولسان لأبناء وطني » (59) وفي مكان آخر يصرح بقوله : « لو أنني لم أكن في مثل ما كنت فيه من الحيرة والعذاب من جراء ما آل إليه

(58) إيفار ، نفس المصدر ، ص 98 .

(59) المرأة ، الفصل الثاني عشر من الكتاب الثاني .

بلدي المسكين ، لكان بإمكانني أن أجمع وثائق غاية في العجب حول هذا الجزء من افريقيا (60) .

وأما تأزم الوضع بين الجزائر وفرنسا سنة 1827 ، فإنه يرجع إلى أسباب كثيرة هي أسباب الاحتلال ، ولا نستطيع ذكرها في صفحات معدودة . ولكن الذي ساعد ، ظاهرياً على كهربة الجو ، وعمل على عرقلة المساعي الرامية لإيجاد حلول مقبولة للأزمة هو بلا شك ، الرئيس بولينياك وزعيم عصائنه السيد دوفال صاحب حادثة المروحة . ولا نرى كيف يمكن أن يكون حمدان قد ساعد على تسميم الوضع ، وإيفار نفسه يشهد بأنه « بذل كل ما في وسعه لإقناع الداي بضرورة التفاهم مع الفرنسيين (61) » ، لإبرام صلح قد يجنب الجزائر من بعض الكوارث ، ثم لماذا يعمل خوجة على التعميل بالاحتلال وهو موضع ثقة حسين ، وحسين باشا أبعد من أن يكون رجلاً فظاً غليظاً ، وكل إنسان يعرفه لا يمكن أن يتهمه بالخشونة (62) . أفعل ذلك لكي يقول فيما بعد : « إنني مكسور القلب من جراء الأخبار التي تصلني يوماً من الجزائر ، والتي تقول بأن الدماء تراق ودياناً ، وأن السخط عام ، وأن بلدي يسير نحو الخراب » (63) . لا ! ان حمدان لم تكن له أية علاقة بما جرى من تأمر ضد الإيالة ، وان وطنيته لأرضه من أن تتركه ينحط إلى درجة الخيانة .

وفيما يخص عدم انضمامه إلى المفتي للدفاع عن المدينة ، فإن حمدان

(60) المرأة ، الفصل الأول من الكتاب الثاني .

(61) إيفار ، ص 98 .

(62) المرأة ، الفصل الأول من الكتاب الثاني .

(63) المرأة ، الفصل الثاني عشر من الكتاب الثاني .

يؤكد بأن المفتي صديق حميم له ، وهذا صحيح لأن إيفار نفسه قد أورد في مقاله أن من جملة الاتهامات التي وجهها كلوزيل لحمدان أنه كان يدافع باستمرار عن ذلك المشرع الحنفي الذي ألقى عليه « القبض بسبب تأمره ضد السلطة الفرنسية » (64). ولم يكن حمدان يخفي تلك الصلة المتينة التي تربطه بذلك الفاضل التزيه الذي لم يكن له ذنب سوى أنه كان يكتب دائماً إلى الجنرال يلومه على تصرفاته التي كانت تبدو له مخالفة لوثيقة الاستسلام ، للقانون الفرنسي ولحقوق الإنسان (65) وما من شك أن مثل تلك الصداقة وحدها كفيلاً بأن تجعل خوجة يستجيب لدعوة المفتي لو كان في الأمر بصيص من الأمل ، ولكن إبراهيم آغا قد فرّ وترك كل شيء حتى أصبح الجيش والشعب قطعاً بدون راعٍ « وشيخ الإسلام رجل عادل لكنه بعيد عن أن يكون محارباً وفي مثل تلك اللحظة الحرجة لم يكن من الممكن أن يقود جيشاً ويصد عدواً ... لذلك تأكدت من أن هلاكنا محقق ، ورفضت أن أشهد مثل تلك الكارثة المفجعة (66) .

ولقد كان حمدان ، بعد نكبت سيدي فرج وسطاوي ، قد قام بنشاط محمود ، إذ كلفه الباشا بالبحث عن قائد الجيش وإلزامه بإعادة تنظيم قواته ، وبالفعل ، فإنه استطاع أن يعثر عليه مخفياً في دار ريفية ، وأرضه على اتباعه ، وعلى جمع ما أمكن من الجنود الذين كانوا مجهزين ومستعدين . وبهذا الصدد يقول حمدان : « وعلى الرغم من أنني كنت على يقين - مسبقاً - من أننا

(64) إيفار ، ص 100

(65) أحمد الجزائري ، ص 21 .

(66) المرأة ، الفصل الثاني من الكتاب الثاني .

لن نتمكن من فك حصار المدينة والدفاع عنها ، فلإني بذلت كل ما في وسعي لاداء تلك المهمة » (67) .

هذا بالإضافة إلى أن خوجة كان ملازماً للداي ، يشجعه ويدعوه إلى التصرف بحكمة ولو كان فيه ميل إلى الخيانة لما أمهله ذلك الباشا الذي عرف بالحزم ، ولما سكت أحمد باي عن ذلك في مذكراته ، ولا أحمد الجزائري في كتيبه لكيلا نذكر إلا من عاش الأحداث كممثل لا كمتفرج .

وهكذا ، إذن ، فإن حمدان العالم قد ساهم بكل ماله من طاقة في صد العلوان الفرنسي ولا يحق لأحد أن ينكر عليه ذلك .

وفيما يتعلق بالدعوة إلى اجتماع الأعيان ، فإن حمدان وأحمد الجزائري بذكران بأن الداوي هو صاحبها . ولقد فعل ذلك عندما دخل بورمون إلى حصن الامبراطور . وقد أخطأ ايفار عندما قال بأن هؤلاء الأعيان هم الذين طلبوا من الباشا أن يتفاوض مع الغزاة . والصحيح أنهم عندما سئلوا عن رأيهم أجابوا بالإجماع قائلين سنحارب إلى أن نستشهد عن آخرنا ، ومع ذلك فإذا فضل سموكم وسائل أخرى فإنه حر في أن يعمل ما يراه صالحاً ، وسيجدنا عند إرادته » (68) . ولكن الذين طالبوا بإبرام معاهدة السلم هم جماعة من التجار والرأسماليين كانوا قد عقدوا اجتماعهم في حصن باب البحرية في نفس الليلة التي اجتمع فيها الأعيان ، ولا يمكن أن يكون حمدان معهم لأنه كان مع الأعيان في بيت الداوي ، زد على ذلك ، فإنه لم يكن من دعاة

(67) نفس المصدر .

(68) المرأة ، الفصل الثاني من الكتاب الثاني .

الاستسلام ، نستخلص ذلك من تكرار قوله لحسين باشا : «إن القضية الظالمة تصبح عادلة إذا توفرت لها المقاومة والصمود » (69) .

بقي الآن أن نتعرض لادعاء ليفار بأن ابن حمدان قد شارك في الوفد الذي تفاوض باسم الإيالة مع قائد القوات الفرنسية . وكان ذلك في نظاره ، كافياً لإدانة الأب وللتدليل على ميله للاستسلام . غير أن شاهد العيان ، أحمد الجزائري يذكر بأن الوفد الرسمي كان مكوناً من عضوين هما : المكتويجي والقنصل الإنكليزي . وفي المرأة نجد تأكيداً لهذا القول الأخير . ولم يذهب أبو ضربة والحاج حسن إلى سيدي فرج إلا كـمترجمين يجيدان اللغة الفرنسية . وعلى فرض أن ابن حمدان شارك ، فعلاً ، في الوفد المفاوض ، فهل ذلك ينقص من قيمته أو من قيمة والده . كلا ! ولكن جميع الحجج صالحة لمن أراد التشويه

وهناك مسألة أخرى كثيراً ما يلام عليها حمدان ، وهي قبوله الوظيفة في عهد الاحتلال . وبالفعل ، فإنه قد اشتغل على التوالي عضواً في بلدية الجزائر وفي اللجنة التي عهدت إليها مهمة تعويض الأشخاص الذين هُلمت ممتلكاتهم لفائدة المصلحة العامة كما يقولون . وقد كان حمدان يدرك تمام الإدراك خطورة ما قام به ، ولكن ما حيلته وليس له منفذ آخر غير الموافقة .

أما عن البلدية ، فإنه قد أجبر ولم يقبل إلا لأنه لم يكن بإمكانه أن يرفض ولأنه كان قبل ذلك قد اتهم بأنه يرغب في عودة الأتراك ولا يرضى بأية وظيفة في ظل الحكومة الفرنسية . وعلى الرغم من أن وجود الجزائريين في

(69) نفس المصدر .

البلدية لم يكن سوى صوري لأن الرئيس الفرنسي كان يتبع هواه فقط ولا يستمع لرأي أحد ، فإن حمدان ومن كان معه من المسلمين قد اتخذوا كثيراً من المواقف التي تشرفهم : كرفضهم مثلاً ، تسليم مسجد ميناء السمكة للجنرال كلوزيل الذي كان يريد تحويله إلى مسرح ، وكوقوف حمدان في وجه الجنرال المذكور عندما أراد الاستيلاء على أملاك مكة والمدينة ، التي هي صدقة منا ومن والدينا على الفقراء (كذا) بمقتضى الشرط بعد الموت على وفق ديننا ، لا طريق لكم إلى الاستيلاء عليها ، وأخذ ما كان عند الوكيل من النقود (70). قد يقال وما فائدة تلك المعارضة ما دام كلوزيل يستطيع الاستيلاء على ما يريد بمجرد قرار يصدره متى شاء ، ونقول : إن الموقف وحده ، في نظرنا ، جدير بالتقدير ودليل على أن حمدان لم يكن عميلاً إماعياً يفعل ما يؤمر به .

وكانت مثل هذه المواقف تتكرر كلما انعقد مجلس البلدية « ولو بقي النصارى المساويون وحدهم ولم يمنهم النصارى المحمديون أمثال اللعين بو ضربة وأضرابه لما استطاعوا أن يبقوا في الجزائر » (71) .

وعندما يش القائد الأعلى للقوات الفرنسية من إمكانية استعمال حمدان وبعض زملائه ، عزلم كما عزل أبا ضربة معهم ليتمكن من استخدامه في ميدان آخر . « وكان هذا العزل مصدر سعادة لنا ، وتخلصاً من أحد الأعباء التي كانت تثقل كواهلنا » (72) .

(70) المرأة ، الفصل العاشر من الكتاب الثاني .

(71) رسالة حمدان إلى أحد أصدقائه ، انظر عبد الجليل التميمي ، ص 175 .

(72) المرأة ، الفصل العاشر من الكتاب الثاني .

تلك هي عضوية حمدان في البلدية ، وذلك هو الدور الذي قام به . ففي أي شيء يمكن أن نلومه ؟

وأما عن العضوية في لجنة التعويضات ، فإن حمدان قد قبلها راضياً ليشتمكن من مساعدة أبناء وطنه على تقييد كل ما وقع هدمه ، وتقييمه حتى قيمته ، فيستطيعون بذلك الحصول على تعويضات هامة تسمح لهم باستبدال ما ضاع منهم وبالفعل فإن خوجة قد بذل مجهوداً كبيراً في إطار هذه اللجنة ، ولكن السلطة الاستعمارية فطنت لما كان يقوم به من نشاط ، فأغلقت ، نهائياً ، باب التعويضات وحلت اللجنة المذكورة .

بعض مواقفهم :

إن مواقف حمدان كثيرة في المجال السياسي ، وهي ، حسب رأينا ، يجب أن تدرس مقسمة على فترتين زمنيّتين مختلفتين : أولاً : الفترة التي قضاهما في الجزائر بعد الاحتلال ، وهي لا تتجاوز ثلاث سنوات ، وثانياً : تلك التي قضاهما في باريس ، وهي لا تقل عن الأولى .

أما في الجزائر ، فقد بدأ نشاطه إلى جانب المفتي الحنفي وإبراهيم بن مصطفى باشا ، بالدفاع عن احترام ما جاء في وثيقة الاستسلام التي تم التوقيع عليها يوم 5 جويليت ، والبند الخامس منها على وجه الخصوص ، ويقول ذلك البند : « إن الدين المحمدي سيبقى معمولاً به كما كان في السابق ، انه سيبقى على ما هو عليه . إن حرية أهل البلاد مهما كانت طبقتهم ، سيبقى محترمة ، وإن دين هذا الشعب ، وممتلكاته وتجارته ، وصناعته ، بالإضافة إلى نسائه سيبقى محترمة أيضاً ، إلخ... » (73) (وعلاوة على هذه الضمانات

(73) أبو القاسم سعد الله ، الحركة الوطنية الجزائرية 1900-1930 ، بيروت 1969 الملحق الأول .

الصرخة ، كان بورمون في بيانات متعددة يوهم الشعب بأن الجيش الفرنسي لن يبقى في الجزائر أكثر من ستة أشهر ، يشرع بعدها في الجلاء ، ويترك البلاد لأهلها وقد كان يقول ذلك لتخدير الرأي العام ، وتخلق البلبلة في صفوف المقاتلين ، وجلب قسم هام من الأعيان الطامعين في الحكم الذين صاروا ، فعلاً ، يتقربون إلى المارشال على حساب المبادئ الوطنية والأخلاق لكي يكونوا موضع ثقة الغزاة فتسلم لهم مقاليد الحكم عندما تخرج القوات الفرنسية من الإيالة .

غير ان تلك كانت خديعة من بورمون ومن الجزائرالات الذين كانوا يحيطون به ولم يصدق الجزائريون ذلك ، إلا عندما دخل الجيش الى العاصمة وتसारع ضباطه الى القصة يبحثون عن الكنوز ورأوا أن هؤلاء العسكريين كانوا ، بلوغ مآربهم ، لا يترددون أمام القتل والتخريب . وبما ان بعض الأتراك كانوا من أكثر السكان ثروة ، فان بورمون نفسه قد أمر بعد فترة وبجيزة من الاحتلال ، بنفيهم ليستولي على ما كانوا يكسبون .

ولكي لا يثور الرأي العام، أشيع ، آنذاك، بأن تلك التدابير لم تتخذ إلا بعد أن ثبت أنهم ينوون التآمر ضد الفرنسيين .

وبعد بورمون قام كلوزيل بالدعوة إلى تطبيق سياسة الإبادة والاستئصال. ومن جملة ما اشتهر به ذلك الجنرال نذكر الاستحواذ على المساجد لتهديمها بحثاً عن الكنوز أو لتحويلها إلى كنائس تمهيداً لتمسيح البلاد . وقد ورد في كثير من المصادر أن كلوزيل أخذ من المسلمين أكثر من ثلثي مساجدهم في مدينة الجزائر وحدها . وبالإضافة الى ذلك استولى على جميع المؤسسات الخيرية بقرار أصدره يوم 8 سبتمبر 1830 . كما أنه وقع على المعاهدتين الخاصتين ببيع مقاطعتي وهران وقسنطينة لباي تونس مقابل مبلغ سنوي قدره مليون من الفرنكات عن كل واحدة . وينسب إلى السيد كلوزيل ، كذلك تهديم القيصرية وهي أضخم مكتبة وأكبر مكان يشتغل فيه الناسخون ، لأن الطباعة

كانت غير معروفة في افريقيا ، وسوق المقابس حيث كانت تصنع الأساور ، وسوق الصباغين التي كان الأهالي يصبغون فيها كل ما لديهم من قماش وملابس ، والفراوية وهي علات خاصة بصناعة وصقل جميع الأدوات الحديدية المستعملة في الحياة اليومية والسوق الكبيرة التي كانت مخصصة لبيع الكتان والملابس المنسوجة ، والمراحيض الضرورية لسلامة المدينة وراحة السكان ، وغير ذلك مما لا يحصر ولا يعد .

ولما جاء الدوق دوروفيكو واصل تطبيق السياسة التي شرع فيها سابقاه . ومن جملة ما خلد به اسمه تقتيل العوفية ، تلك القبيلة الآمنة التي أبادها عن آخرها في ضواحي مدينة الجزائر يوم 7 أبريل 1832 ، وباستطاعة القاريء الكريم أن يجد جميع التفاصيل حول هذه الجريمة البشعة في كتاب السيد بيشون « الجزائر في عهد الاحتلال الفرنسي » .

وأمام جميع هذه التجاوزات الصارخة حبس حمدان وقته وجند قلمه . فتوجه إلى بورسون أكثر من مرة ، يحاول صدّه عن تدابير النفي التي اتخذها في حق الأتراك مبيهاً له بأن اتهاماته لا تركز على أساس من الصحة ، إذ لا يمكن لعدد قليل من الأفراد « أن تكون لهم نوايا عدوانية ، وهم بدون سلاح ولا عتاد حربي ولا مدفعية » (74). كما أن حمدان حارب سياسة الإبادة والاستتصال التي برهن على أنها ناتجة عن التعصب الديني ، وبهذا الصدد قال لجماعة الجزائرلات الذين كانوا يقترحونها على أساس أن عدد سكان الإيالة لا يزيد عن المليونين . « ولو افترضنا أن هذا العدد القليل لا يتجاوز المليونين ، كما ذكر بعض الكتاب ، ألا تكون إبادة مليونين من الناس جريمة في نظر الشعوب المتحضرة والإنسانية جمعاء » (75) وعندما كان عضواً في البلدية رفض السماح للسيد كلوزيل بالاستيلاء على المساجد والمؤسسات الخيرية لأنها

(74) المراجعة ، الفصل السادس من الكتاب الثاني .

(75) المراجعة ، الفصل الثاني عشر من الكتاب الثاني .

ملك لله والفقراء ولا حق لأحد أن يتصرف فيها. كما يشاء . ولقد كلفته كل هذه المواقف الجريئة متاعب كثيرة ومظالم تحملها مبتسماً لأنها كانت في سبيل الوطن .

وفي الجزائر ، أيضاً التقى مرتين بأحمد ، باي قسنطينة . وهناك روايات مختلفة حول ذلك الاتصال ولكن الباي نفسه يشير في مذكراته بأنه أرسل إليه من طرف النوق دورفيكو للتفاوض حول إمكانية التفاهم مع الفرنسيين ، في حين أن السيد جورج إيفار يشك في ذلك ويعتقد أن المفاوضات لم تكن سوى وسيلة للتمكن من الوصول إلى الباي دون التعرض لمكروهه ، ويؤكد بهذا الصدد ان حمدان ظل دائماً وفيّاً لحسين داي ومتصلاً به (76) . ومن ثمة يكون حمدان ، حسب زعم إيفار ، هو الذي سعى ليكلف بتلك المهمة حتى يتمكن بكل سهولة من تبليغ تعليمات الداي الى قائد المقاومة في قسنطينة وليس من المستبعد أن يكون هذا الزعم صحيحاً خاصة إذا علمنا أن وزارة الدفاع الفرنسية قد رفضت تسديد كلفة المساعي مدعية أنه لم يقدم وثائق مكتوبة تثبت صحة المصاريف وهي حجة مقبولة إذ لم تكن هناك ، في ذلك الحين ، شركات للنقل أو مطاعم أو فنادق يحصل منها على تلك الوثائق ، وإنما كان عليه أن يدفع مقابلاً عن كل خدمة تقدم له سواء في السفر أو في أثناء الإقامة بقسنطينة . ومن المعلوم أن الذي يكلف بمثل هذه المهمة ينبغي أن يكون سخيّاً مع رؤساء القبائل خاصة .

وهل من المعقول أن يشترط حمدان بياناً عن كل هدية يقدمها ، أو أن يطلب وصلاً مقابل أي ثمن يعبر به في نطاق مهمته . كلا ! وان وزير الدفاع لا يجهل ذلك ، ولكن رفضه تعويض ما أنفق حمدان في رحلاته ناتج

(76) إيفار ، ص 103 .

في نظرنا ، عن سبب جدي هو أن فرنسا قد تكون أرسلت عيوناً تراقبه وتتجسس عليه . ومن الممكن أن هؤلاء الجواسيس قد توصلوا الى معرفة الغاية الحقيقية من اتصالات حمدان في قسنطينة ، فضمنوها تقاريرهم مما جعل وزارة الحرب تمتنع عن تحمل النفقات .

وهناك دليل آخر على أن حمدان كان مساعداً للباي ومستشاراً له ، نستخرجه من رسالة كان خوجة قد أرسلها إلى السلطان بعد وفاة حسين داي ، جاء في تلك الرسالة : « إن عبدكم الحاج أحمد باشا بن أحمد باي رجل شجاع وعادل ، ويكون من اللائق تعيينه باشا على البلاد » (77) .

ومهما يكن ، فإن روفيكو ، الذي أحس بنزعة حمدان القومية ، قد سلط عليه - بعد عودته الثانية من قسنطينة - أنواعاً من المضايقة ، وتؤكد خوجة أنه لم يبق أمامه سوى الذهاب إلى فرنسا بحثاً عن الأذان الصاغية ، عليه يستطيع ان يجد مسلكاً للتخفيف من ويلات بني قومه . غير أن كلوزيل وهو ألد عدو له يقول « إنما سافر إلى باريس ليدافع عن مصالحه الشخصية » (78) وفي هذا الصدد يذكر إيفار أن حمدان اتهم باختلاس بعض الأموال ، وأن جماعة من التجار المسلمين واليهود قلموا شكايته به إلى السلطات الاستعمارية يزعمون فيها بأنه لم يدفع لهم مبالغ ضخمة كان قد استلفها منهم لقضاء بعض حاجاته . ولكننا نستبعد ذلك خاصة وأن إيفار نفسه يروي في مكان آخر أن سكان الإيالة هم الذين فوضوا له التكلم باسمهم والنيابة عنهم ، وأن أحيان العاصمة مكنوه من رسالة اعتماد سلمها إلى ملك فرنسا . ويقول حمدان نفسه : « إن الشعب

(77) عهد الجليل التميمي ، ص 177 . وقد كتبت الرسالة باسم الشعب الجزائري وبموافقة إبراهيم بن مصطفى باشا ، يوم 29 ربيع الأول 1249 الموافق 16 أوت 1833 .
(78) إيفار ، ص 103 .

الجزائري قد عهد إلى "مسؤولية الاتصال بالباب العالمي وإطلاعهم على وضعيتنا" (79) وذلك لا يمكن أن يتم من الجزائر .

وفي باريس اتصل حمدان بجميع المسؤولين وعلى رأسهم ملك الفرنسيين الذي رفع اليه عدداً من الاعتراضات والشكاوى ، كما أرسل يوم 3 جوان سنة 1833 مذكرته المشهورة إلى المارشال سولت وزير الحرية الفرنسي ، وقد ضمنها جميع المخالفات التي ارتكبتها الجيوش الفرنسية في الجزائر منذ الاحتلال . وتشتمل الوثيقة على ثمانية عشرة نقطة ، وهي مكتوبة بلغة عربية سهلة ومترجمة إلى الفرنسية . وقد نقلها الدكتور عبد الجليل التميمي كاملة في كتابه ، بحوث ووثائق . ومن جملة النقاط الهامة تلك التي تحمل رقم 18 والتي تدعو إلى تعيين لجنة للتحقيق في الوضع الذي آل إليه الجزائريون ، تكون مكونة ممن لا رغبة له في أخذ أموال الناس ، وتمنعه حجة الدولة الفرنسية عن ارتضاء الظلم ونسبته إليها ، ويشمتر مما فعلته السفهاء (80) .

وفعلًا ، لقد أنتجت مساعي حمدان في هذه المرة إذ أعلن في السابع من شهر جويلية سنة 1833 ، عن تشكيل اللجنة الإفريقية . واستبشر الجزائريون بهذا الحدث ظناً منهم أنه سيسفر عن الاستقلال ، وأمطر الأعيان أعضاء اللجنة بإوابل من الوثائق والمذكرات تتحدث عن الاضطهادات التي تعرض لها الشعب ، وتقترح الحلول التي يرونها مناسبة للطرفين .

وساهم حمدان ، كذلك ، في تزويد هذه اللجنة بمعلومات قيمة ، فبدأ ،

(79) رسالة حمدان إلى السلطان محمود الثاني ، باريس 29 ربيع الأول 1249 ، انظر التميمي ، ص 668 .
(80) عبد الجليل التميمي ، ص 165 .

أولاً بنشر كتابه « المرأة » الذي يعتبر مصدراً أساسياً لكتابة تاريخ الجزائر في الثلث الأول من القرن التاسع عشر وأرسل منه نسخة إلى أعضاء اللجنة ، أرفقها برسالة يناشدهم فيها القيام بالعدل والاتسام بالتزاهة . وقد ترجمنا هذه الرسالة وحلقنا عليها في كتاب المذكرات الذي سيصدر قريباً .

ومن باريس ، أيضاً ، قام حمدان برسالة السلطان العثماني وأعيان دولته طالباً منهم أن يتدخلوا لإنقاذ الشعب الجزائري من برائن الاستعمار . وقد كان يخاطب كلاً حسب قدرته فيقول لصاحب الجلالة مثلاً : « إن المسلمين الذين احتشدوا ودفنوا في هاته التربة سوف يسألونكم يوم الحساب لماذا تخليتم عنهم » (81) . ولحمود بن أمين السكة الذي كان يقيم باسطمبول : « عرفوا سلطاننا ، عرضوا عليه حالنا ، استعطفوا لنا شفقتهم ورحمتهم السلطانية... إنني قد جاهدت بقلبي والرعية بسيفهم ، فجاهدوا بالسنةكم (82)

وبالإضافة إلى هذه الاتصالات بالمسؤولين الفرنسيين وبالباب العالي ، كان حمدان يبحث عن المعونة في أماكن أخرى من مختلف أنحاء العالم . قال : « ولو أن الكفار يطمعون شطر ما فعلت من تحريرات وتآليف ومراسلات مع الأجناس ، وغير ذلك مما لا أقدر على ذكره ، كل ذلك لأجل إنقاذ البلاد ، لأكلوا لحمي وأوقعوا بي . والحمد لله سترني الله » (83) .

تلكم هي بعض مواقف حمدان السياسية ، ومن خلالها يستطيع القارئ أن

-
- (81) رسالة حمدان إلى السلطان ، نفس المصدر ، ص 170 .
(82) رسالة حمدان إلى السيد محمود بن أمين السكة ، باريس يوم 23 صفر 1250 ،
الموافق فاتح جوان 1834 ، انظر التيسمي ، ص 179 .
(83) نفس المصدر .

بحكم عليه ، وأن يحدد الإطار الذي ينبغي أن نحشر فيه هذه الشخصية التي نعتبرها فيما يخصنا من ألع وجوه المقاومة في الجزائر . هنا وتذكر المصادر أن حمدان غادر باريس متوجهاً إلى القسطنطينية عن طريق ماطر يوم 28 ماي 1836 وتوفي هناك في الفترة ما بين 1840 و 1845 .

مرآته :

صدر هذا الكتاب بباريس في شهر أكتوبر سنة 1833 . ولقد تضاربت آراء المؤرخين في بداية الأمر حول اللغة التي كتب بها . أما اليوم فإن ذلك لم يعد مشكلاً إذ أن الدكتور عبد الجليل التميمي قد عثر على الترجمة التركية لـ «مرآة الجزائر» الذي ألفه السيد علي رضا باشا بن حمدان خوجه والذي يقول في مقدمته أن أباه «عندما كان مقيماً بباريس أراد أن يطلع وزراء الحكومة الفرنسية على مساوئ الإدارة المدنية في الجزائر الناجمة عن احتلال البلاد ، فألف كتاباً بالعربية ثم ترجمه إلى الفرنسية وطبعه . لقد اتخذ أبي لتحرير كتابه مصادر تاريخية بالعربية والفرنسية (84) ، ومن المعلوم أن علي هذا هو الابن الأصغر الذي صاحب والده إلى عاصمة الدولة الفرنسية ولازمه فيها مدة إقامته هناك . ومن ثمة فهو أحسن مصدر يمكن أن نعتمد عليه في جميع معلوماتنا . ههنا بالإضافة إلى الأدلة الأخرى التي لا نذكرها لأننا لم نعد في حاجة إليها

أما المترجم فهو حسونة الدغيز المشرقي الذي كان صديقاً لحمدان وزير خارجية إيالة طرابلس وقد أورد عبد الجليل التميمي ، لتدليل على ذلك ، فقرة من رسالة بالفرنسية كتبها حسونة إلى الوزير البريطاني كودريك يوم

(84) عبد الجليل ، ص 137-138 .

١٨ سبتمبر سنة ١٨٣٢ (٨٥) .وعندما أطلعنا عليها قارناها بالترجمة فوجدنا ان الأسلوب واحد سواء من حيث التركيب أو التعبير وهكذا ، إذن ، فان مسألة المترجم بدورها لم يعد فيها أي غموض ، فقط هناك من يتساءل لماذا لم ينشر المعجم اسمه كاملاً ، واكتفى بالأحرف الأولى . والإجابة على مثل هذا السؤال نجدها في تلك العلاقات المثينة التي كانت تربط الدغيز بوزير خارجية فرنسا آنذاك الدوق دو بركلي . فحسونة على هذا الأساس لم يوافق على نشر اسمه كاملاً لكي لا يسمح لأعدائه بتسميم الجو بينه وبين الحكومة الفرنسية التي كان يطلب منها ان تتدخل لتحسين الوضع في بلاده . غير ان هذا لا يعني ان حسونة لم يكن يعطف على الجزائريين ، بل انه كان يغتم جميع الفرص لمساعدة المقاومة الجزائرية في الخفاء .

ولكي نعود الى المرأة نفسه نقول ، انه نشر بالفرنسية تحت عنوان : « لمحة تاريخية وإحصائية حول إيالة الجزائر » وهو يشتمل على مجلدين لم يصل إلينا سوى الأول وان كنا نعرف من حمدان ذاته ان المجلد الثاني يتكلم عن ولاية بارتوزين وبيشون وعن القانون الإسلامي في الجزائر . وفي كل مجلد كتابان خصص كل واحد لمعالجة قضية معينة . ولقد بدلنا كل ما في وسعنا ليكون التعليق والياً والترجمة وفيّة ، بقدر الإمكان ، وقريبة من الأصل العربي الذي ضاع ، مخطوطاً ، ولم يمر عليه أحد حتى الآن.

الجزائر : ١٩٧٢

محمد العربي الزيري

(٨٥) قس المصدر ، ص ١٤٠

مُقَدِّمَة

هل تتجدد مصائب القرن السادس عشر في القرن التاسع عشر؟ ان كل ما وقع في الجزائر ، منذ ثلاث سنوات ، يفرض علي واجباً مقلباً يتمثل في التعريف بالوضع الحقيقي لهذا البلد قبل الغزو وبعده ، وذلك لألفت انتباه رجال الدولة الى هذا الجزء من العالم ، ولأقدم لهم ما لدي من معلومات وأنورهم حول بعض النقاط التي لا شك أنهم يجهلونها . أفعل ذلك لعلهم يبدون عطفهم على الجزائريين عندما يرون أوضاعهم .

وبسرد الشرور التي تعرض لها أبناء وطني ، فاني أريد ، كذلك ، أن أرفع من معنويات بعض المساكين . ومن الصعب جداً أن أجد ، في مسألة الجزائر ، جانباً إيجابياً بالنسبة للأهالي.لاني لا زلت أبحث بدون جدوى عن مسليات لمولاء السكان . فمصالحهم مجهولة ، وآمالهم مغيبة ، ولا شفقة عليهم ولا رحمة ولا عدالة ، وبالتالي ، فلاني أتساءل لماذا تزعزع بلادي في جميع أسسها وتصاب في جميع مبادئها الحيوية . ولإلى جانب ذلك أنظر إلى الأوضاع التي توجد عليها دول أخرى مجاورة لنا ، فلا أرى أية واحدة

منها مجبورة على تحمل ظروف مشابهة للظروف المفروضة علينا : لأنني أرى اليونان تساعد وتتكوّن على أساس متين بعد أن فصلت عن الامبراطورية العثمانية ، وأرى شعب بلجيكا يفصل عن هولنده بسبب بعض الاختلاف في المبادئ السياسية والدينية ، وأرى ، جميع الشعوب الحرة تهتم بالبولونيين وباسترجاع سيادتهم ، كما أنني أرى الحكومة الإنكليزية تخلد مجدها بعتق الزنوج ، ويضحي البرلمان البريطاني بنصف مليار للمساعدة على ذلك العتق ، وعندما أدير البصر إلى بلاد الجزائر ، فلأنني أرى هؤلاء السكان المساكين يرزحون تحت نير الاستبداد معرضين للإبادة ولجميع آفات الحرب وتلك المظالم كلها التي ترتكب باسم فرنسا الحرة .

وعلى الرغم من أن عدداً كبيراً من الكتاب قد نشروا مؤلفات عن الجزائر فإن معظمهم لم يعالج هذه المسألة إلاّ من زاوية المنافع المادية في البلاد . هذا يقطع النظر عن الطرق التي اتبعها السادة الولاة للحصول على تلك المنافع . هذا هو الجانب الذي اهتمت به في كتابي ، وأعتقد أن السلطات الفرنسية قد تصرفت بكييفية تتعارض كلياً مع المبادئ التحررية ومع الإحسان الذي كان من حقنا أن نتظره من حكومتها . ولقد شد السيد بيشون عن قاعدة هؤلاء الكتاب .

إن معرفتي لأهواء هذا البلد ووضعي الاجتماعي في مدينة الجزائر قد مكنتني من تقديم صورة صادقة ، كما أنني اعتمدت في ذلك على معرفتي لأحوال الانسانية بصفة عامة .

إن مسألة الجزائر مسألة خطيرة لإنها تخص حياة أمة بأجمعها ، تتكوّن من عشرة ملايين نسمة ، وهي الآن ، من سوء الحظ ، في نقصان يتزايد من يوم لآخر بسبب الحرب ، والهلاك بقودها الظلم والطغيان منذ ثلاث سنوات

ورغبة مني في القيام بالمهمة الخطيرة الملقاة على عاتق المؤرخ الحقيقي :
تلك المهمة التي ما زال لم يضطلع بها أي واحد من المؤلفين الذين كتبوا عن
إبالة الجزائر ، وعزماً مني على عدم إخفاء أي شيء ، بعيداً عن الزعم بأنني
أكتب أحسن من غيري ، ولكنني مقتنع من أن لفرنسا رجالاً لن يهملوا ،
لاكتشاف الحقيقة ، أية وسيلة تقدم لهم وتمكنهم من التأمل في عواقب تجاوزات
السياسة ، ومتأكد من أن هؤلاء الرجال المعتبرين سيهتمون أساساً بمجد الأمة
الفرنسية وذلك بالقضاء على جميع الأعمال المنافية لذلك المجد الذي يجب
أن تهتم به فرنسا كل الاهتمام لكي تحظى ببناء الأجيال المقبلة . على هذا
الأساس ، فإنني أتوجه خاصة لهؤلاء الرجال الذين يضحون بسعادتهم لإسعاد
الآخرين ولمضاعفة العلاقات الاجتماعية وتدعيمها .

إن المدنية الحققة لا تكون بالكلام فقط ، ولا يمكن أن تطبق إلا بواسطة
أناس مجريين يميزون بين احترام الإنسان ومصلحهم .

ومن جهة أخرى ، فإنني أجنبي ولا أريد أن أعرض نفسي لانتقاد السوق
أو الفضوليين ، خاصة وأن واجبي يتمثل في قضية مقدمة لما علاقة بسعادة
الإنسانية . إنني لست مرتاح البال ، بل على العكس فإن مصائب بلدي تقلقني
باستمرار . ولقد كنت في كثير من الأحيان ، وأنا أسجل تلك المصائب ،
أجبر على التوقف عن الكتابة لأترك المجال للموعي فتساب : وعلى الرغم
من أن كتابي رواية تاريخية ، فإنه قد كتب ليقراه أشخاص من ذوي الرحمة
والإحساس .

لقد قال أحد الفلاسفة : « إن كل جملة تصاغ بعقوبة تدل في نفس
الوقت على الجوهر وعلى مساوئ الإحساس ، إن الإنسان الذي يقلقه الحب

يكون ملكاً لشعوره ، ولا يهتم على الإطلاق بالكيفية التي يعبر بها عما يخالجه نفسه : إن التعبير الأكثر بساطة هو قبل كل شيء ذلك الذي يفهمه .

وإذن ، فإن هناك موضوع آخر يشغل بال الناس في هذه الدنيا ، وهو الخلاف الموجود بين الديانات والعادات والقوانين . فلا ينبغي أن يندهش القارئ لتنوع الأخلاق والتقاليد في مختلف المقاطعات التي تكون إيالة الجزائر كالصحراء والتل والجبال والمدن . ولو أننا نزور جزءاً من سويسرا ، أو إيطاليا ، أو المجر ، والمانيا ، فإننا سنجد في تلك البلدان ، أيضاً ، تنوعاً كبيراً حتى فيما يخص القوانين .

وكل شعب بصفة خاصة ! ألا يعتقد أنه يملك أحسن التقاليد وأحسن القوانين؟ ومع ذلك فليس ثمة حتى في نظر السوق ما هو أكثر سخيرية من مثل تلك الادعاءات . وعلى من له تلك الأفكار أن يراجع نفسه ليرى أنه يهزأ بها عندما يسخر من الآخرين .

ومن سوء الحظ ، فإن مثل هذا الاختلاف في العادات والتقاليد هو الذي يكون دائماً في أساس احتقار الأمم بعضها لبعض ، وهو أمر ما كان يجب أن يحدث لأن الحضارة لا تتمثل في كيفية الجلوس على مقعد أو على أريكة ، أو في اللباس بهذه الطريقة أو بتلك ، ذلك أن بعض الناس أنيقون ، يترددون على الصالونات ولكنهم يشكلون ، في بعض الأحيان ، خطراً على الأخلاق أو على المجتمع ، أما البعض الآخر فهم أناس بما في الكلمة من معنى يحتاجون في بعض الأحيان إلى من يصلح أحوالهم . وبكل تأكيد ، فليست هذه هي الحضارة التي نريد إدخالها إلى إفريقيا . إن الشرقيين يعتبرون الحضارة هي اتباع الأخلاق الشاملة والعدل إزاء الضعيف والقوي على حد سواء ، والمساهمة

في إسعاد الإنسانية التي تشكل أسرة كبيرة واحدة. ولكن للتغلب على الأهواء والنزوات ، وللقيام بالواجبات ، ينبغي أن نستعمل جزءاً من الوقت للتعرف حق المعرفة على الأسباب التي تجلب للبعض توبيخاً من الناس أجمعين وتغطي الآخرين بمدح أبناء وطنهم ، وكذلك للتعرف على عظمة الأمم وانحطاطها قصد اتباع الخير وتجنب الشر .

إن المجريين المتعودين على القضايا سيفهمون كما ينبغي هذا الأسلوب الفلسفي ، فإلى هؤلاء الناس أهدي هذا الكتاب .

حمدان بن عثمان مخرجة

لمحة تاريخية وإحصائية حول إيالة الجزائر

يسكن إيالة الجزائر عشرة ملايين نسمة ، وتتكون هذه الإيالة من مدن ، وقرى ، وموانئ وأرياف . غير أن الجزء الأكبر الذي هو قاعدتها ومصدر ثرواتها يوجد خارج المدن التي يبدو أنها تكونها . ويسكن هذا الجزء أناس يطلق عليهم اسم البدو .

الفصل الأول البدو وأصلهم

ينقسم البدو إلى طبقتين أو على الأصح ، إلى نوعين متميزين من السكان فالذين يسكنون السهول هم العرب الحقيقيون، أصلهم من الشرق وينحدرون من قبائل عربية مختلفة. أما الذين يسكنون الجبال أو الأماكن الوعرة المنحدرة فهم البرابرة الحقيقيون أو القبائل الذين مختلف لغتهم عن لغة العرب. والفرق واضح بين اللغتين. فمثلاً يقول البربر ، للتعبير عن كلمة رجل ارغاز ، ويسمون الحجر ادغاغ .

وعندما احتل بن يومي أفريقيا لاحظ ان هؤلاء السكان كانوا جهلة متزمتين محبين للحرب شجعان ولكنهم عنيدون ، يعيشون مرتاحي البال لا يشغلون بالمستقبل إلا قليلاً ويتخلون من جبالهم الوعرة حصوناً تحميهم من كل هجوم ولاحظ في الأخير انهم كانوا يعيشون بطريقة بسيطة جداً ، ويرتدون ملابس غاية في البساطة ولا يعرفون أي نوع من أنواع الترف ولا أي امتياز من الامتيازات الاجتماعية .

ومراعاة لعاداتهم ، اكتفى هذا الفاتح بقبولهم الدخول في الاسلام
أو على الأحرى بمحملهم هذا الاسم ، ولم يرَ من حقه ، لصالحهم وصالحه ،
أن يفرض عليهم قوانين غير قانونهم . بل ترك الناس يعيشون ، كما
كانوا في السابق في تمصبهم وأخطائهم ، ولم يفرض القانون الذي يحرم
المرأة من الميراث ، ووافق على عدم اقامة الحد على الذي يخالف الشرع
أو التقاليد ، مع العلم ان من عاداتهم في مثل هذه الحالات ، اتباع قانون
الجانب القوي ، وهذا السلوك الذي رأى الفاتحون المسلمون اتباعه في الفترات الأولى
قد جعلهم يأملون في أن تصبح هذه الشعوب مثلهم بمرور الزمن وبالتعاشر المستمر
ولذلك تركوا في كل قرية عالماً مستنيراً أطلق عليه اسم « المرابط » يتحم
عليه تحليل كل ما يريد منهم أن يتبنوه في صالحهم ، وفي سبيل الوصول إلى
سعادة مشتركة .

وعندما أراد العرب فتح اسبانيا (I) ، استعملوا هؤلاء البرابرة كأداة
تخدم مشاريعهم ، وجعلوهم يؤمنون بأن الموت في سبيل الدين تضحية
لها قيمة كبرى عند الله ، كما خلقوا فيهم حقداً تمصبياً ودينياً ضد جميع
الذين لا يؤمنون بالإسلام ، وفي نفس الوقت أظهروا لهم كل الفوائد التي
تنتج عن الحرب والفتح ، وعن نهب أملاك الأعداء . وما دامت هذه
المبادئ لا تتنافى مع أخلاق المغلوبين ، فانه كان من السهل على المسلمين
أن يبقوا بينهم الى يومنا هذا ، وأن يحتفظوا بشجرة فتوحاتهم . أما مبادئ

(I) وقع الفتح سنة 710 م ، ولكن إمارة الأندلس لم تتكوّن إلا سنة 718 م . وقد
ظلت تابعة للخلافة الأموية إلى أن كان عام 756 وجاء عبد الرحمن الأول ، فأعلن استقلاله
عن الوطن الأم .

الحرب أو السلم وإنجاز المعاهدات ، فانهم لم يطلعوا عليها ، خاصة وأنه لا توجد في جوارهم شعوب على دين موسى أو عيسى ، بل وانهم لم يطلعوا حتى على المعنى الحقيقي لهذه الآيات القرآنية التي تقول : « وأوفوا بعهدهم الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان ، وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً » (2)

كما أنهم يجهلون حديث الرسول الذي يؤكد ان كل عداوة ينبغي أن تنتهي بعد السلم . وان احترام أملاك الأعداء يصبح بعد ذلك واجباً . كما يجب إعطاء هذه الأملاك نفس الامتيازات التي تحظى بها أملاك المؤمنين . وأخيراً ، فانهم لا يولون أي اعتبار لغير ذلك من المبادئ التي تهدف الى المحافظة على الجنس البشري وتحسين مصيره ، وصيانة ما يسمى ، عموماً في أوروبا ، بحرية الشعوب أو الحقوق الاجتماعية .

ومن المعلوم اننا بهذه المبادئ الأخلاقية التي هي أساس مؤسساتنا ، قد صنعنا كثيراً من المعجزات وكسبنا العديد من الانتصار . وبفضل هذه الوحدة واتباع هذه السياسة سيطر الفاتحون على جزء كبير من العالم كما يعلمنا بذلك جميع المؤرخين .

وهل الرغم من أن الخلفاء لم يطبقوا هذه المبادئ الطيبة ، وانقلبوا الى ملوك متجبرين على الشعوب ، فاننا لا نكذب في صحة مؤسساتنا الدينية . ولقد رأينا أن هؤلاء الملوك ، عندما يحيدون عن هذه المبادئ ، كثيراً ما يخفقون في مشاريعهم قبل تحقيق اهدافهم الحكومية التي يصبون اليها .

ومنذ ذلك الحين احتفظت هذه القبائل التي ظلت تعيش في جهل

(2) الآية 98 من سورة النحل .

مطبق ، احتفظت بأفكار غالبة مترمة . غير ان إحدى خاصيات عاداتهم هي تلك الروح الوطنية التي تمتلئ بها كل قبيلة . ذلك انه اذا ما تعرضت واحدة لاعتداء قبيلة مجاورة بدون أي سبب ، فان القبائل الاخرى تتبنى قضيتها حتى ولو عرفت انها ستهلك وتبيد في تلك المعركة . وعليه ، فان الحروب بين هؤلاء السكان كثيرة ، وان هذه المناسبات هي التي تعودهم على المجازر ، وفيها يكتسبون الشجاعة ، وتبرز أبطالهم . وفيما بينهم ، ان حق القرابة مقدس ، كما أنهم يولون الأجنبي الذي ينضم اليهم برابطة الزواج تأييداً وحماية لا رجعة فيهما . أما السلم ، فانه يتم دائماً بتدخل المرباط . وعلى الرغم من عدم وجود قانون يسوون به خلافاتهم ويكبحون به جماحهم وعلى الرغم من أنهم لا يقبلون الخضوع لأي سلطان ، فان طاعتهم للمرباط ، طاعة لا يمكن تفسيرها إذا أخذنا بعين الاعتبار الوصف السابق لطبائعهم . وأما الشيوخ ، فانه لا يكاد يكون لهم تأثير اذا قارناهم بالمرباط . وفي هذا الصدد ها هي نبذة عن جمعياتهم التي يبحثون فيها مصالحهم المشتركة .

ان هذه الجمعية تتكون من جميع رجال القبيلة ، شباناً كانوا أم شيوخاً . ويبدأ الشيوخ بالكلام ، فيقدمون مشاريعهم ، ويعرضون فوائدها ، وإذا لم تقبل هذه المشاريع بالإجماع ، أو اذا وجد معارض واحد ، فان ذلك المعارض يطلق صرخة من وسط الجمعية . وان هذه الصرخة التي يسمونها صرخة الإنذار ، يعبرون عنها في لغتهم بكلمة « ويلك » ! . وبعد هذه الصرخة يقول المعارض بصوت مرتفع : « انظروا لهذا الرجل الذي يريد أن يندس كرامتنا ويجعلنا من الأذنان ! » . وبانتهاء هذه العبارات يحدث الاضطراب وتنفرد الجمعية .

وان المرباطين الذين يقطنون بين القبائل يعلمون الانحلاق ويفسرونها

بقدر المستطاع وبقدر إدراك هؤلاء السكان . أنهم يعلمونهم الصلاة ، ويهدونهم الى مكارم الأخلاق ، ومقابل ذلك يمنون الطاعة المطلقة المحفوظة بالاحترام ، وتعتقد القبائل ان كل دعائهم مقبول عند الله الذي يؤمنون بقداسته وجلاله . وهكذا ، فعلى سخط أو على بركة الم رابط تتوقف سعادة القبائل الخيالية . وكل من رغب في شيء ، فانه يقدم القرابين ويتوجه الى الم رابط لكي يأمل في تحقيق ما تمنى . أما الذي تلاحقه الشرور ، وتعذبه الآلام ، فان ايمانه ناقص ، وانه للمذنب الذي يعاقبه الاله .

ان اسم الم رابط مشتق من كلمة ربط العربية التي تعني الالتزام والتمهد ، أي ان الم رابط يعاهد الله على ألا يتصرف إلا لما فيه خير الإنسانية . ولذلك ، فحتى بعد موتهم ، يبقى هؤلاء الم رابطون محل توقير دائم . وتدفن أجسامهم في قبر يحاط بتابوت يمكن أن يلجأ إليه كل مجرم . وبالتالي ، فإن المكان يصبح موقراً إلى درجة ان الإبن لا يجراً على اقتحامه لمطاردة قاتل أبيه. وهكذا فان الم رابط ، وهو ميت ، قد يحظى باحترام يفوق الذي كان من الممكن أن يحظى به وهو حي . وهذه القبور كثيرة جداً في إيالة الجزائر ، وقد احتل الجيش الفرنسي معظمها بعد الغزو . وترك هذا التدنيس أثراً سيئاً في نفوس الطبقة الدنيا. وعلى الرغم من أن بعض أبناء هؤلاء الم رابطين لم يتبعوا سلوك آبائهم ، وأهملوا مبادئهم فإن الشعب ينظر اليهم باحترام ولا يدعوهم بأسمائهم وإنما يطلق عليهم اسم سيدي ، متبوعاً باسم اشهر أفراد العائلة .

إن وجود هؤلاء الم رابطين في المجتمع الأفريقي نعمة ، اذ بمجرد ما لهم من نفوذ على هذه الشعوب يسكتون أسلحة الخصوم ، ويمنعون إراقة الدماء . وإن سلطانهم على نفوس القبائل الجاهلة المحدودة النظر لعجيب . ويدوان

الله نفسه يرشدهم ويقودهم ، وأن تصديق هذه الشعوب لهم ليبلغ درجة الضلال والعنى . وفي يومنا هذا ، فإن الم رابط الذي ما زال يتمتع بأكبر ثقة ، والذي يكاد يؤله من طرف القبائل يدعى : سيدي علي بن عيسى . ويسكن فرومه (3) وهو من مريدي الم رابط الشهير المسمى سيدي محمد بن عبد الرحمن . ولقد أحرز هذا الأخير في حياته على أكبر شهرة يمكن تصورها في الطهارة

وانتقلت هذه الشهرة حتى إلى مدينة الجزائر وأوساط القبائل الذين يسكنونها . وقد مات هذا الشخص العجيب في نهاية القرن الثامن عشر ، ودفن في الحامه (4) وذات ليلة اختطف القبائل جثته وحملوها إلى جبال جرجرة ثم دفنوها في قرية فرومه على مقربة من فليسه (5) غير أن المكان الذي سبق أن دفن فيه ما زال محترماً . وعلى القرب منه تعود الناس أن يتصدقوا على الفقراء ، فيوزعون عليهم الخبز والدرهم ، آملاً في أن يستجاب دعاؤهم . وإن هذا النوع من العبادة غيز محقول ، خاصة وإن مبادئ الدين الاسلامي لا تسمح بتأليه الآدميين . ونحن نعتقد بأن مشيئة الرحمن واحدة في الأرض وفي السماء وإن الله الموجود في كل مكان لا يمكن حصره في مكان ، وإن ما نتصدق به على أمثالنا دليل على إيماننا وقبل أن نستحق نعمة الاله يجب علينا أن نعمل بما انا به . ونحن نوّمن أيضاً بأن أعمالنا من خير ومن شر ستجازى في يوم من الأيام . وهكذا إذن ، فإن الاعتقاد الشعبي لإزاء الم رابطين ، أساسه الجهل دىء الغالطة والتعصب وليس من السهل إصلاحها ، غير أن المتعلمين منا

() قرية صغيرة تقع في ضواحي مدينة الأخضرية . وتوجد الأخضرية على بعد خمسة كيلومتراً شرقي مدينة الجزائر .

() حي الحامه حالياً ، ويوجد بين بلكورو والعناصر في القسم الشرقي من مدينة الجزائر .
() تقع شمالي شرقي فرومه على بعد حوالي ثلاثين كيلومتراً من مدينة الأخضرية .

ورؤساء الحكومة التركية يدركونها حق الإدراك . والسياسة هي التي جعلت الآخرين يبقون على هذه المبادئ الغالطة أو يتركونها تستمر ويحترمون الأماكن التي تقدمها القبائل . وهذه المجاملة هي التي مكنتهم من الحصول على ما حطمه الجيش الفرنسي منذ أن وصل إلى أراضي الجزائر ذلك إنه بدلاً من أن يطبق نفس هذه المبادئ ، أراد استبدالها بمبادئ جديدة تتعارض تماماً مع عادات وتقاليد السكان .

ولكي نعود إلى الم رابط ابن عيسى ونعرف ما له من نفوذ على قفوس الجزائريين يكفي أن نقول بأنه هو نفس الشخص الذي قدم على أثر الغزو الفرنسي وساطته لإبرام السلم بين الفرنسيين والقبائل ويمتد سلطان هذا الرجل إلى مملكة تونس وله في كل قبيلة ومدينة وقرية على أرض الإيالة ممثل في المساجد يتقبل الهدايا الموجهة إليه ويجمع عشر الغلال ثم توزع هذه المحصولات على الطبقة المعوزة وتستعمل في الإعتناء بالمحلات المخصصة للضيافة . وأينما وجد ممثل جامع توجد دار مفتوحة للضيافة يطعم فيها المسافرون ويبيتون بلا مقابل وكذلك الحيوانات التي يستعملونها والتي ترافقهم . وفي نهاية كل سنة يرسل إلى الم رابط الرئيسي كل ما لم ينفق في هذه المؤسسة . ولقد اجتمعت شخصياً بهذا الم رابط ووجدت فيه رجلاً بسيطاً ، ليس له غرور ، وإنما ذو بصيرة ، تحاوه العواطف الإنسانية بلا تحيز ، لا يملك ثروة طائلة ، ذلك إنه ، بعد أن يوزع الصدقات ، لا يبقى له أكثر مما يقتات به . أمام بابه يوجد عدد كبير من الأجناف لإطعام ضيوفه ، وكذلك أكياس من الشعير والتبن للحيوانات التي ترافقهم . وهو يستضيف كل شخص يقصد بيته . وقد أراد في ذلك الحين أن يكلفني بيع جنان كان يملكه في مدينة الجزائر ولكنني جعلته يعدل عن هذه الفكرة . حتى يتمكن بما له من نفوذ من أن يخدم المصالح الفرنسية ، وربما من أن يدفع

بواسطته باي قسطنطين الى إبرام صلح مشرف . وفي هذا الإطار كان الدوق دوروفيقو (6) يعمل على أن يضمه اليه ويجعل منه صديقاً له لأنه كان يريد أن يعترف له ببعض الجميل . إن الم رابط الذي يعرف أغراض دينه يعرف كيف يسخر تسخيراً مشمراً وذكياً جميع الوسائل الموجودة بين يديه . إنه لن يقول للقبائل : يجب أن تطيعوا القانون ، وعليكم بالاستماع إلى الموعظة واتباعها ، وإنما يقول لهم : لعن الله من لا يفعل كذا ! وهكذا يجعلهم يطيعون ويحصل منهم على كل ما يريد ، وإذا اقتضى الأمر فإنه يستعمل عبارات مطلقة تبدو كأوامر إلهي الجبار . غير أن هؤلاء الم رابطين يتصرفون بلطافة وكياسة ولا يسمحون أبداً بأي تجديد ولا يقومون بأي شيء مما يمكن أن يتعارض مع كرامة أو عادات الشعب وبهذا السلوك يحتفظ هؤلاء الم رابطون بنفوذ لا حدود له .

(6) سياسي وجنرال فرنسي ، اسمه الكامل : آن جان ماري روني هافري ، ولد سنة 1774 وتوفي سنة 1833 . خلف فوشي بوزارة الشرطة سنة 1810 ، وكان من أنصار نابليون الأوفياء . وبعد هزيمة واترلو أُلقي عليه القبض في جزيرة مالطة ، ثم فر من السجن إلى مدينة أزمير سنة 1816 . وبعد ذلك بثلاث سنوات توجه إلى لندن ، ومن هناك استطاع أن يحصل على عفو الحكومة الفرنسية واسترجاع رتبته العسكرية . وفي سنة 1831 عين قائداً أعلى للجيش الفرنسية في الجزائر ، حاول أن يتفاوض مع الباي أحمد بواسطة حمدان خوجه لكنه لم ينجح في محاولته . له مذكرات كتبها سنة 1828 .

الفصل الثاني

طبائع البربر وعاداتهم

يرتدي الرجال قماشاً من الصوف. وللبستهم شكل كيس مثقوب في الوسط لاجراج الرأس ، وبه ثقبان آخران على الجنبين لاجراج اليدين، عرضه حوالي ذراع ويهبط إلى منتصف الساق. والقماش من الصوف الأسود، وهو من صنع النساء، وبما أن هذه الصوف لا تنسل كما ينبغي، فلها تصدر رائحة لا تطاق عندما تبللها الأمطار ، وعندئذ يصبح هذا اللباس ثقيلًا جدًا وهو بمثابة القميص والسروال وغيرهما في آن واحد. لكن الأغنياء منهم يضيفون لباساً آخر فوقه يسمونه البرنس، وهو دائماً من نفس القماش، وشكله معروف في أوروبا وهذا النوع من الكساء يرقع ويبقى إلى أن يتساقط لإرباً وإرباً وعادة فإن برنساً واحداً يكفي لمدة حياة الإنسان لا يفارق الجسم، يتبلل وييبس على ظهر صاحبه إما بمفعول الهواء أو بفضل حرارة النار .

وتتدثر النساء في حائل يشبك بالدبابيس ويصنع هو أيضاً من قماش ينسجنه بأنفسهن يكف هذا الكساء بقطعة أخرى من القماش ذي اللون الأحمر أو الأزرق عرضها حوالي أربعة أصابع وتستورد هذه الصوف الملونة من مدينة الجزائر، والمثريات من النساء يغطين رؤوسهن بقطعة من الكتان أو منديل قطني. أما

الأطفال ، فإنهم عراة تماماً كما رأيتهم بنفسى ، ولا تمنعهم لهم ألبسة إلا في الشتاء أو عندما يصلون سن البلوغ . والذي يغطي رأسه بقانوسة لا يجرأ أحد في مدينة الجزائر على أن يتقانس بها ، يعتبر أنيقاً . ونرى بعض هؤلاء الأتقيين يحتفظون بهذه القنوسة مدة طويلة دون أن يبدلوها حتى تصبح سوداء من العرق والغبار . أما عن الأحذية ، فإن أغنياء القبائل يلبسون مثل الرومان نوعاً من الكوثرن مربوط بالجلد ، ولقد شاهدت هؤلاء البربر في مناطقهم وفي مدينة الجزائر ، شاهدتهم صيفاً وشتاء يخلعون ثيابهم ويجعلون منها وسادة عند النوم . ومن كان له برنس فإنه يغطي به نفسه ويتمدد على حصيرة ان وجدت . وفي الصيف يرقد أغلبهم متفرقين فوق الرمال ، وفي الشتاء يشعلون ناراً كبيرة بما يحفظونه من الغابات المتكاثرة ويرقدون جاعلين أرجلهم أمام هذه النار ، فينامون هكذا ، نوماً هادئاً . أما غذاؤهم فخبز الشعير وزيت الزيتون والتين المجفف والبوط . وإلى جانب ذلك فإن الأثرياء أي الذين يملكون عتريتين أو ثلاثاً ، يشربون الحليب . وهناك ، أيضاً من يملك عدداً من المعز والشياه المخصصة للبيع في المدن . والقبائل ، عادة ، لا يأكلون الأغنام ولا الدواجن ولا يذبحونها الا عندما يؤمهم ضيف ، لأن قانون الضيافة مقدس عندهم . ويعتبر ذلك اليوم في القبيلة ، يوم عيد ، يتطايرون فيه الأولاد فرحاً وتذبح الشاة ثم يطهى اللحم مع الكسكسي وعندما يحضر الطعام يقطع اللحم أطرافاً يزن الواحد حوالي رطل (٢) ويقدمه صاحب الدار إلى الضيوف على

(٢) كان يوجد في الجزائر ، قبل الاحتلال ، أربعة أنواع من الرطل : الرطل الكبير والرطل الخضاري والرطل العطارى والرطل القضي ، ونعتقد أن الذي يعنينا هنا هو الرطل الخضاري ويساوي بالغمات : 3 , 614 ، وعليه فهو أكثر من رطلنا الحالي . أما الرطل الكبير فيزن بالغمات 5 , 921 ولذلك أبعدها .

النحو التالي: يعطى لكل ضيف طرف لحمٌ وإذا بقي شيء يعطى للجيران الذين يرقبون الأحداث من بعيد نصيبهم من الطعام، وفي جميع الحالات، فإن رب البيت يغازي في الأدب إلى درجة أنه يطعم هؤلاء الفضوليين قبل أبنائه. وفي التحلية يألف القبائل الثين المجفف حتى ولو كانت لديهم فواكه أخرى. وبما أن الأبيجار المثمرة كثيرة، فإنهم يحتفظون بشمارها ويبيعونها لسكان المدن في الأسواق أما هم لا يكادون يعرفون طعم هذه الفواكه .

الفصل الثالث

طبائع وعادات البربر (تابع)

تبنى المنازل في القرى الصغيرة أو في الأكفار بالأخشاب والقصب يربط بعضها في بعض ولكل منزل أربعة أوجه، وتفرش أرضه بنفس مادة البناء ثم يحصن الكل بخليط من الطين وخشي البقر لمنع المياه من التسرب وعلى السطح يزرع نوع من العشب يسمى الديس . ولا يزيد إرتفاع هذا البناء عن قامة رجل . ثم إن الأهالي يجمعون الحشائش وأوراق الأشجار فيلخرونها لتغذية الحيوانات عندما يسقط الثلج ، وتأوي هذه المساكن في نفس الوقت النعجة ، والمغزة ، والبغل والدواجن والكلاب والرجال والنساء والأطفال ، كلهم يعيشون متكلمين في مكان واحد . وعندما تشعل النار للتسخين ، فإن الأوخام التي تنشرها هذه الكائنات بالإضافة إلى الدخان الذي لا مخرج له تشكل ضباباً كثيفاً وغير صحي وبما أنني لم أتعود هذا النمط من الحياة فإنه كان من المستحيل علي أثناء رحلتي إلى قسنطينة أن أتحمل العيش داخل هذه المساكن بل كنت أفضل النوم في الهواء الطلق على المبيت وسط سفينة نوح هذه . ولقد اضطر صاحب المسكن الذي نزلت عنده إلى الخروج معي بحميني وبمعي حيواناتي ضد غارات اللصوص وإعتداء الحيوانات المتوحشة لأن الأسود

تأتي في بعض الأحيان تدور حول المساكن لاختطاف بعض المواشي بيد أن السكان يبعدون هذه الحيوانات الكاسرة بنفس البرودة التي تطرد بها الكلاب وذلك نظراً لثمودهم زيارة مثل هذه الحيوانات المهولة وإذا استثنينا ما يمكن استعماله في الفلاحة وفي تربية الماشية فإن السكان لا يملكون أي نوع من أنواع الأثاث وانك لتجد عندهم مطبحة صغيرة لطحن الحب وكذلك كمية من دقيق الشعير ومن الحبوب يحتفظ بها لما يطرأ من الأحداث، وترى أيضاً عندهم تيناً مجففاً في كيس ، وبعض الأواني الخشبية وقرية فيها ماء الشراب معلقة على الدوام .

إن الحروب متعددة بينهم والمتنصر يحرق دار المهزوم غير أن تلك الدار يعاد بناؤها في أقرب ما يكون لوفرة الأخشاب التي تغطي هذه البلاد. وتصلد الخيل والبالغ والحمير الأماكن الوعرة بكل سهولة ويستعمل السكان الأسلحة النارية في أغلب الأحيان ولذلك يولونها كل العناية، ويحفظونها في القماش وهذه الأسلحة هي التي يقيدها الصوص ويفضلونها على أي شيء آخر يأخذونه من الأهالي الذين كثيراً ما يجرّدون على الرغم من حذرهم الشديد .

ومساجد هذه القرى مبنية على منوال المساكن. بفارق واحد هو أنها تبيض بالجير واللبن يحسون الشعائر الدينية من بين الأهالي يعتبرون كما نعتبر العلماء في مدتنا .

أما القرى الكبيرة، الواقعة في الجبال الوعرة، فإنها منيعة لا يصلها العدو إلا بشق النفس .

وتستخرج من هذه الجبال الحجارة الصالحة لبناء المساكن . ولقد زرت بنفسي جبال قليسه، وزواوه وبني عباس ووادي بجاية وبني جنات

حيث توجد قرى كبيرة تشبه المدن عندنا . وكل العمارات فيها مبنية بناء متيناً بالحجارة وبالكلس ، والسطوح مغطاة بالقرميد ، وفي المساجد مآذن كماآذن مدينة الجزائر . وفي هذه القرى مصانع للأسلحة النارية تصنع فيها على نحو ما في الجزائر أساتين البنادق المرصعة بالفضة ، كما يصنع فيها البلاطين . ويعرف السكان طريقة استخراج خامات الحديد ومناجم الرصاص وملح البارود موجودة لديهم بكثرة فهم أناس كثير و الاشتغال بالصناعة . وتشمل صناعتهم على الخصوص صنع البرانس والأغطية التي يمكن استعمالها في المدن لأنها من الصوف الجيد . ويوجد في هذه القرى كذلك مشاغل تصنع فيها النقود المزيفة . فالأهالي ذوو مهارة ومقدرة فائقة في نقش المعادن وتقليد جميع أنواع النقود مثل نقود الجزائر (I) وقروش اسبانيا (2) ولولائم يتصلون بالجيش الفرنسي فلأنهم لن يترددوا في تقليد النقود الفرنسية إلى درجة أنه يصعب على العراف التمييز بين النوعين . ففي هذه الجبال قدم لي المسفوف ، وفيها مدينة تدعى القلعة (3) لا يتم الوصول إليها إلا بشق الأنفس وبما أنني لم أتمكن من الذهاب إليها راكباً فإني قطع الطريق راجلاً لأراها ولأنه لطريق وعر ومنحدر جداً إلى درجة أننا عندما يتسلقه ثلاثة أشخاص بالتتالي ، نرى رأس الثالث عند قدمي الأول . وفي مثل هذه المدن التي حصنتها الطبيعة يودع سكان السهول ثرواتهم وحبوبهم ولا يبقون لديهم إلا ما كان ضرورياً للحياة اليومية ، ولقد أكدوا لي أنهم يعرفون طريقة للاحتفاظ بالحبوب مدة تزيد عن العشرين سنة .

-
- (I) من جملة نقود الجزائر في ذلك الحين : السلطاني ، والريال بوجهه والباتاك شيك والريال مجبور ، والمرزونة والصائم . الخ . . .
- (2) كان القرش الاسباني أو اليباستر يساوي نصف سلطاني أو 5 د 5 من فرنكات فرنسا .
- (3) هي قلعة بني عباس الواقعة في سلسلة جبال الببيان على مقربة من مزيطه .

أما لغتهم وطبائعهم وطريقة معيشتهم فتكاد تشبه لغة وطبائع وطريقة معاش سكان الأكوار السابقة الذكر . ولو أنني لم أكن في مثل ما كنت فيه من الحيرة والعلاب من جراء ما آكل اليه بلدي المسكين ، ولو أنني لم أكن في مثل هذه السن المتقدمة ، ولولا الاتعاب التي أصابني لكان باستطاعتي أن أجمع وثائق غاية في العجب حول هذا الجزء من افريقيا ، وثائق قد تساعد على كتابة تاريخ هذه المناطق . ومن بعيد كنت أشاهد مدناً تكاد تشبه ضواحي بجاية والمراطين ابن عيسى وأكرومه .

أنني لا أقدم هنا تاريخاً مفصلاً وإنما عرضاً ضرورياً لتكوين فكرة عن هذه المناطق وعن سكانها ، هؤلاء السكان الذين هم على العموم أناس رحل قرييون من التوحش، ولكننا نعتقد ان من الصعب على فرنسا أو على غيرها من الدول أن تخضعهم . وإلى جانب ذلك فإن هذا الاحتلال بالنسبة لفرنسا لن يكون في مستوى عظمتها . أنها تملك ثروات متعددة من حيث الرجال والأموال فماذا تستفيد من محاربة هؤلاء السكان وإلحاق كتوزها واراقة جماء جنودها وتعريضهم للموت الناتج عن المناخ ؟ وما هو الهدف من قيامها بمثل هذه الحملة أياكون ذلك لمجرد الرغبة في إبادة الناس أم لأجل نيتها الحثيئة في اكتساب أراض لا تنبت شيئاً .

الفصل الرابع

سُكَّانُ السَّهُولِ : طَبَائِعُهُمْ وَعَادَاتُهُمْ

ينقسم سكان الاماكن المنخفضة أو السهول إلى قسمين: أهل الصحراء الرملية وأهل التل ساكني الجبال الصغيرة القليلة الارتفاع . والجميع من أصل عربي ويتكلمون اللغة العربية كما ذكرنا ذلك في الفصل الأول. مهنتهم كلها فلاحه ، ومسكنهم تحت الخيام المصنوعة من الوبر، ليس لهم مكان مستقر، يتزلون حيث يجلسون المرعى لماشينهم ونظراً للاهمية التي يولونها للزراعة ولما يريدونه من حماية لغللهم وضمان لاملاكهم ، فانهم يدفعون طواعية ضريبة لرئيس الإيالة . ولا يوجد بين هؤلاء الاهالي الرحل مرابطون غير ان أصول دينهم هي نفس أصول دين القبائل، وكما هو الشأن بالنسبة للآخرين فان لديهم تعصباً ليس من الثقل العمل على استئصاله .

يتدثر الرجال بحائك شائع في أوروبا تربط نهايته إلى الرأس بحبل من وبر يقارب شكله شكل الصمامة: ويلبسون تحت نوعاً من القمصان يسمونه القندورة كنا نكلمنا عنها في الفصل الخاص بالقبائل، إلا ان هناك فارق في نوع القماش فهو قطني بدلاً من أن يكون صوفياً وتستعمل الاغلبية منهم أحذية متينة

تصنع في القرى ويحمل الأغنياء متديلاً من القطن أو من الحرير بحسب
الطاقة ، يربطونه في الحائك لكي لا يضيع .

وتتلف النساء أيضاً في نوع من الحائك يصنع من قماش القطن صيفاً
ومن الصوف شتاء ويتمنطقن بأحزمة ملونة مصنوعة من الصوف . أو من الوبر الجيد
خيزهم من القمح والشعير أو من الشعير وحده ولا يكون ابداً من القمح
الصافي وذلك راجع إما للمناخ وإما لتقاعتهم ، وعلى الرغم من وفرة
القمح لديهم ، فإنهم يستهلكون الشعير بكثرة . والزيت نادر عندهم
ولذلك تحضر المأكولات بالزبدة التي تملح للاحتفاظ بها طويلاً .

في الصباح لا يخرج أحدهم من بيته قبل أن يقطر بخير الشعير والزبدة .
ويستخدم الأغنياء أو الملاكون في هذه المناطق ، الصال والأجراء (لا
يمكن مقارنة ثروات هذا البلد بثروات أوروبا) . وقد جرت العادة أنهم
عندما يشغلون أو يسخرون واحداً من هؤلاء ، يدفعون عنه ديونه ، أن
كانت عليه ديون ، أو يقدمون له مسابقات تساعد على سد حاجاته ،
وهم بذلك كأنما يبيتون نية في أن يشدوه اليهم ، ويسكن هذا الرجل عند
المالك صوبة زوجته وأطفاله على النحو الذي سنذكره مفصلاً في ما يلي :

يعطي المالك ، صاحب المزرعة أو المؤسسة ، لهذا العامل بقرة أو
بقرتين حسب إمكانياته أو حسب الاتفاقيات المبرمة بينهما . ويتمهد
الأخير بتسليم الأول أوطالاً معينة من الزبدة (الرطل في هذا البلد أكبر من
الرطل الأوروبي ، إنه يساوي 28 أوقية) (١) وهكذا ، فإن هذا الرجل

(١) المقصود هنا هو الرطل الكبير الذي يساوي بالغمات 5 , 921 .

يجمع الزبدة ويسلمها الى صاحبه في نهاية كل فصل . ومن الفلاحين من يستعمل ، أحياناً ، الزبدة التي يجمعونها ثم لا يتمكنون من تسليم الكمية الموعودة أو المتفق عليها : وعليه يضطرون الى تجديد الإلتزامات أو الى الإستدانة ، وهناك من يوفي بالعهد ويستفيد في بعض الأحيان .

يعيش هؤلاء المالكون عيشة معتدلة ومنظمة ، لا يأكلون اللحم إلا في بعض أيام الأسبوع أو في أيام السوق ، وفي هذه الأسواق تجتمع القبائل المختلفة لتبيع سلعها ومواشيها . وللوصول اليها يمشي المرء ساعتين أو ثلاث ساعات : وان من عادات البلاد ان تنتقل الأسر من بعيد اما لتبيع واما لتشتري بضاعة أو سلماً مختلفة وتنقل الصوف والزبدة والصل على البغال ، وكذلك تحمل الحيوانات المخصصة للجزائريين . وعلى الرغم من ان صاحب المزرعة يملك الكباش والخرفان والعجول ، فانه لا يذبح منها إلا عندما يؤمّه ضيف جديد . وهؤلاء السكان هم ، ربما ، أكرم من القبائل ، ومأكولاتهم المبهجة هي الكسكسي والحليب .

الأراضي شديدة الخصب بحيث ان ارتفاع سنابل القمح والشعير يزيد في بعض الأحيان عن قامة الرجل . وفي أثناء الحصاد تهمل السنابل القصيرة ، ويترك في الحقول كثير من التبن والحبوب ترعاها الماشية فيما بعد ، ولذلك فان الحيوانات تكون دائماً سمينة والحليب جيداً وكثيراً .

وفيما يتعلق بوصف خيامهم ، لقد سبق ان قلنا أنها من الوبر ، وهو قماش مصلّح بالأحمر أو بالألوان الأخرى . وتأخذ هذه الخيام شكلها المكور أو المثبت بواسطة أوتاد من الخشب وتقاس ثروة المالك باتساع هذه

الخيام وبعده الأوتاد التي تشدها (أنظر رسم مختلف أشكال هذه الخيام آخر الكتاب) (2) .

نحاط الخيمة بحجارة توضع عليها الأواني واللخائر اليومية . ويخصص جزء منها للمطبخ ، وفيه توجد الطناجر والقدر وهي من العطين ولكن الصحن والملاعق خشبية وكذلك الأوعية التي تحفظ السمن والعسل الذي يودع في الأجلاف. وفي المطبخ أيضاً ترى الدواجن. ويستعمل الجزء الآخر من الخيمة لاستقبال الضيوف وللإجتماعات الودية . ومن داخل الخيمة كنت أسمع حركة وخوار العجول والبقر وكذلك غناء الخرفان ، والنساء هن اللاتي يحلن الماشية ويعتنين بصغارها ، كما انهن راعيات ، بينما تقوم الكلاب بحراسة القطعان ، وعندما يقترب الأسد تمس الكلاب بذلك فتنبح ويكون نباحها هذا بمثابة تنبيه وإنذار ، فيستيقظ الأهالي ويتردّد الأسد بواسطة التهديد فقط ، ومن خاف منه وقع ضحية . أما الخيل والبغال فانها تربط أمام الخيمة مدة ثلاثة فصول ، وفي الشتاء ، عندما يكثر البرد والجليد توضع على ظهورها أغطية من الصوف .

هؤلاء السكان يحبون الخيل حباً جنونياً . ولا يفكرون إلا في مضاعفة أعدادها ، وهم يفرقون بين أنواعها ويحفظونها بعناية . وتستعمل السلالات الوضيعة للحصول على البغال ، وهناك سلالات تخصّص للحرب ، ولكن أحسن الأنواع ، أي الجياد ، فانها للسباق والحرب ولا تباع إلا نادراً ، وفي هذه المناطق يسمى تجمع عدد من الخيام « دواراً » .

(2) لم يرد هذا الرسم في الترجمة الفرنسية، ولعل هذه العبارة دليل على أن الأصل العربي قد ضاع .

وهكنا ، كما رأينا ، فان المالكين أو أصحاب المزارع يستخدمون العمال والرعاة الخ . . . وليس هؤلاء أرض ، ولا أموال ولا مواشي ، وإنما تعطى لهم التسيقات حسب حاجاتهم . ويسكنون بأزواجهم وأولادهم عند الملاك . ويقوم كل واحد بما يقدر عليه من العمل وكثيراً ما يتزوج بعضهم بأكثر من امرأة ليستعين بهن في أشغاله ، ولأن من الصعب على امرأة ان تحصل على عيشها ان لم يكن الى جانبها زوج . والأسرة بأكملها تعاون صاحب الضيعة على زرع الأراضي وانجاز جميع الأشغال اليدوية . يعطي المالك أو صاحب الضيعة للعامل خمس الغلة مقابل أتعابه والمجهودات المادية التي يقوم بها أفراد أسرته . وإذا لم يكفه ذلك ، فانه يستترض الحبوب من قمح وشعير .

وقبل تسليم الخمس هؤلاء العمال ، وذلك عادة أثناء جمع المحاصيل ، فإن قائد الدوار يخصم كل ما عليهم من ديون وتسيقات ، ولا يعطى لهم إلا ما تبقى . وعلى أثر التقسيم يذهب العامل الى السوق لبيع محصولاته . وبما أن الغلل تجمع في نفس الوقت تقريباً ، فإن الحبوب تكون رخيصة في فترة معينة من العام ، بينما تكون الأسعار ثابتة عندما يقوم الأغنياء بتمويل الأسواق .

ويرى هؤلاء السكان الرحل أن من الضرورة الملحة أن يكتسب المرء حصاناً وبندقية وسيفاً . والذي لا يملك هذه الأشياء يكون محترقاً ومنبوذاً ، لأنه ، كما يقولون ، لا يقدم أي ضمان سواء للقيام بواجباته أو للدفاع عن المجموعة . يوجد قائد بالنسبة لعند من الدواوير ، ويعين من طرف الباي أو من طرف آغا الناحية التي ينتمي اليها ، وتنحصر اختصاصاته في جمع الضرائب والسهر على تنفيذ القوانين وتبليغ تدابير حكومته

ومن بين مالكي هذه الدواوير أو رؤساء العائلات ، هناك من يبدو ثرياً .
ولقد دعيت ، شخصياً لتناول الطعام عند أحد هؤلاء الملاكين فقدم لي
« ابريقاً » من القضة لأغسل يدي قبل الأكل ، على الطريقة الشرقية ، وأحضر
الوجبة في صحون من الخزف الصيني .

وكما ذكرنا سابقاً ، فإن النساء اللاتي يُكلفن بالحلب ، يذهبن كذلك
لحلب الماء وقطع الحطب لإشعال النار . وفي الأماكن التي يوجد فيها الحطب
بقلة ، كما هو الشأن في نواحي قسنطينة ، فإن الأهالي يستعملون محروقات
من نوع آخر ، مكونة من خليط العشب وخشي البقر المجفف . والنساء هن
اللاتي ينسجن الخيام ، والحياك والبرانس ، وهن اللاتي يمحضن ، ويتبن
طريق المحصادين لجمع السابل كما أنهم يتولين طحن الحب ، وعجن الدقيق ،
والقيام بكل ما هو منزلي على العموم ، ولذلك نرى هؤلاء النساء اللاتي لا
يتوقفن عن الإشتغال ، نراهن قلترات لا يعتنين بهنداءهن ، الأمر الذي
يجعلهن عرضة للحمى ولغيرها من الأمراض الناتجة عن كثرة ما يلاقين من
أتعاب . وعلاجهن عبارة عن نباتات معروفة بنجاعتها لأن السكان هنا لا
يعرفون مبادئ التطبيب . وبالنسبة إليهم ، فالطبيعة وحدها هي التي تصنع
المعجزات ، ومن العادة أنهم ، في مثل هذه الحالات ، يلجؤون إلى الحمية (3) .
أما فيما يخص حيواناتهم فإنهم يعرفون علم البيطرة كما هو معروف في
أوروبا .

وتوجد لديهم طريقة للاحتفاظ بالحبوب سنوات متعددة دون أن يلحقها

(3) وذلك عملاً بقول الرسول عليه السلام: المعلقة بيت الداء والحمية رأس الشفاء
(أو كما قال) .

ضرر ، وذلك بأن يضعوها في مطامر بعيدة عن الهواء والرطوبة . وانك لتجد عندهم ، بدون مغالة ، قمحاً مخزوناً منذ أكثر من خمس عشرة سنة ، واني لمؤكد من هذه الحقيقة المعروفة في افريقيا معرفة جيدة . ولكننا نلاحظ عند الطاحن أن دفتين هذه الحبوب التي تخزن طويلاً لا يحتفظ بنفس البياض الذي يتسم به القمح الجديد ، كما يكون له طعم لا يطيقه جميع الناس ، ويحبه هؤلاء السكان جداً ، ويقدمونه للضيوف كشيء نادر مثلما تقدم ، في أوروبا ، الخمر المعتقد أثناء وجبات الغذاء . ويدعى هذا النوع من القمح « المطمورة » ، وتختار لخزنه ، أماكن مجهولة تهباً بدقة حتى أن الأعداء يشون فوقها عندما يغزون المنطقة ولا يكتشفونها إلا إذا دهم على ذلك أحد الخونة .

ويوجد بين هؤلاء السكان فرسان ممتازون يتسمون بكثير من الشجاعة والمهارة ، عندما يركب الواحد منهم لا يتردد في محاربة عشرين أو ثلاثين شخصاً ، وله القدرة على رد هجوماتهم ، وهم معروفون ببسالتهن وبعمزة النفس ، وجعل أبناؤهم على هذه الأخلاق ، فلا يرضون بفعل أدنى دنية ، ولا اعتقد أن هناك من يستطيع إنكار هذه الحقيقة . ومن الفرسان من يمد يده الى الأرض ، أثناء الركض ، فيلتقط حجراً أو شيئاً آخر دون أن يغادر صهوة جواده .

أما سكان الصحراء البعيدة ، فلاني لم أزرهم شخصياً ، وما أقوله عنهم إنما هو رواية عن أشخاص موثوق بهم .

وتنحصر ملكيات هؤلاء السكان في الجمال والبقر والخيول ، وليس لاعلامهم درجة قطعان من الغنم ولا من المعز ، لأن هذه الحيوانات تمرقل

فرارهم عندما تهاجمهم قبيلة من القبائل العدو ، وفي كثير من الأحيان يضطرون الى تركها .

وهم يحبون خيلهم حباً شديداً ، ويعملونها في مكانة خاصة الى درجة انهم يقدمون لها حليب النوق .

عدد هؤلاء السكان كبير ، وأصلهم عربي كما تقدم ، والقيادة فيهم يتوارثها الابن عن الأب . ويزعمون أن هؤلاء القادة ينحدرون عن النبي داود . ويتصرف كل قائد في حوالي عشرة آلاف خيمة لا تبقى في مكان واحد أكثر من شهر . وأهم ما يتغذى به هؤلاء الأهالي التمر وحليب النوق ، ويقدمون منتجاتهم للسكان المزارعين مقابل الشعير والقمح وكذلك القماش الذي يصنعون منه لباسهم والمناديل الحريرية التي تستعملها نساؤهم . ويحملون على ظهور الجمل الصوف والسمن الخ ... ويعتبر صوفهم من أجود الأنواع وهو يشبه المرينوس الى حد كبير . جمالهم شبيهة بالمتوحشة لا تروض إلا بصعوبة ، ولا تستعمل في الأشغال كما يفعل ذلك سكان التل .

ويوجد لدى هؤلاء السكان نوع من أجود أنواع الخيل ، وهم بالطبع ، أكثر نشاطاً ، وقوة من السكان المزارعين الذين ذكرناهم أعلاه ، ونستطيع القول بأن الرجل منهم يساوي عشرة من الآخرين .

وتعين مشايخ الصحراء من اختصاصات باي قسنطينة ، وعندما يقلدهم زمام الحكم يهدي اليهم معطفاً مديحاً بالخيوط الذهبية . ويضع تحت تصرف الشيخ الواحد عشرين خيمة من الجنود الأتراك وأعلاماً وجوقة موسيقى عسكرية ، ويكون هذا الشيخ كالمملك بالنسبة لسكان الصحراء ، الذين تبذل جميع الوسائل الممكنة لجلبهم الى قسنطينة ، فيدعون للتنقل اليها أيام السوق

يبدلون فيها متوجاتهم خدمة لمصالح هذه العاصمة ، ولذلك نجد مدينة قسنطينة التي ما كانت تبلغ هذه المكانة لولا هذه المنافع ، نجدها مزدهرة تتمتع بكل ما تدره التجارة المركزة فيها ، إلا أن هناك بعض المشايخ ، الذين لا تسمح لهم كبريائهم بالخضوع لسلطة الباي ، يفضلون الذهاب لأسواق أخرى في الجهة الغربية مثل التيطرى وغيرها من المدن . وبفضل تنقلاتهم اليومية ، يفيدون مقاطعة باي التيطرى دون أن يخضعوا لأي واجب من الواجبات ، ولأجل هذه المنافع يهتم البايات كثير الاهتمام بالتحالف ، عن طريق المصاهرة ، مع رؤساء هؤلاء السكان الرحل الأباة .

ان الحاج أحمد (4) ، باي قسنطينة الحالي ، ابن اخت أحد كبار رؤساء هؤلاء العرب ، ويدعى اللوادي بن قانة .

وقد كان الباي ابراهيم (5) الذي سلم عناية للفرنسيين ، باياً في قسنطينة أيام الأتراك . وفي ذلك العهد صاهر أحد أفراد عائلة الشيوخ فرحات (6) ، وهو من قواد الصحراء .

(4) هو الحاج أحمد بن محمد الشريف وحفيد الباي أحمد القلي . أما أمه فهي الحاجة رقية من أسرة ابن قانة الصحراوية . ولزيد من المعلومات حول هذه الشخصية الجزائرية القلة راجع مذكرات الباي أحمد التي ترجمناها عن الفرنسية .

(5) عزله حسين داي سنة 1821 نتيجة تصرفاته اللامسؤولة . والجدير بالذكر أن هذا الباي هو الذي كاد للحاج أحمد ، خلفته آنذاك ، وأنتع الداي بضرورة إبعاده عن قسنطينة فنفاه إلى المدينة فالبليلة .

(6) هو فرحات بن سعيد من أسرة بو عكاز . عينه إبراهيم باي شيخاً للعرب بعد أن أجبر ابن قانه على التخلي ، وهو شخصية فريدة يبحث عن المسؤولية فقط . ولكنه كان شجاعاً وطموحاً . يقول عنه الباي أحمد في مذكراته : إنه رجل بارود ، لا يهاب المنية . حاربني مدة سبع سنوات ، فكان يساوي وحده مائة فارس .

وعندما غزا الفرنسيون الجزائر ، استولى مصطفى بومزراق (7) ، باي التيطرى ، على المدينة الواقعة غربي مدينة الجزائر ، وأعلن نفسه باشا ، وارثاً لى ابراهيم باي ، الذي كنا نتكلم عنه والذي تحالف مع مصطفى المذكور ، أن ينصب نفسه ، بمساعدة صهره الشيخ فرحات ، باياً على قسنطينة مكان الحاج أحمد ، وأن يستولي على المدينة وعلى ثروات هذا الأخير (كان يجهل أن هذه ثروات قسنطينة وانها نقلت الى الصحراء) . وقد كان يأمل أنه يجد في كنوز الحاج أحمد ما يكفيه للقيام بمحاربة الفرنسيين ، واعتقد الشيخ فرحات ، بهذه المناسبة ، أن من حقه أن يبذل كل ما في وسعه ، ظناً منه أن مسألة المدينة تكون لها نتائج مرضية .

وفي الوقت الذي فشلت فيه مخططات باي التيطرى ، كانت المعركة قائمة بين الحاج أحمد والشيخ فرحات الذي منعه عزة النفس من التراجع على الرغم من أن جيشه كان في وضع سيء ، وعندما انتصر عليه الحاج أحمد استولى على ثرواته وأتباعه وعلى كل ما ينتسب اليه ، ولكن الحاج أحمد المنتصر كان رحيماً وكريماً ، فأعاد النساء والأطفال الى خيماهم وأرجع للشيخ جميع ثرواته كما هي العادة عند البواسل ، ثم أحضر لهم الخيل وما عداها من الحيوانات الضرورية لتقل أمتعتهم ، وعندما يحل السلم تنطفئ الضغائن ويسود الاحسان ، وفي جميع الحالات تجب حماية النساء واحترامهن ، ولا تكون

(7) المزراق هو الرمح . وقد حكم بومزراق بايلك التيطري من سنة 1819 إلى سنة 1830 . كان شجاعاً ونشيطاً في جميع أعماله . شارك في معركة سطاوي ، غير أن القبائل ثارت عليه بعد سقوط مدينة الجزائر ونهبت أملاكه ، فاضطر إلى طلب الأمان من الجزائر كلوزيل ثم غادر الجزائر وتوجه إلى الاسكندرية .

الحرب إلا بين الرجال. وبعد أن أعادهم لرئيسهن ولآبائهن، وجه الحاج أحمد لفرحات رسالة يؤمنه فيها من كل خوف ، ويقدم له الأمان ، ويدعوه الى زيارته . بيد أن هذا القائد ، الذي أخزته الهزيمة ، رفض التنقل شخصياً ولكنه ظل ، من ذلك الحين ، يرسل باي قسنطينة ، فشرح له الأسباب التي أدت الى الحرب ، وبعث له الرسائل التي تكون علاقاته مع الدوق « دوروفيغو » ، وأحاطه علماً بجميع الإتصالات التي يقوم بها يهود الجزائر ، كما أحاطه علماً بالجابات الذي أخص به الدوق والذي يقول فيه انه لا يستطيع قبول عروضة ، وان شرفه ومركزه الاجتماعي بين الرؤساء الآخرين ، يفرضان عليه عدم مساعدة أي كان ضد وطنه ، وبالتالي فإنه ليس من طبعه أن يخون مواطنيه وبلاده .

وقد أطلعني الحاج أحمد على أسرار كل هذه المراسلات ، وبهذا الصدد قال لي : كيف أن الفرنسيين الذين اشتهروا بالفكر الثاقب وبحدة الذكاء يظهرون العكس في مثل هذه الظروف ؟ كيف يثقون ثقة عمياء في يهود مناورين، وفي ذلك المدعو ابن قارة علي الذي عين خليفة في المنطقة الشرقية والذي لم يتمكن من شغل هذا المنصب أكثر من ثلاثة أيام ؟ ان هذا السلوك قد بين للعرب أن الفرنسيين يثقون بأناس لا أهلية لهم ولا كفاءة ، ويتقص من قيمتهم في نظر هؤلاء العرب أنفسهم وفي نظر سكان الصحراء . وزيادة على ذلك ، فإن هؤلاء السكان بعينون بطبعهم عن جميع الأوروبيين وذلك بسبب الاختلاف الموجود في اللغة ، واللباس ، والطبائع ، ثم ان أفكارهم التعصبية تعد من أهم الحواجز التي تمنع كل تقارب . ولذلك ، كما قال الحاج أحمد ، فإنه ليس للفرنسيين أن يأملوا في أن يساعدهم هؤلاء الأهالي على أن يصبحوا سادة عليهم وعلى البلاد . وعلاوة على ذلك ، أضاف الحاج أحمد ، فإن ادارة

الفرنسيين والأساليب التي استعملوها حتى الآن لم توضع للاغراء. وفي الصفحات المقبلة ، عندما أتكلم عن رحلاتي الى قسنطينة ، ومصاداتي مع باي هذه المقاطعة ، سأذكر بعض الملاحظات القيمة التي أبدتها الحاج أحمد. ويحتمل أن أذكر بأنني كنت كلما قدم الحاج أحمد حججاً ، أبذل كل ما في وسعي لإقناعه بالتخلي عن الفكرة التي تكونت لديه ، ولقد أردت أن أفهمه بأن ليس للحكومة الفرنسية سوى نوايا حسنة ، وإن الأعمال التي قام بها بعض القادة والتي يعتبرها ناقصة، وتستحق العقاب إنما نصفها مبالغ فيه ، والربع لم يؤول تأويلاً صحيحاً ، والباقي ، الذي تدينه الامة الفرنسية ، لم تأمر به لحكومتها .

إن وصول رسل الشيخ فرحات الذوايدي كان سبباً في الحادث المفجع الذي وقع ل قبيلة العرفية (8) . ولقد قدم السيد بيشون (9) ، في كتابه ، تفصيلاً عن تلك الفضيحة التي ستكون صفحة سوداء في تاريخ الشعوب والتي لا يصدق الكثير أنها وقعت في القرن التاسع عشر ، عهد الحرية والحضارة الأوروبية . منذ ذلك الوقت ، أخذ الشيخ فرحات حذره ، وصار باي قسنطينة يحترس من الفرنسيين ، وكذلك الأمر بالنسبة لجميع القادة الآخرين وللسكان بأكملهم . أنهم يعتقدون أن عدل الفرنسيين ظاهري فقط . وإن كل قبيلة تحتمي بهم

(8) قبيلة كانت تسكن ناحية الحراش . نظم البوق دوروفكو حملة ضدها فباغتتها ليلة السابع من شهر أفريل 1832 قتل جميع أفرادها العزل باستثناء بعض الأطفال والنساء . وتذكر المصادر أن البارون بيشون قد حاول أن يمنع تلك المذبحة ولكنه لم يفلح (انظر بيشون ، وبيليبي في الحوليات الجزائرية ، الجزء الأول ، الكتاب العاشر) .

(9) ديبلوماسي فرنسي ، ولد سنة 1771 في مدينة نانت وتوفي في باريس سنة 1850 . كان أول معتمد مدني في الجزائر بعد الاحتلال ، ولم يقادر البلاد إلا سنة 1832 . له مؤلفات كثيرة أهمها : « الجزائر في عهد الاحتلال الفرنسي » نشر سنة 1833 أي في نفس السنة التي نشر فيها المرأة باللغة الفرنسية .

وتبدي الاخلاص لفضيتهم تلقى مصير العوفية . هل ان الفرنسيين لا يودون التقرب منا إلا لإبادتنا ونهبنا ، كما فعلوا ذلك بالنسبة لتلك القبيلة الضعيفة ؟ ان الفائدة التي يمكن انهم حصلوا عليها نتيجة نهبهم إياها لضئيلة جداً ؛ اذا قارناها بالخزي والعار اللذين أصابا المتسبيين في هذه النكبات .

والذي يدهشني في هذه الواقعة ، ويخجلني عندما أتكلم عن هذه الأحداث هو أن السيد يشون قد عرض قبلي ، في كتاب ، ويكيفية صادقة هذه الأحداث ، ولم تتخذ الحكومة الفرنسية أدنى الاجراءات للتنديد بهذه الأعمال التي لا تليق بمقامها وبكرامتها . ولقد كان من حقها أن تبرهن على أن مشاعرها تتعارض مع هذا النوع من التصرفات ، ومن واجبها ، كما فعلت ذلك ، بمناسبة الاستيلاء بالقوة على الصوف ، أن تشجب بشدة وبواسطة تصريح وقور مثل هذه الكوارث التي ينسب فيها أعوانها . وأخيراً ، كان عليها أن تعرض للسكان القتلا الذين سلموا من المذبحة ما أتلّف من أملاكهم ، وأن تمنع بيع الغنائم المغتصبة . لقد تم هذا البيع في باب عزون ، ومن جملة ما رأينا أساور ما تزال مشدودة الى زنود مقطوعة وقرولاً دامية . وعلى العكس فإن جميع الأعمال التسفوية كانت تشجع وانطلمست مبادئ العدالة كلها في أذهان الحكام . وبهذه التصرفات ، سوف تستحيل الإقامة في هذه القارة بالنسبة للفرنسيين الذين سيفقدون الى الأبد جميع الامتيازات التي يكونون قد اكتسبوها .

وهكذا نظمت حملة عسكرية ضد البليلة التي كانت بين أيدي الفرنسيين وفي حمايتهم ، وعلى غرار ما وقع في العوفية ، فان سكانها نهبوا وذبحوا . وهذه المدينة المعرضة ، دائماً ، لهجمات المفسدين المقيمين في الجبال المحيطة

بها . ليس فيها أي حصن ولا يمكن لها أن تقاوم طويلاً . واني لأذكر هذا الحادث وأترك الحكم فيه للأجيال المقبلة .

لقد خضع سكان البلدة للفرنسيين على رغم أنف جيرانهم سكان الجبل ، ثم ان الفرنسيين تركوهم فريسة للأحقاد ، يموتون دون أن يقدموا لهم وسيلة للدفاع عن أنفسهم .

وكل هذه الأعمال التخريبية الهدامة معروفة ويزداد انتشارها من يوم لآخر في كامل أنحاء الأيالة .

ان هذا البلد ، كأنه سلسلة في احساسه بالخير والشر ، يكفي أن تمس حلقة واحدة لتقوم الباقية برد الفعل . وهكذا ، فإن الانطباعات التي تنتج عن تصرفات الحكام تسري حيناً والى كل مكان ، لكن ، مع الأسف ، فإن جزءاً من الإنسانية وحده هو الذي يزرع تحت عبه كل ما يمكن تصوره من الشرور .

ولكي أعود الى وصف الخليم ، فعلى الرغم من أنني لم أتجول في هذه الدواوير التابعة للشيخ الشهم الكبير النوادي ابن قانه ، خال الحاج أحمد ، باي قسنطينة ، أستطيع القول بأنها رجة ومقامة بأناقة وأبهة . وعلى كل مدخل نجد الخيل الجميلة مربوطة . ولقد سألت عن عدد الفرسان الذين يمكن تجنيدهم عند أول اشارة ، وكان الجواب أن الشيخ ابن قانه يستطيع الاعتماد على عشرة آلاف فارس . ولا أعتمد أن في هذا العدد مبالغة ، لأن مجموع الخليم يزيد عن العشرة آلاف واذا فرضنا أن كل خيمة يمكن لها أن تجهز فارساً واحداً وجدنا بكل سهولة العدد المطلوب ، أما أنا ، فإني أعتقد انه بالامكان ، عند الحاجة ، مضاعفة العدد ، وذلك نظراً لكثرة ما يملكه هؤلاء السكان من

الحيل ولكثرة شغفهم بركوبها وبخوض الحروب . وهناك ، أيضاً ، مشايخ كثيرون يعرفهم ابن قانه ويسكنون هذه المناطق .

وها هي الآن بعض التفاصيل عن الصحراء . انها باب وموطن للرمال ، نرى فيها من حين لآخر جبلاً شامخاً ثم يزول في لمح البصر لأنه من رمل وليس من أجسام صلبة . ان الرياح تصنع الجبال وتهدمها كما شاءت ، وتصنع السهول والأكوام . ومن المستحيل شق طريق تضمن الذهاب من نقطة والإياب إليها ، اننا لا نجد فيها شجرة ولا حجرة ولا أنهار ولا أودية ، ولا أية علامة لمرة الاتجاه . غير أن سكان هذه الناحية يتمتعون بموهبة خاصة تفوقهم في الأسفار ، انهم يهتلون بكواكب النهار ونجوم الليل ، ويكشفون المياه بسهولة عجيبة ، وفي بعض الأحيان فان هذه الينابيع تكون مغطاة بقدم وقدمين من الرمل ، ولكن ذلك لا يمنع من الوصول إليها وهذه ملكة اختصوا بها دون غيرهم .

يوجد في وسط الصحراء بعض المدن مثل بسكرة ، ميزاب ، لغواط وغيرها ... مقامة على الأنهار أو على الينابيع ، وتخضع لإدارة مشايخ الصحراء الذين يتقاضون نوعاً من الفرامة مقابل حمايتهم لأهالي هذه المدن .

وسكان الصحراء لا يعرفون البلدة الأوربية ، ما عدا اولئك اللذين يذهبون الى المدن الساحلية مثل مدينة الجزائر وغيرها .

ويوجد في هذه المناطق عدد كبير من الحيوانات السامة مثل الثعابين والعقارب ، وهي خطيرة جداً ، ولا أستطيع ذكر أنواع الحشرات التي يتلذع بها السكان لحماية أنفسهم ، لأن هذه الحيوانات تختبئ في الرمال ، وهناك أيضاً ، الأقاعي بأحجام مختلفة ، ونوع آخر قصير ونحيل ينطلق نحو الأفراد

وكأنه السهم ، وبمجرد ما تتصلب هذه الزواحف بالجسم تطلق النار ثم تقتل نفسها بعد أن تميت الشخص الملتوغ ، ويقال كذلك أنها ترك أثراً في قطعة الحديد أو الفولاذ التي تصطدم بها . فمثلاً ان ركاب الخيل في هذه المناطق عريض ومحقق لتجد الرجل فيه مكانها ، وعندما يلمسه هذا الحيوان ، فإنه يترك فيه علامة .

ولن أُنْتهِي من هذا الفصل دون التذكير بأن هذه المنطقة الواقعة في داخل البلاد هي مصدر ثروات الإيالة وأساس كيانها السياسي ، وأنها تشكل بمفردها أكبر جزء تعتمد الإيالة كل الاعتماد على سكانها . — وهنا أصل إلى تفاصيل أقل أهمية على الرغم من أن بعض مشاهير الكتاب أرادوا أن يظهروا بأن المناطق الساحلية أهم وأغنى ، وسأبين في الفصل القادم مدى خطأ زعمهم ، وأبرهن ، بكيفية منطقية وهندسية ، على أنهم ارتكبوا أخطاءً فادحة عندما تكلموا عن أشياء لا يعرفونها إلا معرفة سطحية . وأن إقناع ذوي المنطق السليم والرأي الصائب لا يتم أبداً بواسطة الجمل المنمقة ، والمحيط لا يمكن أن ينشأ فوق مونتمارنر كما أن القصور في اسبانيا ستظل خرافات ، وعلى الرغم من كل ما قد تفوهت به تلك الشخصية التي هي بلا شك أقرب إلى أن تكون رجل سيف منها إلى أن تكون رجل قلم ، على الرغم من ذلك وعلى الرغم من أنني من مواليد المشرق ، فإنني سأقف ضد حقوق غير مشروعة وأحارب الآراء الخاطئة بواسطة حجج لا تقبل المنازعة .

الفصل الخامس

المتيجة : طبائع سكانها وعاداتهم

إن المتيجة التي دوخت بعض الشيء ذلك الكاتب المشهور (I) وجعلته يحلم بأنهما الأرض الموعودة ، التي أراد الجنرال أن يحولها إلى جزيرة في وسط هذه القارة الواسعة بعد أن أوحى له بعدد آخر من المشاريع الوهمية ، رقعة نفعية وغير صحيحة . أنها سهل لا تساوي تربته تربة غيره من سهول الايالة ، بالإضافة إلى كونه موطناً لحمى تظهر في أوقات متقطعة ، فتصيب السكان وتلازم حتى المتأقلنين .

وعليه ، فإن الجنرال الشهير وأنصاره مخطئون كل الخطأ وأرى من واجبي أن أتصدى لوسائلهم التي تبلو لي غير صالحة . يعتقدون أن باستطاعتهم استصلاح هذا السهل ، ويتوهمون أنهم اكتشفوا قنوات كتلك التي تمود الرومان أن يستعملوها وظنوا أنها كافية لتجفيف التربة .

(I) المقصود هنا هو السيد كلوزيل الذي ستكلم عنه فيما بعد .

ومن واجبي ، كمالك - من أب لابن - لجزء كبير من هذا السهل مثل أسر أبي قننورة ، وأبي هراوه ، وناصف خوجة ، - من واجبي أن أقول بأنني أجهل تماماً وجود قنوات تشبه قنوات الرومان . وشخصياً ، فلأنني أملك عدداً من هذه القنوات على مقربة من مزارعي ومن الأليق أن نسميها ميازيب لأنها معدة فقط لإبعاد المياه العفنة والمضرة ولجعل الضواحي قابلة للإسكان . وكلما حاول بعض الكتاب أن يمارنوا رقعة منقعية كمناطق النتيجة بأراضي أمريكا ، فلأنهم يكونون عرضة للانتقاد . ومن الأفضل لهم التفكير في مقاطعات لومبارديا (2) أو في ضواحي روما الاصلحية لتكون المقارنة عادلة ومنطقية . وعليه ، فلأن من واجبي أن أقوم ، عن وعي ، بتكذيب كل ما قيل عن هذه المنطقة حتى ولو كان في ذلك خيبة أمل بعض الأشخاص الذين ينتظرون منافع كبيرة من الاستعمار .

ان سكان الأيالة ، أو الأهالي كما يسمون ، يعرفون بلادهم أحسن من الأجانب الذين زاروها مرة أو مرتين والذين يمكن التشكيك في إدعاءاتهم الإحصائية والطبوغرافية . هناك أشخاص يزعمون أنهم يعرفون مقاطعة أو مملكة ، جبلاً جبلاً وحجراً حجراً ، وهم في الواقع لم يشهدوا تلك الأماكن إلا عرضاً ومن بعيد . تماماً كما لو قلت أنني أعرف فرنسا حق المعرفة لأنني قطعت المسافة ما بين مرسيليا وليون وباريس وكالي ، ذهاباً وإياباً فوق العربة . فبكل نزاهة لا أستطيع ان أكتب مقالة وصفية لإعتماداً على

(2) منطقة في شمال إيطاليا تقع بين جبال الألب ونهر إلبو . مناخها صعب جداً ، بارد في الشتاء وحار في الصيف . اشتهر سكانها بزراعة الكروم والأرز ، والقنب وبترية دودة القز . وهي الآن منطقة فلاحية وصناعية في نفس الوقت .

مثل هذه المعطيات ، وأترك للقارىء حرية الحكم على الملاحظات التي قد تتعارض مع الإستلاحة .

ان الطبيعة لم تحب سكان المتيجة . انهم يجبلون على الكسل والنلالة والحياة والحدق والسياسة . وليس لهم مورد غير التسيقات التي يقدمها لهم الجزائريون (سكان العاصمة) مقابل الإعتناء بمزارعهم وقطعانهم ، وما يدره عليهم الحليب الذي يبيعونه في مدينة الجزائر . وعندما يراد وصف شخص بأنه كسول ومسكين يقال عادة انه من متيجة .

ان قمح هذه المنطقة أقل جودة من غيره ، ولونه يميل الى السواد وكية الشتاء فيه أقل من تلك التي تحتوي عليها القمح الأخرى . ولا يمكن تخزينه أكثر من ستة لأنه يتعرض للفساد حتى ولو كان البلر من مكان آخر . وهذا العيب ناتج عن جو المنطقة ومناخها ، ويقول الفلاحون ان اللون القريب من السواد ناتج عن كثرة الندى الذي يتساقط على القمح قبل فترة النضج . وهذا أمر لا نجده في باقي أنحاء الايالة . انني أنكلم عن بصيرة لأنني كما ذكرت في السابق ، أحد المالكين في المتيجة . وأزرع سنوياً في هذا السهل ، ولحسابي الخاص ، حوالي مائة وستين حمولة جمل من القمح ، وحوالي مائة أو مائة وعشرين من الشعير .

انني أزور هذا السهل مرة في ربيع كل سنة لأنني أخشى الحمى في الفصول الأخرى ، وحتى في هذه الفترة أخذ معي ماء الكولونيا وغيره بما يقيني شر الهواء الفاسد ، كما أتزود من ماء مدينة الجزائر أشرب منه . ان هذا السهل يشبه الغدير في الشتاء ، وفي الصيف والحريف تستوطنه

الحمى باستمرار الى درجة انه من الصعب جداً إتقاؤها ، وما تمسكي بهذا السهل إلا لأنه قريب من المدينة ولأن فيه مزارع ومواشي غير بعيدة عن ضواحي الجزائر التي أزرع فيها القطن وهي زراعة منتجة لا يعرفها العرب . وعلى أثر الغزو الفرنسي ضيعت هذه الزراعة كما أرغمت على ترك منافع أخرى . ان هذا السهل يكاد يكون مملوكاً من طرف سكان مدينة الجزائر وحدهم ، أما معاش سكان النتيجة فمن وادي جر ومليانة ، (3) وعندما لا تكون الغلال كافية يلجأون جميعاً الى المناطق الغربية . وبعد مجيء الفرنسيين ارتفعت الأسعار وقلت الموارد في هذه المنطقة بكيفية ملموسة . وأصبحت الطرقات غير آمنة مما جعل سكان الغرب لا يسلكونها كما كانوا يسلكونها في السابق . ان هذا الشر قد ظهر خاصة هذه السنة بعد اعتقال مرابط القليعة الذي هو أكثر المرابطين تأثيراً في هذه المنطقة ، والذي كان يحمي المسافرين ويدفع السكان البعيدين الى الإتيان ببضائعهم وذلك بأن يحفظهم من جميع أنواع الشتم . لقد أصبح اعتقال هذا المرابط مصيبة على المنطقة ، لا سيما وانه اعتقال غير شرعي وان براءة الشيخ لا يشك فيها أحد . ويبدو ان الإعتقال ما يزال مستمراً ، وان غرامة محضته قدرها مليون قد فرضت عليه وأغاظ هذا التصرف الجائر جميع سكان الايالة الى درجة انه لم يعد لديهم أي استعداد للإتحاد مع الفرنسيين الذين صاروا ينظرون اليهم كفتنصين . ولقد باع أهالي هذا المرابط كل ما يملكون من ماشية وخيل وأراضي وحبوب ولم يتمكنوا إلا من جمع عشرة آلاف فرنك . وعلى الرغم من دفع هذا المبلغ ، واستحالة الحصول على أكثر من ذلك ، فإن اعتقال قائدهم

(3) وادي جر سهل شاسع يبعد عن مليانة بحوالي عشرين كيلومتراً .

والدهم ما يزال مستمراً . وهذا هو السبب الذي دفعني الى القول بأن سكان النتيجة تألموا كثيراً من هذا الوضع ، وبأن فلاحهم قد توقفت كما انقطعت وسائل عيشهم الأخرى لأن هذا القائد هو حامي الفلاحين في هذا السهل ، وهو نفسه واحد منهم . وعلى فرض هؤلاء السكان سيخلصون الى الفرنسيين ، فان وسيلة عيشهم محصورة في بيع البقر والدواجن . فيا لهم من نعساء ! لأن عرب الجبال يتحكمون في هذا السهل بحكم موقع المنطقة الجيوبوغرافي . والتحليل غير موجودة بتاتاً ، وما هو في حوزة السكان منها يستعمل للركوب ولنقل السلع وحرث الأرض . وعندما يصل أهالي هذه الناحية الى مدينة الجزائر يعرفون بكل سهولة نظراً لما هم عليه من جهد وتعب ، وذلك لأنهم لا يتقصون تغذية فحسب ، ولكن الغذاء الذي يتناولونه لا ينفع كثيراً بل هو غذاء مضر . ونظراً لكل هذه الاعتبارات يبدو لي من العجب أن يكون « الدوق دوروفيكو » أراد أن يفرض على هؤلاء المساكين ضرائب كتلك التي كانت تفرض عليهم في عهد حكومة الأتراك . وهم كذلك يقولون « اننا كنا ندفع الضرائب للأتراك مقابل قيامهم بتهذية البلاد وتأمين الطرق وحمايتنا الخ ... فافعلوا مثلهم وسندفعها لكم ! ! ! » .

ان دفع الضرائب في بلاد الإسلام واجب ديني لأن الأموال الثابتة منها تنفق في صالح المجتمع بصفة عامة ، ومعنى ذلك ان رئيس الدولة ليس إلا أمين مال المجموعة . يجمع الضرائب لينفقها في سد حاجات البؤساء والأرامل والأيتام ورجال الدين وأبناء السبيل . وأخيراً ، في العمل على صيانة النوع البشري وتحسين أوضاعه . ولكي تكون هذه الضريبة شرعية يجب ان يكون رئيس الدولة مسلماً ، لأنه إذا لم يكن كذلك ، يتمم على

السكان ان يقوموا ، حسب ضمايرهم ، بتوزيعها بأنفسهم . وإذا أرغموا على الدفع ، فانهم يعتبرون ذلك قرصنة أو سرقة ، ولا يمكن ان تكون السرقة عملاً شرعياً . ولا يمكن لجميع الأشخاص الذين يعرفون التشريع الإسلامي ان ينكروا هذه المبادئ . ومن خلال هذه التفاصيل يجب تفهم بأنهم اذا امتنعوا عن إبداء هذه الملاحظات للدوق دوروفيكو ، فلأنهم كانوا يخشون ضعيفته والتمرض لمصير قبيلة العوفية . ومن نتائج هذا التمسك ان جميع السكان هاجروا وفروا وأخذوا جميع ثرواتهم الى الجبال المجاورة ليكونوا في مأمن من سائر أنواع العدوان . ولم يبق ، اذن ، سوى الضعفاء والبؤساء وهم لا يقدرّون على حرث الأرض . وسيكون من الصعب إجبار هؤلاء السكان على دفع الضرائب خاصة بعد ان حرموا من الفلاحة التي هي من أهم وسائل عيشهم . وحتى اذا دفعوا الضرائب ، فانهم لن يحصلوا على أمن الطرق ولا على الحماية التي وعدوا بها ، بل سيكونون كسكان البلدة الذين اضطهدوا وأجبروا على دفع ضرائبهم بعد ان خضعوا للفرنسيين ، وتمرضوا بسبب ذلك الى انتقام سكان الجبال المجاورة لهم والذين هم أقوى منهم ، بدلا من ان يحصلوا على الحماية الفرنسية وعلى وسائل اقامة الحصون التي تقيهم وتدفع عنهم الشرور . ولأجل ذلك تركوا البلاد ووجدوا أنفسهم مجبرين على إقامة العلاقات مع سكان الجبال .

وفيما يخص طريقةتهم في الحياة وألبستهم ، فلأنهم يعيشون ويلبسون على وجه التقريب مثل السكان الذين تحدثنا عنهم سابقاً ، حسب ما توفره لهم وسائلهم المالية . ولن أخصص باباً لوصف طبائعهم وعاداتهم على الرغم من أن شخصاً مدفوعاً بمصالح شخصية ، - ما في ذلك من شك - قد قام

بوصف هذه المنطقة وبوصف سكانها وصفاً سطحياً لا أساس له من الصحة .
وإنني أمتنع ، في الوقت الحاضر ، عن محاربة هذه الأغلاط التاريخية التي ،
بالرغم من أنها تخدع القارئ ، أكسبت صاحبها مرتبة أعلى وهو يأمل أن
يرى المخططات التي وضمتها تتحقق . وإذا سمحت لي الظروف فيما بعد ،
فإنني سأعود إلى الورا وأعالج هذا الموضوع .

البليلة

سكان البليلة يشبهون بعض الشيء سكان النتيجة إلا أنهم أكثر منهم
حضارة . أنهم يصنعون قماش المناديل التي تباع في مدينة الجزائر ، وبرغم
ذلك ، فإنهم فقراء لا يعرفون تجارة ولا صناعة . مناخهم غير صحي .

الفصل السادس

عن سُكَّانِ الْجَهَةِ الْفَرَنْجِيَّةِ

هذه المنطقة أقل خصباً وأقل اتساعاً من مقاطعة قسنطينة . وتلمسان التي هي إحدى المدن الرئيسية فيها ما زالت تحتضن أوابد كبيرة ومآثر هندسية جميلة للغاية . وقد كانت هذه المدينة ، في القرن السابع ، عاصمة للمقاطعة ، تاوي حكومة مستقلة (1) ، وهي أقدم من مدينة الجزائر ، كما أنها كانت مقرأً رسمياً للدولة عبد المؤمن (2) . وفي المدينة ما زال يُعْرَى على نقود تحمل اسمه ، ومن جملة هذه النقود قطع من الذهب الدقيق في حجم نصف العملة الانكليزية أو سكين جمهورية البندقية القديمة . ومدينة تلمسان التي هي أكبر مدن الأيالة كانت قد تهدمت ، وشرع في بنائها من جديد وهي الآن آهلة بالسكان الذين ينقسمون الى صنفين : الأتراك والعرب أو الأهالي .

(1) هي حكومة دولة بني عبد الوادي التي أسسها بوعمراس سنة 1248 بعد أن افلك مدينة تلمسان والنواحي من السلطات الموحدية . وقد كانت تلك الدولة تشتمل على ولايتي وهران والجزائر وبني عبد الوادي هم أنفسهم بنو زيان .
(2) أول رئيس للدولة الموحدية . ولد سنة 1100 ، وتوفي بعد ذلك بثلاث وستين سنة ، استولى على ممتلكات المرابطين في المغرب وأسبانيا كما أنه أخضع الجزائر وتونس ، وبذلك كَوَّن دولة عظمى .

وبما أن الجزائر كانت تحت حماية الباب العالي ، فإن من المسلم به أن حكامها يكونون دائماً أتراكاً وكذلك نظامها العسكري ، وإن العرب لا يقبلون أبداً في صفوف الميليشيا . ونتيجة هذا التمييز تولد بين الصنفين ، في تلمسان ، حقد ما زال إلى يومنا هذا وكثيراً ما يؤدي إلى صراع بينهما في وسط المدينة . وعندما دخل الفرنسيون الجزائر قامت معركة بين الطرفين ، وحتى لا تسود الفوضى ، طلب من سلطان المغرب (3) أن يتدخل ليضع حداً لهذه الحرب الأهلية . وقبل السلطان هذه الدعوة ، ولكنه بدلاً من أن يحمي السكان ويعيد الأمن سيطر على المدينة ظلماً أدهى وأمر من الظلم الذي كان يسودها . فأبعد إلى مدينة فاس عشرين من الأعيان ولم يطلق سراحيهم إلا عندما استولى على سائر ممتلكاتهم .

ولما رأوا أن سلطان المغرب بغى عليهم ، وإن الفرنسيين ، من جهتهم ، سيطروا على مدينة الجزائر حكماً جائراً ، ووجدوا أنفسهم بين نارين . بادروا إلى إبرام الصلح فيما بينهم . كانت مصالحهم تستدعي الوحدة فנסوا كل الضغائن المهلكة التي لا معنى لها . وفي هذه الفترة أرسلت فرنسا السيد دومرفي في مهمة لدى سلطان المغرب قصد الحصول على الانسحاب من هذه المقاطعة التي تحتلها الجيوش المغربية . وفي أثناء الانسحاب شكل الأهالي حكومة مستقلة مكونة من أشخاص عنكين يعرفون جميع التقلبات البشرية ، وباختصار ، أقاموا نوعاً من الجمهوريات إذ أن الحكم أصبح بيد جمعية يؤلفها عدد من أعيان المقاطعة .

لقد اطلعت على تفاصيل هذه الأحداث عن طريق مستغاثم التي هي أيضاً

(3) هو السلطان عبد الرحمن .

مدينة من مدن الجزء الغربي في مملكة الجزائر ، وتقع على مقربة من وهران . وتأكدت لدي هذه المعلومات بواسطة جزائريين يسكنون تطوان وغيرها من مدن المملكة المغربية أجبروا على الخروج من مواطنهم بسبب التنكيلات التي تعرضوا لها من طرف الفرنسيين .

وكما سبق أن ذكرنا ، فإن سكان تلمسان من الأتراك والعرب . أشداء ، ذو خلقة حسنة ، عنيدون ومفترون ، يحبون المجد وهم شجعان . ولكنهم طيبون واجتماعيون وتجار وفلاحون في أرضهم . يوجد في منطقتهم عدد من معامل الصوف يصنع فيها نوع من الأقمشة العادية التي يستعملها الجيش ، كما تصنع فيها المحازم التي يبلغ عرضها أربع بوصات والتي تنسج (4) نسجاً متيناً وتنقل إلى كامل أنحاء البلاد . مناخ تلمسان ألطف من مناخ الجهات المجاورة لها ، ووضعها الطوبوغرافي جعل منها منطقة ثرية ومزدهرة ، أنها أحسن من منطقة الجزائر لو تزود بحكومة عادلة . ومن الممكن أن تصبح تلمسان مخزناً للسلع بالنسبة لكامل الجزء الغربي والجنوب غربي افريقيا . إن مملكة المغرب تفرض على المواد الصناعية والتجارية الأوروبية ضريبة قدرها 10 ٪ . وعليه فبالإمكان أن نستورد عن طريق البر بجميع أنواع السلع دون أن ندفع رسوماً ، كما يمكن لنا أن نجد أسواقاً جديدة في مملكة المغرب وفي داخل افريقيا .

(4) البوصة هي الجزء الثاني عشر من القدم . وكان القدم في فرنسا يساوي 32,5 سم وفي انكلترا 30,47 .

المدينة (5)

سكان المدينة شجعان ومتصلبون . لا يميلون إلى الصناعة . مناخهم معتدل ولكنه بارد دائما تقريبا . إنهم يجنون ثماراً ممتازة والجو صحي في منطقتهم .

مليانة (6)

يتسم سكان مليانة بنوع من العناد . أرضهم خصبة للغاية وهم فلاحون وثمرهم ممتاز . لا يمارسون أي نوع من أنواع الصناعة وليس لهم حرف غير تجفيف الفواكه ، وصناعة نوع من المعجون بعصير العنب واللوز يمكن الاحتفاظ به طوال السنة . مناخهم صحي .

وهران

لم تدخل هذه المدينة في حوزة الجزائريين إلا سنة 1790 (7) . والذي استرحمها من الاسبانيين هو الباي قاره محمد (8) . وهي آهلة بسكان معسكر والمغاربة وبني مزاب والبرابرة . وضعها الجغرافي جعل من سكانها تجاراً وذلك

(5) توجد جنوب غربي الجزائر ، وتقع في مفرق الطرق الرابطة بين سهول الشلف والمتيجة . كانت تسمى لميدية في عهد الرومان . أنشئت في القرن العاشر ، وكانت عاصمة لبايلك التيطوي .

(6) تبعد حوالي مائة كلم عن مدينة الجزائر . وتقع في سفح جبل زكار الغني بالمناجم . ولقد كانت ، في العهد العثماني ، تابعة لبايلك الغرب ، وقبل الاحتلال ضمت إلى دار السلطان .

(7) تذكر كتب التاريخ أن خروج الإspanيين من وهران كان سنة 1792 .

(8) ويسمى ، أيضاً ، محمد الكبير ، عزله حسن داي بعد أن حكم أكثر من عشرين سنة . وفي مطلع القرن التاسع عشر عين ابنه عثمان بايا على قسطنطينة ، وهو الذي قتله الزبوشي أثناء ثورة ابن الأحرش سنة 1804 .

لما في التجارة من منافع ولأن الباي مهتم بها . ويأخذ الباي من التجار رسماً مقداره 5 بالمئة من السلع ، ويبيع هذه البضائع إلى السكان نقداً أو مقابل حبوب ومواشي كالإبقار والأغنام . وبهذه الحالة يكون هو أيضاً تاجراً . إن الدراهم متوفرة والفلاحة مزدهرة والبلاد في رخاء .

معسكر (9)

سكانها من الأتراك والعرب والبربر وفيهم كثير من الكراخلة . طبائعهم وعاداتهم كثيرة الشبه بطبائع وعادات أهل تلمسان . إنهم فلاحون ويشغلون خاصة بمضاعفة أجناس الخيل المختلفة وغيرها من الحيوانات الأخرى . يمارسون التجارة مع بني ميزاب . وفي هذه المنطقة تصنع البرانس الشهيرة السوداء ذات اللون الطبيعي والأقمشة الكتيفة والتي تستعمل في كامل أنحاء إيالة الجزائر ، وتصلر إلى مصر وتركيا . يباع البرنس الواحد من البرانس المبهفة بسعر يبلغ المائة فرنك . ولقد أصبح الفرنسيون أنفسهم من هواة البرانس .

مدينة معسكر أقل قيمة من مدينة تلمسان . وعندما كانت وهران في قبضة الإسبانيين ، كانت معسكر هي مقر الباي ، وكانت المقاطعة عندئذ غنية ، وشاع الترف في معسكر يظهر ذلك من خلال منازلها وهندستها . إنها مدينة أكثر تقدماً من مدينة تلمسان . أما المدن والقرى الأخرى ، فلا يبدو لي من المفيد أن أتكلم عنها إذ هي شبيهة بها لا تختلف عنها إلا بحسب موقعها .

(9) تشرف على سهول اغيريس . كانت عاصمة بايلك الغرب قبل استرجاع وهران . اتخذها عبد القادر عاصمة له سنة 1832 .

وتبلغ مقاطعة التيطري نصف مقاطعة تلمسان التي وصفناها ووضعنا حدودها . ويقطن باي التيطري في المدينة ، وتعتبر المقاطعة أسهل مقاطعة يمكن أخذها في الإيالة ، والأتراك يعرفون ذلك كما أعرفه أنا . وهناك مثل يقول بأن باي التيطري أضعف وأفقر من أمين بني ميزاب . وبنيو ميزاب هم سكان الميزاب الذين تكلمنا عنهم عندما ذكرنا الصخراء ، يأتون مدينة الجزائر كعمال يشتغلون بأحقر المهن ، فيشتغلون مثلاً في الحمامات والمطاحن وبيع اللحوم والفحم ، ويمكن مقارنتهم ، في باريس ، بسكان مقاطعتي الليموزين والصافوا (IO) . وحفاظاً على الأمن العمومي ، تعين الشرطة أمين بني ميزاب أو مسؤول الطبقة الشغلية .

لا ينبغي اعتبار التيطري منطقة جبلية تصعب على المدفعية أو على الخيالة ، وإذا قيل عن حملة التيطري أنها تشبه حملة أوسترليتز (II) أو حملة وفرام (I2) ، فإن ذلك بلا شك للحصول على تقدير الأمة الفرنسية .

أما الهزيمة التي مني بها الجنرال بارتوزين (I3) في المدينة ، فلأنها لا ترجع

(IO) منطقتان فقيرتان في فرنسا . وتشتهر الثانية ببجالتها ، وأهم وارداتها تربية البقر واستغلال انقابات ، كما أنها تشتمل على كثير من المياه المعدنية مثل إيغيان وتونوب ، الخ . . . (II) مدينة صغيرة في تشيكوسلوفاكيا تسمى حالياً : سلافكوف ، وقد انتصر فيها نابليون على النمساويين والروس سنة 1805 .

(I2) قرية نمساوية أحرز فيها بونيرث على انتصار باهر أمام جيوش النمسا التي كان يفوقها الأرض فوق كارلة ، وذلك يوم 6 جويليت سنة 1809 .

(I3) جنرال فرنسي ولد سنة 1775 وتوفي سنة 1847 . شارك في حروب الثورة وفي جميع الحملات التي نظمها نابليون . هو الذي كان يقود الجيوش الفرنسية التي انتصرت على إبراهيم آغا في سطولي . غادر الجزائر سنة 1832 . يقول حمدان إنه كان إنساناً يعرف قوانين الحرب .

أبدأ إلى تفوق قوات التطيري ، ولكن اتحاد مجموعات أخرى من برابرة
الجهة الغربية هو الذي زاد في عدد القوات التي قد تكون وجدت في هذه الناحية ،
وجعل الجنرال بارتوزين ينخدع في حساباته . إنه لم يكن ينتظر مجابهة مثل
هذه القوات المجتمع ففشل في مهمته . غير أن الذين نصحو الجنرال بتنظيم
هذه الحملة ادعوا - تحلصاً من التوبيخ - بأن الاتحاد تم بإيعاز من الأتراك
الباقين في مدينة الجزائر . ولذلك اضطهد هؤلاء المساكين وأخذتهم القوات
المسلحة من ديارهم لينفوا أو ليزج بهم في السجون .

وكان صهري من جملة هؤلاء المظلومين . فقصدت الجنرال بارتوزين
لأعرف أسباب الاعتقال ولكنه أعتذر وأجابني بأن قائد الشرطة ، الذي كان
آغا ، هو صاحب القرار الذي أفقد صهري حريته . وعندما توجهت إلى قائد
الشرطة أجابني بكل برودة ولم يزد على قوله : « يجب أن تذهب ، يجب أن
تبعث النساء إلى تطوان أو إلى غيرها » . ولما ذكرت له بأنني لا أوافق على
ذهاب بناتي أجابني بقوله : « اذن ، فليطلقا ! » .

إننا لم نعرف الطلاق الإجباري في عهد أكثر الحكومات جوراً ، ولكن
الإدارة الفرنسية سنت هذا القانون في إفريقيا مع أنه غير موجود في فرنسا ،
ولا يمكن - مهما كان الأمر - أن يوجد على هذه الصيغة .

وفي هذه الحالة وجدتني مجبراً على الاحتجاج ضد هذا الإجراء ، وتوجهت
إلى القاضي لإبقاء الزواج وللبحث عن كيفية الخضوع لهذا العمل التعسفي
خضوعاً ظاهرياً على الأقل .

كل هذه الإهانات جعلت الجزائريين يأسون . وإن الطريقة التي تسلكها

الإدارة الفرنسية قد نفرت السكان ونقلت الحضارة أكثر من قرن إلى الوراء .
وفيما يخصني ، إنني مقتنع بأن الحكومة الفرنسية لا تعلم بكل ما يجري من
أحداث ، وإذا كانت على علم بهذه التدابير اللاإنسانية واللاستورية ولم
تعاقب أصحابها ، فإننا نستطيع القول بأنها تشجع الإجماع وتساعد على البغي .
وفي هذه الحالة تكون سيرتها مناقضة تماماً للمبادئ التحررية والفكرة التي
أخذتها عن الشعب الفرنسي . تبدأ حدود هذه المقاطعة في مليانة (شرقاً)
وتمتد إلى وجدة (غرباً) (14) . مساحتها تقارب ربع مساحة قسنطينة ، وقد
أخذت هذه التفاصيل عن باي قديم مارس سلطته في وهران ثم في قسنطينة .
أما المدن الأخرى التابعة للمدينة ، فإنني أستطيع أن أعني نفسي من وصفها
لأنني لا أعرف عنها ما يمكن أن يكون عجباً أو مفيداً .

هذه هي ، إذن ، التفاصيل الوصفية والإحصائية والجغرافية والزمنية
الخاصة بالجهتين الشرقية والغربية في إيالة الجزائر ، ولقد ذكرت كذلك الأقسام
التي تتكون منها المقاطعات في كل منها ، وبقي عليّ أن أتكلم عن العاصمة
وعن تنظيم الحكم التركي والوسائل التي تمكن بها من إخضاع هذا الشعب ،
والطريقة التي استعملها لاكتساب قلوب هؤلاء الناس ، ذلك أن هذا الحكم
استطاع ، بفضل سياسته التي يُزعم أنها همجية ، أن يثبت ثلاثة قرون (15)
في جوار أوروبا .

(14) مدينة مغربية قريبة من الحدود الجزائرية . مشهورة بزراعة الحبوب والزيتون
والخضراوات . أنشئت سنة 994 . فيها مناجم من الرصاص .
(15) ابتداءً ذلك الحكم سنة 1516 ، ولم يسقط إلا عندما وقع الاحتلال الفرنسي
سنة 1830 .

الفصل السابع

الجزائر

تسكن الجزائر طبقات مختلفة من الناس ، وكان سكانها في الأصل من العرب الذين فروا من إسبانيا عندما كان الإسبان يوسعملون مضيق جبل طارق لافتراف جريمة الإغراق الى درجة أن عدد الضحايا بلغ ثلاثة ملايين نسمة . وفي ذلك الحين جاء الأتراك لنجدتهم ، ولقد عرفنا التاريخ بهذه الفترة المشؤومة حتى المعرفة . وإذن ، فإن جزءاً كبيراً من سكان مدينة الجزائر مكون من العرب والأتراك . والأطفال الذين يولدون نتيجة الزواج بين هذين الصنفين يسمون الكراغلة . ويسكن المدينة ، أيضاً ، أعراب وقبائل لهم نفس عادات ونفس حضارة العرب والأتراك . وإن مرّ الزمن قد أتى على الأصول الأولى وأصبح جميع الذين يسكنون مدينة الجزائر اليوم يسمون جزائريين .

ولهؤلاء السكان صفات خاصة وأخرى عامة، وإن المناخ للو تأثير كبير على طبيعة الإنسان . وعلى العموم ، فإن سكان هذه المدينة شجعان واجتماعيون وأوفياء للمهود وكرماء وبسطاء في نمط حياتهم ونظيفون في منازلهم ، وصناعيون

ونجار . وإذا وضعوا ثقتهم في شخص فلأبد ، وكذلك إذا خدعوا فلنهم سيحذرون إلى الأبد الشخص الذي خدعهم . إن معظم مبيعاتهم يتم بدون عقد وبدون شهادة ، وبكل أمانة ينفلون جميع التزاماتهم .

عندما تقع أفراح الزواج أو عندما تكون هناك أعياد عائلية ، فإن هؤلاء السكان يستلفون من بعضهم حلياً وجواهر ثمينة يفوق سعرها في بعض الأحيان عشرة أو خمسة عشر ألف فرنك . وكل شيء في هذه الظروف ، يرتكز على الثقة ولا يشترط أي دليل لإثبات الدائنية . ولقد يوثق بامرأة عجوز إذا كانت معروفة حتى ولو كانت فقيرة . وإننا لا نذكر أن مشكلاً قد وقع من جراء ذلك . ولقد جرت العادة كذلك أن بعض الأسر الغنية (التي تُفني معظمها من الجزائر نتيجة الحكم الفرنسي الجائر) تشتري جواهر وحلياً فاخرة تعار للأيتام عند زواجهم وللفقراء الذين لا يستطيعون الحصول عليها . وتعتبر الأسر هذا التصرف كعمل من الأعمال الخيرية ونحن نعتقد أن الخير لا يتم فقط بواسطة التصديق على الفقراء ، واعطاء فرنك أو ألف فرنك لشخص معين ، ولكن الخير يكون كذلك في كل ما يفرخ الجسار ويحدث في نفسه شعوراً بالغبطة والسرور . وهكذا ، فإن هذه الحلي مخصصة فقط للاستعمال المحلي كما فصلنا ذلك أعلاه ، ومن ثمة ، فإن قيمتها تشكل نوعاً من الرأسمال الجاهد .

إن الجزائريين مسلمون بالطبع ، ويخضعون للسلطة حتى ولو جارت . وإن المحنة التي سُلطها عليهم الفرنسيون لخير دليل على ذلك ، إذ ما أكثر الألغام التي تعرضوا لها من طرف السادة الحكام ابتداء من بورمون (I) نفسه إلى

(I) هو قائد الحملة الفرنسية . ولد سنة 1773 وتوفي سنة 1846 . كان من جزرالات الإمبراطورية ثم انضم إلى لويس الثامن عشر . هو الذي وقع على وثيقة الاستسلام وأول من نكث العهد الذي عقده مع الجزائريين باسم الأمة الفرنسية .

هذا الذي يحكم الجزائر اليوم (2) ، إلا أنه يجب أن نستثني الجنرال بارتوزين .

إن الجزائريين صريحون وصادقون ، لا يعرفون الخقد والبغضاء ، وهم كرماء في أعمالهم ، يكرمون الجيران كما لو كانوا أقرباء . وعلى الرغم من أن النساء عند المسلمين يحجب عن الرجال الأبعاد ، فإن الأسر التي تنتمي إلى الطبقة الفقيرة والتي لا تستطيع أن تسكن وحدها ، تجتمع في دار مشتركة على أن يخصص مسكن لكل عائلة ، ويبقى الرجال في معزل عن النساء .

إن الهندسة المعمارية الشرقية وتقسيم المنازل المحلي يختلفان كل الاختلاف عما تعود عليه أهل فرنسا . وعلى العموم ، فإن الأمن يسود المدينة ، وليس في استطاعة الرجال ، حتى ولو كانوا أشراً ، أن ينالوا من التقاليد لأن ذلك يكون بهتاناً وتدنيساً . وإذا كانت هذه هي الخاصية العامة ، فإن هناك بعض الاستثناءات ، وهناك ، أيضاً ، أشخاص لهم نوع من الفلسفة يخيل إليهم أنها متصلة بالدين ، ومفادها أنهم يبلرون أموالهم دون التفكير في المستقبل . غير أن الدين أو القانون لا يتدخلان في مثل هذه الأمور . وإنما يحث الدين على اكتساب المال الحلال وعلى عمل الخير بقلدر المستطاع . وبما أن عمل الخير لا يتأتى إلا بالثروة ، فإنه يحث ، بالتالي ، على النشاط والحركة .

ويوجد لدى الجزائريين من المحاسن ما يجلب الانتباه ، إنهم أوفياء لا يعرفون سرقة ولا خيانة ولا قتلاً ولا أي نوع من أنواع الجريمة . وعلى العموم فهم رجال شرف لا يختلون بمهودهم أبداً . وعلى الرغم من أنهم بنو وطني ،

(2) هو المارشال كلوزيل الذي سيجد القارئ عنه كلاماً وافياً في عدة فصول من الكتاب الثاني .

فلنني أعترف لهم بهذه الخلال الحميدة . وقد يتمكن الفرنسيون من مناقضتي ، لكنه لن يكون في وسعهم إلاّ الثناء على الجزائريين ، في حين أن الفرنسيين لم ينجزوا الجزء المثوي مما وعدوا به في بياناتهم ومعاهداتهم . إن معظم الفرنسيين لم يؤدوا حتى واجباتهم الاجتماعية - التي تسمى بالحقوق العمومية - إزاء أمثالهم من البشر وبصفتهم ينتمون إلى أمة متحضرة . وعندما وطأت أقدامهم أرض الجزائر ، نسي الفرنسيون جميع قواعد الأدب والأمانة ، بينما لم يطرأ أي تغيير على الجزائريين الذين استسلموا استسلاماً كلياً لمصيرهم البائس حتى أن السيد كلوزيل وصف هذا الاستسلام بالقدرية الشرقية .

إن الفرنسيين يتركون أبواب منازلهم مفتوحة طوال الليل ويجوون الشوارع في الظلام وبدون سلاح ، ومع ذلك لم نسمع أنهم تعرضوا لمكروه أو لشيء مما كان يقوم به ضدهم الإيطاليون والإسبانيون وغيرهم من سكان البلدان التي حملوا إليها الحرب . أما في الجزائر ، وعلى الرغم من هذا الظلم ، فإن الفرنسيين لا يشكون من السكان ظلماً ناتجاً عن التعصب أو الاختلاف في الدين ، لأن قوام ديننا أخلاق فاضلة فقط ، وأساس شريعتنا مبادئ حقوق الإنسان ، والجزائريون يطبقون هذه المبادئ .

أما من حيث الطاقات الفكرية ، فإن خيال الجزائريين خصب ، وأفكارهم منظمة . إنهم يدركون الأمور بكيفية عجيبة ولا يصعب عليهم أي عمل يدوي كان أم آلي ، أوله علاقة بالعبقريّة . انهم يصنعون مختلف الأقمشة الحريرية والمحازم ، يصدرونها إلى مملكة المغرب وتونس وطرابلس وكامل أنحاء آسيا . ولهم كذلك معامل تصنع الألبسة المطروزة بالحرير التي تنال إعجاب

الشرقيين وغيرهم من سكان الدول الأخرى . وبالنسبة لمعظم هذه الحرف ، فإن مدينة الجزائر هي التي تزود تونس وغيرها من المدن بالعمال .

إن الجزائريين يعتنون كذلك بالعلوم والآداب ، ففيهم الشعراء والأدباء وأساتذة التاريخ والمشرعون .

ومن حيث التكوين الجسدي ، فإن أجسام الجزائريين رشيقة ، ذلك أن امتزاج العنصر التركي بالعنصر الأندلسي قد أنتج عنصراً مختلطاً من النوع الرفيع . الأمر الذي جعلنا لا نجد في مدينة الجزائر رجالاً من ذوي العاهات أو المصابين بالأمراض المزمنة مثل النقرس وغيره ، كما لا نجد فيها تلك الأمراض الكريهة أو أمراض الجلد ، ومرض الزهري لم يعرف إلا حديثاً ويسمى « باريس » ويعالج بحمية من أصعب ما يكون ولكن المريض يشفى شفاء كاملاً في ظرف شهرين .

الفصل الثامن

حكومة الأتراك : تنظيمها وأصلها

في سنة 1530 ، عندما طرد الإسبان الأندلسيين من بلادهم بواسطة الاضطهاد ، أرسل الباب العالي خير الدين باشا لنجدة المسلمين ووضع تحت تصرفه أسطولاً صغيراً للقضاء على الأعمال الوحشية التي يتعرضون لها (I) .

فجاء هذا الرسول ، إذن ، إلى الساحل الإسباني لإنقاذ البؤساء المطاردين

(I) المعروف عند المؤرخين أن عروج وخير الدين وأخويهما كانوا يعملون في البحر لحسابهم الخاص ولكن إسلامهم المتين هو الذي حثهم عليهم الجهاد البحري لإنقاذ المسلمين المضطهدين في الأندلس ولافتكاك بعض الموانئ المغربية التي كانت قد سقطت في قبضة الإسبان . ولم يبدأ هؤلاء الأخوة أعمالهم سنة 1530 كما ذكر حمدان ، وإنما دخلوا إلى شرقي البحر الأبيض المتوسط مع مستهل القرن السادس عشر . ولو أن الباب هو الذي أرسلهم لكان قد زودهم بأسطول قوي ، ولكان يتتبع نشاطهم في كل مكان . ومعلوم أن أيأ من هذين الأمرين لم يتم .

من الأندلسيين وقيادتهم إلى جيجل وبجاية (2) وغيرهما من الأماكن المجاورة ، ولم يكن في الجزائر في ذلك الوقت سوى حصن فانال (3) الذي يشكل جزيرة كانت في قبضة الأوروبيين ، أما الباقي فهو عبارة عن قرية مسلمة . وقبل هذا الحادث بقليل . كان سلطان المغرب (4) قد بنى في هذا المكان مسجداً وكذلك صومعة للإعلان عن المواقيت ، كما شيد معهداً لتدريس العلوم وأحياء صحية مفصولة عن هذين المبنيين للراحة والاستجمام . والمسجد ما زال موجوداً إلى يومنا هذا ويسمى الجامع الكبير . والأسوار التي تحيط به قد بنيت في ذلك الحين . والقصبة أيضاً من الآثار القديمة . وكانت تتكون في ذلك الوقت من بضعة منازل تحيط بجامعها والباقي كان خلاء يعقد فيه البدو والبرابرة أسواقهم في أيام معينة من الأسبوع . وتحمل هذه الأماكن أسماء خاصة مثل : سوق الجمعة وهي السوق التي تعقد يوم الجمعة ، وسوق السمن وهي التي تباع فيها الزبدة . وسوق الكتان وهي خاصة بالأقمشة ، وما زالت هذه التسميات شائعة في مدينة الجزائر إلى يومنا الحالي .

أما عن حكومة الأتراك ، فإن هؤلاء السكان عندما رأوا أن هذا القائد المسلم جاء لنجدة الأندلسيين ولمنع الإسبانيين من أن يقتلوه أو يفرقوهم ،

(2) من المدن الساحلية في شرقي الإيالة . كانت الأولى ميناء تجارياً تحت تصرف شركة بكري وبوجناح ، والثانية مدينة يقلب عليها النشاط الصناعي . وقد احتلها الإسبان مدة وكان خلاصهما على يد الأخوة المذكورين .

(3) المقصود هنا هو البيون .

(4) هو يوسف بن تاشفين . وقد بنى المسجد الكبير سنة 460 هـ الموافق لأواسط

القرن II م .

استقبلوه بالعرفان والحماس وعينوا له القصة ليتخذها مقرأ (5). وبعد حين من ذلك تكونت في مدينة الجزائر حكومة قائمة على مبادئ معتدلة وتدعو إلى التفاهم لربط مصالح الأهالي بمصالح الأندلسيين . وقد ساعد وجود الأندلسيين في الجزائر مساعدة كبيرة على تنظيم الحكومة وعلى تقديم الحضارة وهكذا نشأت ثلاث سلطات : إحداهما مدنية ، والثانية ، قضائية ، والثالثة هي سلطة السيادة التنفيذية. وجعل على رأس السلطة المدنية شيخ المدينة يساعده مجلس بلدي . ومن اختصاصاته المحافظة على الأمن والنظافة والعمل على توفير كل ما من شأنه أن ينفع المدينة . كما أنه مكلف بجمع الضرائب ، وكانت في ذلك الوقت تفرض على الحوانيت فيدفع كل حانوت شهرياً حوالي ست «سوردي» من سوارد فرنسا (6). وضبطت غرامة على اليهود والأغنياء لحماية أشخاصهم وضممان معتقداتهم ، وهي غرامة تتناسب مع ثرواتهم وتتماشى مع قانون البلاد. ومن بين الأسر التي كانت تفر من إسبانيا عدد كبير من اليهود الذين فضلوا مدينة الجزائر على غيرها لما رأوا فيها من حكم معتدل وأمن على أشخاصهم .

ولتمكين الدولة من الحصول على مدخولات ، أنشئت ، أيضاً ، مصلحة للجمارك تفرض رسوماً على الصادرات والواردات ، وسأنتطرق فيما بعد إلى الكيفية التي كانت تدار بها هذه المدخولات . لكنني أشير إلى أن هذه الرسوم كانت قد حددت بخمسة في المائة بالنسبة للمسلمين والأوروبيين على السواء (7) .

(5) كان ذلك سنة 1516 .

(6) السوردي أو الصولدي هو جزء من الأجزاء العشرين التي تكون الفرنك الفرنسي .

(7) وتذكر المصادر أن اليهود كانوا يدفعون 12,5 % .

وكانت السلطة القضائية تشتمل على محكمتين ، ومكونة من قاضيين ومفتين أحدهما مالكي والآخر حنفي . سأشرح فيما بعد الفارق بين هاتين الوظيفتين ، الحنفي وهو الذي يتولى الرئاسة لأن الباب العالي هو الذي يعين رئيس الدولة ، والباب العالي حنفي ، وقصره يعتبر محكمة عليا . وتنظر هذه السلطة التشريعية في القضايا الإجرامية والتأديبية والجنائية ، والمدنية والحكومية ، وتنظر كذلك في الخلافات التي قد تقع بين رئيس الدولة وأي شخص آخر . وهذه المحاكم مستقلة عن السلطان ، وحكمها لا رجعة فيه .

وأخيراً سلطة السيادة ، التي بالإضافة إلى سهرها على تنفيذ الأحكام التي تصدرها السلطة القضائية ، والتشريعية ، وفقاً للمبادئ الأساسية التي يقوم عليها قانوننا ومؤسساتنا والتي تكاد تكون ، من سوء الحظ ، مجهولة في أوروبا . يعهد لها بجمع المدخولات العمومية وإدارتها التي تشتمل على الأغنياء بالمؤسسات والمحاكم ودفع أجور موظفي الدولة ، ومساعدة الفقراء والأرامل والأيتام الذين يتحتم على الدولة أن تسهر على مصالحهم بقطع النظر عن معتقداتهم ، وأخيراً المحافظة على الحصون والجسور والطرق والغابات ، الخ . . .

وإن باب الحكومة في قانوننا ليكلف العاهل بالسهر على العائدات العمومية المائية من الفلاحة كما سأشرح ذلك فيما بعد .

هكذا نشأت إيالة الجزائر . وشرح الأهالي إلى هذا العاهل طبائع الشعب البربري ، وبينوا له نقطة الضعف فيه ، أي أنهم نصحوه بأن يمنع المرابطين ثقة مطلقة لأن ذلك يمنع الجميع من أن يقفوا موقفاً معارضاً خاصة وأن هؤلاء السكان لن يترددوا في قتل أصدقائهم وحتى أقاربهم إذا علموا أنهم يحتقرون المرابطين ، أحياء كانوا أم أمواتاً . ومن ذلك الحين لم يكتف الأتراك بأن

فرضوا على أنفسهم احترام هؤلاء الرابطين ، وإنما صاروا يقدمون لهم أكبر الامتيازات وأمنها . وصارت أماكن سكناهم وضرائحهم ، بعد الموت ، مقدسة ، كما أن القانون لا يمس كل من بلغا إليها . كانت هذه من إحدى الوسائل التي استعملها الأتراك لاكتساب ود العرب والبربر . وهناك وسيلة أخرى استعملوها وتمثل في أنهم كانوا يظهرون أنفسهم في مظهر حماة الدين ، ويمتنعون عن القيام بكل ما هو منافي للقوانين ، ولا يحملون إلا بالقانون ولفائدة القانون . ثم هناك وسيلة ثالثة عرضية فحواها أن الأتراك يقيمون الصلاة بانتظام مما جعل البرابرة يتصورون أنهم مرابطون وصالحون . هذه هي الأسباب التي جعلت سكان الإيالة يخضعون طواعية للأتراك ويتقنون فيهم ثقة عمياء .

وإذا اعتزمت إحدى القبائل على تشويش الأمن العام ، فإن القبائل الأخرى تنضم إلى الأتراك لمحاربتها . وقلما يلجأ هؤلاء إلى قوتهم الحربية ، وإنما كانوا يفضلون الاعتدال لبلوغ الأهداف التي وضعوها لأنفسهم . والدليل على ذلك أنهم عندما يخضعون قبيلة عدوة ثم تستسلم تلك القبيلة ، يستقبلونها بحفاوة ويعيدون إليها ما أخذ منها أثناء الحرب ، وقد يعرضون لها الأشياء المتلفة حتى يتمكنوا من أن يجلبوها إليهم بعد الانتصار عليها . لقد كانوا يبرهنون لمثل هذه القبيلة على ثقتهم بها ويدفعونها إلى أن تعيش هادئة . وكانوا يقولون لها بأن الهجوم لم يكن موجهاً لإبادتها وإنما لتأديبها وإرجاعها إلى الصراط المستقيم . وعلى الرغم من أن هؤلاء البربر أميون ، فإن الاعتدال والإكرام يؤثران فيهم أكثر من القوة والعنف .

وإذا كانت بعض القبائل ، كما ذكرت ، تنضم أحياناً إلى الأتراك لإخضاع القبائل الثائرة ، فإن القبائل في ناحية يجاية وفي الجبال المجاورة

للمنطقة ، لم تكن ترضى بأن تأتي قبائل أخرى. إلى أرضها لتساعد الأتراك على إعادة الأمن . وإن كبار المنطقة ورؤساءها هم الذين يسهرون على أمن الطرقات الواقعة في المقاطعة ، ولكن ذلك لا يتم إلا إذا قام الشخص أو القافلة ، باتخاذ أحد المرابطين كمنقذ أو كحام ، ويزعمون أن ليس في استطاعتهم ، بدون رابط أن يؤمنوهم من الحوادث التي قد تقع في أثناء السفر . وجعلت الضرورة من هذا الإجراء شيئاً لا بد منه تبنه الأتراك بدورهم للمحافظة على أمن الطرق . وما زال هذا النظام ساري المفعول إلى يومنا . وإن الحاميات التركية نفسها عندما تتوجه إلى حصن بجاية ، سنوياً ، مضطرة إلى اصطحاب مرابط ، وإلا فلنأخذ طريق البحر .

ونتج عن هذه السياسة وهذا الاعتدال طاعة العرب والقبائل وأمن الطرقات . وهناك وسيلة أخرى استعملها الأتراك لاكتساب ثقة الأتالي . وتمثل في تطبيق العدالة والإنصاف اللذين يعتبران أساساً لجميع الحكومات التي تريد أن تكون عظمتها دائمة . وعندما يتم التأثير على العقول فإن الأجسام تتبع بالطبع ، وما الفتح الحقيقي إلا ذلك الذي يستهدف القلوب لا الأجساد .

وبما أنني أرغب صادقاً ، في إسماعاد وطني ، رأيت من واجبي أن أبلغ إلى الجنرال بواي هذه المبادئ لأبين له الوسائل التي ينبغي استعمالها لإخضاع قبائل الداخل . إذ أن هذه الطريقة هي التي مكنت الأتراك من السيطرة على هذه الرقعة الشاسعة التي تمتد من وجلة غرباً ، إلى الكاف في الجنوب التونسي . ولقد رجوته أن يقول للجنرال كلوزيل ألا يحيد عن هذه المبادئ إذا كانت فرنسا تنوي الاستفادة من الجزائر عن طريق نشر العلم والحضارة . وأوصيته بعدم اللجوء إلى وسائل العنف وباحترام المبادئ السائدة عند هؤلاء الأقوام

الذين ليس لهم المعرفة الكافية لاستبدال عاداتهم مقابل القوانين الأوروبية التي لن يخضعوا لها بالقوة أبداً . وإن تطبيق النظام القائم وحده هو الذي من شأنه أن يؤدي إلى نتائج مرضية .

ولكن التعطش إلى الثروة الذي يبدو أنه استهوى الفرنسيين في الجزائر قد نفى عنهم كل حذر وكل تعقل ، فأصبحوا صمّاً عمياً لا يبصرون !

إن هذا للنظام الذي ظل يطبق منذ زمن طويل لم يعد نظاماً نظرياً ، وإن الأحداث لتشهد بصحة ومثانة المبادئ القويمة التي نريد إثباتها . ولكنني أكرر بأن طمع الفرنسيين في الثروات قد وصل ، في الجزائر ، إلى درجة أنني عندما أُلجأ إلى الاستعارة أشبه هؤلاء الأوروبيين بعملاق يدفعه العطش ، وأشبه المدينة بمحوض صغير من الماء المالح ، كلما شرب العملاق ازداد عطشاً ، ويحف الحوض ولكن العطش لا يزول .

وللدلالة على ما يحدثه العدل والاعتدال من مفعول حسن ، أشير إلى أنه تم غزو تونس إحدى عشرة مرة ، منذ أن استقر الأتراك في الجزائر ، وفي جميع هذه الغزوات لم تنتهك ولو مرة واحدة مبادئ الحرب ومبادئ حقوق الإنسان ، ومعنى ذلك أن هذه الحروب لم تكن من أجل التنافس على السلطة . ولقد كان الغالب يدخل تونس مستصراً فيخلع الباي الحاكم وينصب الباي الجديد ثم يقيم معه معاهدات فيها منافع للجزائر وإذلال للمغلوبين . ولم يحاول الغالبون ، ولو مرة واحدة ، الاستيلاء على تونس ، أو الاستحواز على ممتلكات الأهالي التي ورثوها عن آباؤهم أو التي حصلوا عليها بمجهوداتهم الخاصة . لقد كانوا دائماً يحترمون الأملاك بما فيها من عقارات ومنقولات ولم يتسببوا ، أبداً ، في قلب النظام الاجتماعي وإنما كانوا يفادرون البلاد

بعد إبرام المعاهدات مباشرة كما يحدث ذلك عند الشعوب المتحضرة ، وليس
ثمة أمة تستعمل القوة لإزاء شعب ضعيف دون أن تنال من مبادئ حقوق
الإنسان .

ولتدعيم هذه الحجج ، أذكر بالأحداث الأخيرة التي أصبحت فيما بعد
من التاريخ ، والتي تتمثل في غزو الجزائريين للإيالة التونسية .

وأغنى أن يحقق قراء هذا الكتاب في صحة ما أوردته قبل أن يتهموني
بالتحيز ضد الفرنسيين وبالحدق عليهم . وأترك للمتورين والفلاسفة مهمة
المقارنة بين أعمال الحكام الفرنسيين وأعمال الحكام الأتراك ، وبين عنف
الأوليين واعتدال الآخرين . كما أترك لهم أن يحددوا أي الحكامين كانت لهم
أحسن المبادئ .

وإذا رجعنا إلى تفاصيل نظام حكم الأتراك ، وتنظيمات الأهالي المجاورين
لمدينة الجزائر مثل المتيجة وبئر سليمان ، الخ . . . أعيد إلى الأذهان بأن هؤلاء
السكان قد طلبوا من الباشا ، قائد الإيالة ، إن يعين لهم أحد الأتراك يجمع
الضرائب ويقيم بينهم شهيداً على تصرفاتهم وشاهداً على طاعتهم للباشا .
واستجابة لهذا الطلب تمّ تعيين قائد هذه المنطقة . ولأمور سياسية ، كان
الباشا يثق في السكان أكثر من ثقته بعامله ، وذلك أن السلطان أو الملك يستطيع
الاستغناء عن أي حاكم ولكنه لا يستطيع أن يكون على ما هو عليه إذا لم يكن
تحت امرته شعب يشكل أساس حكمه . وهكذا ، إذن ، كان الباشا مستعداً
لتأييد شبيه أكثر من استعداده لمساندة عامله ، اللهم إلاّ إذا حظي هذا الأخير
بشهادة جزء من السكان لتزكية سلوكه وتبرير مواقفه . هذه هي الطريقة التي
استعملها الأتراك لسيط نفوذهم ، ثم تمكنوا بالتدريج من تمدين القبائل

بواسطة إشراكهم في النشاط البحري حيث كانوا يحاربون بشجاعة وإقدام
موقنين بأنهم إنما يستشهدون في سبيل الدين .

ومن بين هؤلاء القبائل رجال أذكىاء يتكيفون مع الحياة البحرية . وهناك
أمثلة رائعة عن استعداداتهم الطبيعية (8) ، ومنهم من يستولون على السفينة بعد
رحلتهم الأولى وهم يجهلون مبادئ الملاحة الأولية ، وبما أنهم يعرفون
الجبال وقسمها معرفة جيدة ، فقد كانوا يتمكنون من التمييز ، بدقة بين
نقطة وأخرى . وعلى أثر الترقيات ، فلأنهم ينتقلون من دوجة نوفي إلى رتبة
ريان . وعندما يتخلون عن المهنة ، يأتون إلى مدينة الجزائر حيث يغيرون
أوضاعهم وأنماط حياتهم وينتقلون من البساطة إلى البذخ . وعندئذ ، يتركون
جبالهم إلى الأبد ليستقروا في المدينة . وسرعان ما يتبنون عادات المدنيين
وطبائعهم . وعندما يلاحظ العربي أو البدوي ، هذا التغيير في وضعه يزداد
ارتباطاً بالأتراك الذين تصبح مصالحهم هي نفس مصالحه .

وعلى أثر الغزو الفرنسي تعرض القبائل أو البدو إلى جميع أنواع الاضطهاد
فصاروا ولا زالوا يتمنون الحكم التركي الذي كان يمكنهم الاستفادة من
منافع كثيرة حرموا منها الآن ، ولكن كانت خيبتهم كبيرة عندما اطلعوا
على حقيقة محاسن الحضارة والحريّة الفرنسيّتين .

(8) لقد اشتهر من الجزائريين ريتاس كثيرون كانت لهم سمعة عالمية . ولكن أهمهم ،
والذي دوخ أساطيل أوروبا وأمريكا هو الرئيس حميدو الذي توفي سنة 1815 أثناء معركة
مع أحد الأساطيل الأمريكية . ولقد ترجمنا كتاباً خاصاً به ونشرناه في جريدة المجاهد
الأسبوعية (أنظر الأعداد الصادرة في شهري جوليت وأوت) .

الفصل التاسع

حَوْلَ كَيْفِيَةِ تَجْهِيزِ سُفُنِ الْقَرْصَنَةِ فِي الْجَزَائِرِ وَتَوْزِيعِ الْفَنَائِمِ ، وَحَوْلَ الشَّنْظِيمِ الْعَسْكَرِيِّ وَالِدِّيَّوَانِ

لقد نتجت فكرة تجهيز سفن القرصنة في الجزائر عن الرغبة في الانتقام . وكان لا بد أن تتمثل مثل هذه الاستعدادات بالعنف والضياع ضد الإسبان الذين تشكو منهم هذه الشعوب أكثر من أية أمة أجنبية أخرى . وفيما بعد سوف تستعمل هذه السفن في تصفية النزاعات الدينية .

كان الجزائريون يجهزون سفناً صغيرة تشبه سفن الإسبانين ، وكانوا يراقبون السواحل ويقومون بنوع من التجارة ، وفي نفس الوقت يحنجزون السفن الأسبانية ويقودونها إلى مدينة الجزائر . ولا تدوم هذه الجولات البحرية ، في العادة أكثر من خمسة أو ستة أيام . وعلى الرغم من أن قواد هذه السفن يجهلون فن الملاحة ، كما سبق أن ذكرنا ، فمنهم يعرفون أن الساحل الإسباني في الشمال والساحل الإفريقي في الجنوب ، وكانت قمم الجبال هي بوصلتهم التي تقودهم في سيرهم وتساعدهم على بلوغ الهدف .

(I) هي الصفة التي كان الغربيون يطلقونها على الجهاد البحري الذي كان يقوم به سكان شمال إفريقيا ضد القراصنة من الأوروبيين وغيرهم .

ونظراً للنظام البحري الذي وضعت الإيالة ، وتشجيعاً للطامحين على امتحان هذه الحرفة ، كان هؤلاء البحارة يستطيعون الارتقاء حتى إلى درجة أميرال ويشاركون في المجالس التي تنظر في أمور السلم أو الحرب مع هذه الأمة أو تلك . وليس للداي ، في هذا المجلس ، أكثر من حق في التصويت .

وكيل الخرج هي التسمية التي تطلق على من يتولى وزارة البحرية . وتنحصر اختصاصاته في الجزائر ، في كونه محاسباً للعتاد الحربي في الإيالة ، ومراقباً لأشغال الرسالة .

وعندما تجلب الغنائم إلى مدينة الجزائر ، تباع للسكان وتوزع قيمتها حيناً على ذوي الحقوق . وتأخذ الخزينة العامة الخمس كنصيب لها ووفقاً لما نص عليه شريعتنا ، على أن هذا الخمس لم يكن تاماً أبداً لأن الأشياء الثمينة كانت تؤخذ قبل الإطلاع على الغنائم . وفي كثير من الأحيان تعلم الحكومة بذلك ولكنها تغض الطرف حتى لا تفشل هؤلاء البؤساء الذين يعرضون أنفسهم للموت إما تعصباً للدين وإما رغبة في الحصول على الغنيمة .

وكانت حكومة الأتراك تعلم كل العلم أنها إذ تشجع السكان في إنجاز مشاريعهم هذه ، وتنفقهم في طريق الثروة ، إنما تعمل على إثراء نفسها . وعلى الرغم من أن العائلات كانت ضئيلة عندما تأسست الإيالة ، فلما كانت تدرك بأنها إنما تعمل للمستقبل ، ولما سوف تتمكن فيما بعد من أن تنجي ، بطريقة شرعية ، ثمار صناعتها وسياستها مثل رسوم الجمارك وغيرها .

وعندما تأسست الإيالة كانت الميليشيا تتكون من الأتراك وأبنائهم من النساء العربيات ، لأنهم كانوا يتزوجون من الأهالي .

ويتسم الأتراك بالقناعة والشرف والكرم . وبمجرد ما يحصل أحدهم على بعض المائت يسافر إلى تركيا مسقط رأسه (2) ، فيأخذ معه ألبسة فاخرة ليظهر في مظهر الرخاء والترف أمام بني وطنه وليعجبهم ، إذ ربما هو ابن لأحد العمال أو المزارعين . وعندما يعود إلى الجزائر حيث عائلته ، يصطحب معه جماعة من سكان بلاده يقدمهم إلى الدفتر ، وتحت ضمانته يقبلون في صفوف الميليشيا ثم يتولى بنفسه تدريبهم على الجندي وتعليمهم واجباتهم الجديدة . ويخبرهم بأن في استطاعتهم الارتقاء ، يوماً ، إلى أعلى مرتبة ، وفي إمكانهم ، على غرارهِ وبعد أتعاب الحرب ، أن يتمتعوا براحة طيبة ، ويعيشوا في هناء ورخاء في أوساط المجتمع ، وأن يتزوجوا بدورهم من الأهالي

ومن النادر أن تجد سارقاً أو قاتلاً من بين هؤلاء الجنود . وقد كانوا شديدي الحرص على احترام عادات البلاد ليحببوا أنفسهم إلى سكان الإيالة . ومن كانت لهم بعض المساوئ ، كانوا يعملون على إصلاحها أو يخفونها بدقة للأسباب التي ذكرتها ولأن مستقبلهم موقوف على حسن سيرتهم .

وبعد المشاركة في إحدى الحملات ، يستطيع الجندي التركي أن ينخرط في صفوف البحرية تدفعه إلى ذلك مصلحته الشخصية وتساوئه تربيته والهدف في بعض الأحيان . وتشتمل هذه المهنة على إمكانيات كبيرة للهلاك ولاكتساب الثروات . فبعض البحارة يموتون أو يستعبدون ، وبعضهم يحصلون على الثروة والرتب . وفي الفصل الخاص بالفن العسكري سأذكر الدرجات التي يمكن لهم أن يبلغوها .

(2) لم تكن تركيا هي مسقط رأس جميع الانكشاريين ، وإنما استعمل حمدان ذلك تجاوراً فقط .

وفي وقت من الأوقات ، رأى الداي نفسه مضطراً إلى بناء مسكن يقيم فيه خارج القصبه ، وتشيد حصون لحماية المدينة ، وثكنات للجيش . وحتمت عليه مثل هذه المصاريف ألاّ يمنح الجندي الواحد سوى أجر مقداره ١٨ فرنكاً عن كل شهرين وأربع خبزات يومياً ، وللإقتصاد ، كان هذا الخبز يحتوي على ثلثين من القمح وثلث من الشعير .

ويعطى للجندي ، عند انخراطه في السلك العسكري ، بذلة عادية وبندقية وطقان وقليل من البارود وقطعة من الرصاص يذبيها ويقولها بنفسه ، وبما أن الغنائم كانت معتبرة في ذلك الحين ، فإن هذه المون كافية بالنسبة للجندي الذي يستعد للمشاركة في حملة من الحملات .

أما الأجناد المتزوجون ، فإنهم يتنازلون عن الخبز عندما يرون أن خزينة الإيالة مثقلة بالديون ، ولما تجمع الحكومة ، فيما بعد ، مبالغ كافية تمنح لكل واحد منهم ، اعتزافاً له بالجميل ، صاعاً قمحا (3) أي ما يعادل حوالي مئة رطل في فرنسا .

يسكن الجنود أو الميليشيا التركية ، في الثكنات تحت إشراف قوادهم ، كل غرفة تحمل رقماً ، ويسير كل كتيبة ثلاثة قواد ، اسم الأول بولكباشي والثاني أوضاباشي والثالث باش يولداش . وعندما يتغيب أحدهم يستخلفه الآخر ويتولى تطبيق الانضباط . وكلما نظمت حملة أو وقع تغيير حامية تحم على بولكباشي أن يقود الكتيبة صعبة نأثبه . ولهذين القالدين فقط حق ركوب الخيل حتى ولو كانت المسافة قصيرة ، كما أنهما يستطيعان اصطحاب الشواش . ولؤلؤ الجنود الأتراك قوانين عسكرية لا يتجاوزونها أبداً ،

(3) هذا غير صحيح لأن الصاع يزن حوالي قنطار وثلثين كيلوغراماً .

ولا يحظى أحدهم بشيء ، ولا يتقدم في الرتبة إلا بعد مرور الوقت الذي يحدده القانون . ولكي يصبح الجندي قائداً يجب أن يقضي على الأقل ، عامين أو ثلاث سنوات في الخدمة العسكرية ويجب أن يمر بجميع الدرجات .

والقواد برتبة بولكباشي هم الذين يكونون الديوان . وعددهم في هذه الحياة ستون ، يجتمعون صباح كل يوم في محل مخصص لمداولتهم للاطلاع على الأعمال الإدارية أي لمراقبة الحكومة بمقتضى السلطات المخولة لهم بصفتهم حياة عليا تتكون من قواد الجيش .

ولا يحصل الداي أو الباشا على مرثيته إلا منهم وبحضورهم ، وحتى عندما يبحث الباب العالي بالقفطان والفرمان (4) ، فإنهم هم الذين يقومون بعملية الانتخاب ويعينون العاهل لمبعوث الباب الذي يحمل تعيين من تم تعيينه بعد .

وعند كل يرم (5) تنظم الاحتفالات كالآتي : يمدد الاجتماع في قاعة ويتصبب الداي الحاكم وسط المجتمعين ثم تقترح إعادة انتخابه ، وبمجرد ما يتم ذلك تسلم له الإجازة ، وإذا ما وجد اختلاف في الآراء يعين آخر في مكانه .

ولا يمكن أن يصبح الإنسان عضواً في الديوان إلا إذا توفرت فيه الشروط التي ينص عليها القانون ، يجب أن يبرهن عن خبرة ومقدرة ، وأن يكون عمل في الجيوش البرية والبحرية ، ولذلك فإن جميع أعضاء الديوان تقريباً يكونون متقدمين في السن ومتزوجين من الأهالي . ويسمى رئيس

(4) كلمة فارسية تعني عهد السلطان للولاية . ويتضمن الفرمان عادة الأوامر والتوجيهات

(5) عيد الفطر .

الديوان آغا العسكر ، ويحمل سيفاً ونوعاً من القرباب يضع فيه قوانين الإيالة . ولا يحق للأغا أبداً أن يتخلل عن هذا القرباب . كما أنه يركب حصاناً مديحاً ويتولى ، صباح كل يوم ، رئاسة الديوان كما ذكرنا ذلك . ولا تدفع أجور الجنود إلا بمحضر هذا الرئيس . لأن خزينة الدولة ، في الجزائر ، لا تفتح إلا بمحضر الحوجه أو موثق الدولة وبمحضر لجنة خاصة يكون لكل عضو فيها مفتاح وكلما استدعي جاء لتقييد المدخولات والمخروجات . وإن الداي نفسه لا يستطيع التصرف في خزينة الأمة . وإنما يأتي كالبهندي البسيط ليتقاضى مرتبه أو مخصصات الملك .

ومن اختصاصات رئيس الديوان تطبيق العدالة ، في منزله ، على الأتراك الذين يغفلون بقواعد الانضباط أو يتعدون على القوانين ، كما أنه يقوم بنفس المهمة بالنسبة للكراغلة الذين هم أبناء الأتراك أو من سلالتهم .

وفي القضايا الخاصة بالعادات والقوانين العسكرية ، يتوجه رؤساء المحاكم الجنائية والتأديبية إلى القاضي لمعرفة رأيه ولتطبيق القوانين . وإذا كانت هناك عقوبة ، فإن رئيس الديوان هو الذي يأمر بتنفيذها في مقر الديوان حتى تعطى لقرار القاضي صبغة رسمية .

لا يمكن أن يدخل الأتراك أو من كان من نسلهم إلى أي سجن آخر غير سجن الديوان .

وفي حالات مختلفة ، يلجأ القاضي نفسه إلى الديوان لتنفيذ الأحكام لأن العسكريين لا يحاكمون أبداً بواسطة القوانين المدنية وإنما بواسطة القوانين العسكرية .

لا تدوم مهمة رئيس الديوان سوى شهرين ، ويتولى الرئاسة كل عضو

بالتناوب وحسب الأقدمية ، وإذا وجد خلاف يكون الفصل بأغلبية الأصوات .
وعندما تزول الرئاسة إلى أحد أعضاء الديوان ، يضاعف مرتبه . والديوان
هو الذي يقرر في كل ما له علاقة بسياسة الإيالة الخارجية أو الداخلية . وإذا
حدث أي اضطراب في الداخل كتمرد قبيلة أو انقطاع طريق ، فإن أعضاء
الديوان يحققون في أمره ثم يعطون رأيهم فيما يخص الوسائل التي يجب استعمالها
لإعادة الأمن .

وكما هو الشأن في فرنسا ، فإن القانون لا يعترف بالعهر . وإنما ترجع
إباحته إلى عادات البلاد وأمن المجتمع ، والديوان ، دون القاضي ، هو الذي
ينظر في جميع الخلافات التي تحدث في هذا الميدان .

وبما أن أبناء الأتراك ومن كان من نسلهم قد قبلوا ، في وقت من الأوقات
لعضوية الديوان ، فإنني سأوضح فيما بعد الأسباب التي أدت إلى حرمانهم
من التمتع بهذه العضوية .

الفصل العاشر

حوّل الدائم وحكومته ومختلف العادات

ليس للداي سلطة غير الأمر بتطبيق القوانين المدنية والعسكرية ، والإشراف على حصون المدينة وتنظيم الجيوش ومراسلة القبائل المختلفة قصد تهدئة والمحافظة على الأمن ، وقصد حماية تلك القبائل من سائر أنواع الظلم وذلك بأن يبرز لها منافع السلم ومساوىء الحرب .

إن المالية العمومية والتنظيم الضروري لإدارتها ، وكذلك تعيين الوزراء وغيرهم من أعضاء حاشيته تدخل أيضاً في جملة اختصاصاته . ومن خلال النظام السياسي الذي وضعوه في الجزائر ، يحاول الأتراك ، بقدر المستطاع ، أن يتحالفوا مع البرابرة وأن يشجعوا الصناعة بجميع أنواعها . ولكل حرفة أمين أو مفتش ، ويسمى رئيس كل هؤلاء الأمناء شيخ البلدة أو والي المدينة . زيادة على ذلك يوجد في كل مدينة حاكم ثان يختار من بين الأسر الشريفة التي تنتمي إلى أحد المرابطين . ويسمى هذا الشخص نقيب الأشراف . وواجبه كلما حدث أمر هام ، أن يجمع في بيته شيخ البلدة وسائر الأمناء التابعين له للبحث عن التدابير التي يجب اتخاذها .

فهؤلاء هم الذين ينظمون شؤون المدينة ، ويحافظون على الأمن في أوساط مختلف الطبقات العاملة ، ويراقبون الشرطة المحلية ، والنظافة والقنوات والمؤسسات العمومية والجمعيات الخيرية والمستشفيات ، الخ . . . وأخيراً ، فإليهم تلجأ السلطة في جميع الحالات . ومن قوانينهم أنه لا ينبغي أن يساهم جميع المواطنين ، بدون استثناء ، في تكوين الجيش ، لأن بعضهم يشتغل بصناعته أو يسهر على رعاية أسرته ، ومثل هؤلاء لا يطلب منهم القيام بما قد يعرقل أعمالهم أو يعدهم عن واجباتهم ، وإنما يكونون ، فقط ، أجناداً منطوعين لحماية مناطقهم الخاصة إذا كانت هناك تعبئة عامة ، ومعنى ذلك أنهم ينخرطون في جيش لا يتقاضى أجراً ويمكن مقارنته بالحرس الوطني في فرنسا (X) .

وعندما وضع هذا التنظيم للإيالة ، كان الأتراك يريدون أن يساهم مواطنو الجزائر في الديوان الذي تكلمت عنه أعلاه ، خير أن هؤلاء المواطنين رفضوا حتى لا يكونوا مسؤولين أمام الحكومة ، وقالوا بأنهم يفضلون أن يكونوا وسطاء بين الحاكم وسكان الداخل ، ومراقبين لما يقوم به الحاكم أو أعوانه من أعمال ، أملاً منهم بأن سلوكهم هذا يجعل الأتراك يزدادون ارتباطاً بالإيالة ويرتاحون للثقة التي يراونها إليهم . أما الذين يصعبون إلى المسؤوليات ، فلأنهم كانوا يقلصون القوانين ولا يخالفونها أبداً . وبما أن هناك جنوداً من الميليشيا يرتبطون بالأهالي عن طريق الزواج ويندمجون في المجتمع قبل باوغيهم درجة بولكباشي ، فإن الواجب يحتم عليهم قبل ارتقائهم إلى

(X) نوع من الميليشيا ، أنشئ سنة 1789 من الطبقة البورجوازية والتي في عهد العودة ، ليظهر للوجود مرة أخرى سنة 1848 تحت اسم الحرس الوطني المتجول .

الديوان أن يقضوا عدة سنوات في دراسة الشؤون الإدارية والحكومية .
واللحصول على هذه العلوم الجديدة الضرورية لعضوية الديوان ، يتمتعون عند
شيخ البلدة ونقيب الأشراف ، ذلك أن الديوان هو المجلس الأعلى للحكومة
التركية المكلف بمراقبة جميع أعمالها .

وبواسطة هذا التنظيم الحكومي ، تمكن الأتراك من بسط نفوذهم في
إفريقيا ، لأن غالبية سكان الإيالة ، كما أشرنا الى ذلك أعلاه ، مكونون من
الأندلسيين ومن القبائل أو البرابرة الذين تمدنوا وغيروا أوضاعهم . وبتبنيهم
الطرق الجديدة لحياة المدينة حدث التقارب بينهم وساعدت على ذلك مصالح
الأمرة والمصالح الصناعية والتجارية .

وتأكدت الحكومة التركية من أن قوة القبائل لا تقهر ، وأيقنت أنها لن
تتمكن من إخضاعهم بحد السيف وإنما باللطافة والتسامح والإرادة الحسنة التي
أسفرت عن نتائج مرضية تتمثل في بقاء الحكومة مدة تزيد على ثلاثة قرون .

وللباشا أو الداى نائب يحتفظ بمفتاح الخزينة ويسمى الكاهية . ومن جملة
أعضاء الحكومة يوجد اثنان أحدهما يسمى وكيل الحرج ، وثانيهما يسمى
الخرناجي ومن بين هؤلاء الأشخاص يختار الداى ، لأن الحكم ، في الجزائر ،
ليس وراثياً ، إذ أن الاستحقاق الشخصي لا ينتقل إلى الأطفال . وبعبارة
أوضح نستطيع القول بأن الجزائريين اختاروا مبادئ الحكم الجمهوري (2) ،
ورئيس الجمهورية هو الداى .

(2) هناك من يقول ان الجزائريين كانت جمهورية عسكرية ، ويذكر آخرون أنها كانت
مملكة . والواقع أنها لم تكن هذه ولا تلك ، وإنما كانت تحكم بنظام خاص لم يعرف في أي
بلد آخر ، أهم ميزاته أنه كان يجمع بين الصبغة المدنية والعسكرية .

وبعد الوظائف التي ذكرناها تأتي مرتبة الآغا وهي درجة سامية ، اذ هو الذي يقود وحدات الفرسان التي تتكون في معظمها من العرب أو القبائل . وعليه يتحتم على الآغا أن يتكلم العربية ليتمكن من إعطاء الأوامر وتسيير جيوشه .

وبعد الآغا يأتي خوجة الخيل الذي يشرف على الأملاك الوطنية ، وتدخل في اختصاصاته ، أيضاً ، إدارة الحارات (3) والتصرف في الجمال المخصصة لنقل الجيوش والعتاد الحربي . وهو الذي يأمر بتوزيع هذه الخيول والجمال على مختلف قبائل الإيالة التي تتولى الاعتناء بها والمحافظة عليها ، وذلك بعد أن تُدسَّخ بخاتم الدولة . وإذا وقع حادث يؤتى بقطعة الجلد التي تحمل العلامة للتدليل على موت الحيوان . ونتيجة لهذه الطريقة في العمل يحظى الحيوان بعناية وتمنح الثقة لتلك القبائل التي تجدد منفعة في استعمال الحيوانات لقضاء حاجتها . وبالإضافة إلى ذلك تعمل هذه الوسيلة على تمكين الرباط بين القبائل ومصالح الحكومة . ويحدث في بعض الأحيان أن رعاة الخيل والجمال هؤلاء يحتاجون إلى دراهم فيبيعون صغارها . عندئذ يحدد خوجة الخيل سعر المبيعات بأثمان تكون دائماً معتدلة ، ولتسهيل الأمور على هؤلاء الرعاة ، غالباً ما يعطيهم أجلاً للدفع يتراوح ما بين عام وعامين . وكثيراً ما يقدر الحيوان المباع بثمن أقل من سعره الحقيقي ، وذلك لشدهم إلى الدولة وللحصول على طاعتهم طوعاً ، وإقناعهم بعدل الحكومة لإزاءهم وبالعباية التي توليها لإسعادهم .

(3) الحارات جمع حارة وهي الزقاق تسكنه ، عادة ، عائلة واحدة أو عدة أسر من سلالة واحدة .

وهناك شخص آخر هو رئيس الكتبة ويسمى المقطعي (4) وهو الذي يشرف على سجل محاسبات الدولة وسجل القوانين العسكرية الذي يحتوي على الأسماء والألقاب والدرجات المختلفة بالنسبة لكل فرد . ويوجد تحت تصرف هذا الكاتب الأول ثلاثة أشخاص مكلفين بالسجلات . يسهر أحدهم على المحاسبات الخاصة بالعسكريين وعلى كل ما يتعلق بهم ، ويقوم الثاني بالمحاسبات العامة فيما يخص الدولة ، أما الثالث فيعني بسجلات الجمارك . وتنقل هذه السجلات الثلاثة على سجل رئيسي كبير ، لأن كل واحد منها يعتبر كمخبر دفر يقيد فيه بالضبط كل ما يجري لتجنب سائر أنواع الخطأ والنيان .

إن مهمة المقطعي أو الكاتب الأول لفي غاية من الأهمية . وتعتبر كمهنة شيخ الإسلام الذي هو المفتي الحنفي . ومن الواجب على هذا الكاتب الأول ، الذي يستشير به العاهل في جميع الحالات ، أن يعرف القوانين الأساسية والتاريخ وحقوق الإنسان حتى لا يقوم بأي عمل ضد القانون ، كما أنه يحظى بلقب أفندي الذي لا يلقب به سوى الداي والمفتي . وعلى الرغم من أن رتبة الخزانجي مباوية لدرجات هؤلاء الأشخاص الثلاثة ، فإنه لا يتمتع بهذا اللقب . وعندما يحضر أحد هذه الشخصيات الأربع يتحتم الوقوف على جميع القادة العسكريين الذين يكونون الديوان . وإذا كان الخزانجي يحظى من العامة بنوع من الاحترام فلأنه من الممكن أن يصبح دايًا في يوم من الأيام ، ولذلك يتوددون إليه مسبقاً . إن الحكومة التركية لم تتمكن أبداً من تأسيس إمبراطوريتها في إفريقيا إلا

(4) ويقال له كذلك المكتوي . وقد كان والد حمدان مكتوبياً .

بالعدل وبتطبيق النظام السياسي الذي انتهت الآن من وصفه . ومكانتي في مدينة الجزائر هي التي مكنتني من أن أقدم هذه التفاصيل بدقة . لقد كان والذي مشرعاً وأستاذاً بالقانون ، كما أنه اشتغل مقطعي أو كاتباً أول ، وهو الذي علمني نظام الحكم التركي ، وفي عهده دوست شريعتنا ثم اشتغلت بالتدريس بعد وفاته .

وفي أثناء رحلتي إلى أوروبا ، درست مبادئ الحرية الأوروبية التي تشكل أساس الحكم التمثيلي والجمهوري ، ووجدت أن هذه المبادئ كانت تشبه المبادئ الأساسية لشريعتنا إذا استثنينا فارقاً بسيطاً في التطبيق ، وعليه فكل من يدرك الشريعتين إدراكاً صحيحاً يستطيع الموافقة بينهما واعتقد أنه لن يتمكن من إنكار هذه الحقيقة . وهناك أحد المبادئ الأساسية في شريعتنا يقول « ترتب عن الزمن وحاجات الإنسان ظروف لم تتوقعها القوانين ، ولذلك يجب على المشرع أن يتفهم الضرورات ويعمل على إيجاد كيفية حكيمة لتطبيق هذه القوانين » . لكن من سوء الحظ أن سائر الملوك يجهلون مبادئ هذه القوانين ، مما يجعل أوروبا تنتقد تشريع الشرق .

ولو أن السادة المتحررين كانوا يعرفون مبادئ قوانيننا معرفة جيدة ويدركون مدى الحرية التي تتم بها مؤسساتنا ، لكان من الممكن أن نجد فيهم « ساعدين بدلاً من أعداء كما هو الشأن الآن .

سأقدم ، فيما بعد بسطة عن شريعتنا وعن قواعدها الأساسية . وعلى الرغم من أنه ليس من اختصاص هذا الكتاب أن يعالج هذه المبادئ ، وما دمت أتكلم عن تاريخ الإيالة ، ونظام حكومة الأتراك وعن السياسة التي سلكوها للبقاء مدة طويلة ، فإني أرى من المستحسن بل من الضروري أن

أعطي فكرة عن القوانين الشرقية . وأقول شرعية لأن هذه القوانين هي التي تسير شؤون جميع البلدان الإسلامية أو 130 مليوناً من المسلمين الذين يسكنون مختلف أنحاء المعمورة .

وللرجوع إلى حكومة الأتراك ، أقول بأن الإدارة لا نطاق إلا إذا كانت عادلة . ولذلك فبمجرد ما تعلن مقاطعة عن خضوعها للقوانين ، كانت الحكومة التركية ترسل حماية تقي سكانها من كل هجوم ، ويقود الحماية ضابط برتبة بولكباشي يساعده أوضاباشي وباش يولدش . وهؤلاء الثلاثة يمثلون الديوان ، ويعتبرون قادة عسكريين وإداريين في نفس الوقت وعليهم أن يتفادوا مع رؤساء المقاطعة لحماية المصالح المحلية والقيام بمهام الشرطة وبتنفيذ القوانين وبالمحافظة على الفلاحة والتجارة ، الخ . . . وتغير الحماية كل سنة . وكان الشيوخ الذين مارسوا هذه الوظائف يرددون ، دائماً ، للشبان ولخلفائهم : «إننا أجنب ، لم نخضع هذا الشعب ولم نمتلك البلد لا بالقوة ولا بحد السيف . إننا لم نصبح سادة إلا بالاعتدال واللطف !! وفي بلادنا لم تكن رجال دولة ، وإنما حصلنا على ألقابنا ومراتبنا في هذه الأرض ، فهذه البلاد إذن وطن لنا . وأن واجبنا ومصلحتنا تتطلب منا أن نعمل على إسعاد هؤلاء السكان كما لو كنا نعمل من أجل أنفسنا .

ومن واجبات الداي كذلك العمل على معرفة مشاعر سكان الإيالة ، وسلوك ولايته ، وعلى كيفية تطبيق العدالة . وأداء هذا الواجب يكون على الدوام موضوع المناقشة بين الديوان والداي كلما دعي المجلس للانعقاد . وأن ارتباط المصالح والزواج من نساء جزائريات قد جعل من اختصاص أعضاء الديوان أن يتداولوا فيما يخص منافع البلاد وما يجري في الإدارة . وكانت

مجهوداتهم تهدف ، دائماً ، إلى تحقيق السعادة والأمن العموميين . وباختصار لقد كانوا يتصرفون كأرباب أسر تجاه أبنائهم .

هذا، وإن الأتراك - وأكرر ذلك - يبدؤون جنوداً، فيعرضون أنفسهم إلى جميع المخاطر قصد الحصول على الثروة وعلى المسؤوليات . وعندما يتقدمون في السن ينجحون إلى الراحة ويتقاضون تعويضات تتناسب مع خدماتهم ، وعندئذ ، فقط ، يبلغون المراتب العليا ، ويستطيعون الارتقاء حتى إلى درجة داي .

وعندما يموت الباشا ، يجتمع الديوان كما تنص على ذلك القوانين ، ومن توفرت فيه جميع الشروط الضرورية يتم انتخابه ويعلن باشا ، ثم يجلس حيناً على أريكة الملك بعد أن يكون قد ارتدى قفطان الداى الراحل . بعد ذلك يؤدي اليمين القانونية ويحتفل بتعيينه . وعندما تنتهي عملية التنصيب يكلف أحد الأشخاص بالذهاب إلى الباب العالي للإخبار عن وفاة الباشا القديم وقيام الديوان بانتخاب الحاكم الجديد ، وبهذه المناسبة تكتب رسالة تحمل إمضاء وخاتم كل واحد من أعضاء الديوان وخاصة القاضي والمفتي ونقيب الأشراف . ويوافق أعيان المدينة كذلك ، على هذا الاختيار ويشهدون على مقدرة الشخص المعين .

ويسمى الرسول الذي يحمل هذه الرسالة آغا الهدية ، إذ انه يحمل معه هدية مكونة من بضعة جلود الأسود والنمرة ، وعدد من الأغصان الصوفية التي تصنع في الجزائر . والغرض الرئيسي من الهدية ، التي لا تتجاوز قيمتها 5000 فرنك ، هو تقديم نموذج عن منتوجات الإيالة الصناعية . وتوزع على السلطان وأعضاء حاشيته الذين هم القبطان باشا والوزير ، الخ . . .

ويكلف هذا الرسول بأن يطلب شفاهياً ، من الباب العالي أن يعطف على الإيالة ثم يطلعه على بؤس البلاد وقلة الأموال اللازمة لإقامة الحصون ، ويطلب المساعدة والحماية . عندئذ يقدم الباب العالي للإيالة عتاداً حربياً مثل المدافع والبارود والحباله ، وأخشاب البناء إلى غير ذلك ، وفي بعض الأحيان يزودها ببواخر جاهزة .

وإذا استمر عهد الباشا أو الداي حوالي عشرين سنة ، فإن الأمر ينتهي عادة ، إلى تجديد البعثة للحصول على قنطان جديد أو فرمان . وظلت هذه التقاليد سارية المفعول إلى سنة 1770 .

وفي عهد محمد باشا ، سنة 1784 ، (كنت صغيراً آنذاك) صاحبت خالي الذي سافر إلى القسطنطينية مع آغا الهدية في ذلك الوقت . ويقال أن الهدية ، في تلك الفترة ، كانت معتبرة ، ومع ذلك فأنا متأكد من أن قيمتها لم تتجاوز 6000 فرنك ..

وجاءت هذه السفارة بعد حملة الإسبانيين المشهورة عندما كانت الجزائر في حاجة إلى بعض العتاد الحربي ، وبالفعل ، فإن الباب العالي قد زودها منه بثلاث حملات كاملة .

وبعد وفاة محمد باشا الذي خلفه مصطفى باشا (5) ، كانت الهدية التي أرسلت إلى الباب العالي أكثر اعتباراً ، إذ تتضمن الماس والمجوهرات وأشياء

(5) غير صحيح ، لأن الذي تولى بعد محمد باشا هو بابا حسن خال مصطفى باشا ، وقد حكم من سنة 1792 إلى سنة 1798 . وعندما توفي ، نتيجة دمل في رجله ، خلفه مصطفى .

أخرى مماثلة بما يتقبله الدايات من البلدان الأوروبية (6) . ويمكن تقييم هذه الهدية بمبلغ مليون من الفرنكات . وبالمقابل كانت عطية الباب أكثر أهمية إذ اشتملت حتى على بعض الحرفاات . هذه هي المساعدة التي تقدمها الجزائر إلى الباب ، وهذا هو المقابل الذي تتلقاه بنورها من السلطان كإعانة للمحافظة على الإيالة التي تعد من جملة أملاكه .

ووفقاً لأحد قوانين حكومة الأتراك - عهدذاك - تأسست في الإيالة ، حياة يسمى رئيسها التركي بيت المالبجي ، يساعد هذا الرئيس قاضي وموثقان وكاتباً ضبط ومسجلون .

تتولى هذه الهيئة مراقبة تركات جميع الأشخاص الذين يتوفون . والأولياء هم الذين يقدمون إليها المعلومات . ولا يمكن أن يقبر الميت إلاّ بأمر من رئيس هذه الهيئة التي تعين حقوق الورثة ، وإذا كانوا متغيين ، فإن القاضي الخاص يقوم ، صحبة أحد المسؤولين السامين ، بتعيين وكيل يمثلهم ، وأوصياء بالنسبة للقاصرين . وإذا كانت هناك وصية ما ينفذ محتواها بعد تسجيلها والتأكد من صحتها . عندئذ يؤذن بحمل الميت ، في نعش ، إلى مثواه الأخير ، ويذهب الموثقان إلى محل سكناه يقيدان جميع الأشياء الموجودة فيه . وتنقل الأشياء الثمينة ، التي يخشى أن تضيع ، إلى مأمن حتى يجتمع الورثة أو غيرهم من ذوي الحقوق . وإذا كان الميت أجنبياً ، مجهولاً أو كان أهله متغيين ، فإن هذه الهيئة تمثلهم ، فتبيع التركة بالمراد العلي وتحتفظ بالقيمة كوديعة مقدسة

(6) كانت جميع الدول الأوروبية وأمريكية تلغح إتاحة سنوية للإيالة وكذلك كثير من الهدايا الثمينة . وذلك لتحمي أساطيلها من هجمات الجزائريين .

بعد أن نخضم منها المصاريف التي يجب أن لا تتجاوز سبعة في المائة لتدفع
أجور كاتب الضبط والموثق ومصاريف البيع العلني الخ . . . ويودع المبلغ
في صندوق عمومي ، ويسجل مقداره في ثلاثة سجلات ، ولا يستطيع أحد
أن يتصرف فيه إلا بإذن شرعي .

وإذا لم يترك الشخص المتوفى وارثاً حاضراً أو غائباً، تحسم المصاريف
المرتبة عن دفنه وتدفع ديونه إن كانت عليه ديون ، ثم تنفذ رغباته الأخيرة
إذا كانت لا تتجاوز المقدار الذي ينص عليه الشرع . لأنه لا يملك التصرف
إلا في ثلث أملاكه ، هذا حتى ولو ترك أقرباء. أما الثلثان الباقيان فيضمان إلى
الأملاك الوطنية . وتستعمل الأموال التي يحصل عليها هذا الصندوق العمومي
في دفن الفقراء والأجانب الذين لا مأوى لهم ، وفي مساعدة المعوزين ودفع
أجور الأساتذة العموميين الذين ينفقون أوقاتهم في تنوير المجتمع وتزويده
بالمعرفة . كما أنها تستعمل لمساعدة المؤلفين والطلبة المعتمدين ، الخ . . .

وهناك من الأثراك من هو مرتبط أشد الارتباط بالإيالة . فنجد الكثير
منهم لا يتزوجون عمداً ليتركوا ثرواتهم إلى بيت المال . ولهذا السبب كان
دخل هذا الصندوق معتبراً في وقت من الأوقات .

وبمجرد ما تجمع خمسون ألف فرنك في هذا الصندوق تحول إلى الخزينة
العامة نظراً لمصاريف الدولة المرتفعة ودخلها الضئيل . وقد ظل هذا هو الشأن
إلى أن كان الغزو الفرنسي .

وتعتمد قوانين بيت المال على المبادئ الأساسية لشريعتنا ، وفي بعض
الأحيان يستلف صندوق من صندوق آخر دون أن يحدث أي خلل في النظام
القائم .

وفي زمن الطاعون (7) كان لإدارة بيت المال نشاط يفوق نشاط جميع الإدارات الأخرى، فهي التي تقوم بإحصاء الموتى وتعمل على تجنب القوضى التي قد تتسبب فيها كثرة الوفيات كما أنها هي التي تتولى التركات المهمة وتقوم بعمليات الميراث .. الخ .

وعندما كان الغزو الفرنسي استولى الفرنسيون على صندوق بيت المال الذي كان يحتوي على مبالغ هائلة (8) كما إنهم استولوا على الودائع الخاصة التي كانت فيها ، وبذلك صار الصندوق في عجز كبير .

وعلى أثر هذا الغزو ، ومنذ أن طرد الأغنياء ، صار دخل بيت المال في نقصان كبير ، وكيف يمكن لهذه الإدارة أن تسترجع دخلها العادي إذا كانت تركة الشخص الميت بالوقت الحاضر سواء كان له وريثة أم لا، لا تكفي . إلا لدفع مصاريف دفنه ؟ بل انني أعتقد جازماً أن رئيس بيت المال حالياً ، وهو جزائري ، يدفع أموالاً طائلة من عنده لدفن الفقراء كتسبيق للصناديق مثلما تعود أن يفعله سابقوه . ولكن الراجح هو أن هذا الرئيس إنما يقصد بتصرفه عمل الخير لأن تصرفاته كانت دائماً هي تصرفات الإنسان السخي المحسن .

والملاحظة هأنه لا يمكن التصرف في الأموال المودعة في خزانة بيت المال لأنها لأشخاص مختلفين من الخواص وفي عهد الأتراك كانت هذه المودعات

(7) آخر طاعون أصاب الجزائر المستقل هو ذلك الذي ظهر سنة 1817 ولم يختلف إلا سنة 1822 . وقد قضى على حوالي ستمائة سكان الإيالة .
(8) تقدر تلك المبالغ بحوالي مائة مليون من الفرنكات . ويقال إنها نقلت إلى لندن حيث تقاسمها لويس فليب وتاليران وبعض أعيانها .

تعتبر دائماً من المقدسات التي لا تمس .

وكأحد سكان مدينة الجزائر العالمين بنشاط خزينة بيت المال ، أستطيع أن أوكد صحة كل ما قيل أعلاه .

وللأسباب التي ذكرتها ، فإن مخزونات مدينة الجزائر غير معتبرة ولكن أعمال الظلم لا يمكن أن يكون لها أثر خارج المدينة ، لأن السلطة الفرنسية لا تمتد إلى ما وراء الأسوار .

لكن لم يكن للحكومة التركية ، عندما أسست ، موارد كبرى حتى أن أحد الدايات أو الباشاوات قد وجد نفسه مضطراً ، لنفخ أجور الأجناد ، أن يقدم أشياء مختلفة مثل العتاد الحربي وغيره، ويعيد شراعهما عندما تتوفر الأموال في الخزينة .

وفي وقت من الأوقات ، كان خمس الغنائم المخصص للدولة لا يكفي لسد حاجات الإيالة اليومية ، الأمر الذي كان يجعل من الصعب إيجاد متطوع للحكم . ولقد حدث أن بقي العرش خالياً إلى أن رأى السلطان من الضروري إرسال أحد الباشاوات بعد تقليده زمام الحكم . وكان هذا الشغور يدوم فترات طويلة .

وعندما تمسكت أوضاع الخزينة ، وذلك الصعوبات ، توقف الجزائريون عن مطالبة القسطنطينية بتعيين القادة ورضي السلطان بذلك .

وعندما تم توحيد تلمسان وقسنطينة إلى باقي أجزاء الإيالة ، وجد باشا الجزائر نفسه مضطراً إلى تنظيم إدارة هاتين المقاطعتين الجديدتين . وبهذا الصدد أرسل بايا أو والياً إلى قسنطينة وآخر إلى معسكر .

أما وهران ، التي هي مقر الباي ، فلإنها كانت تابعة للاسبانيين في ذلك الوقت . ولم تخرج من قبضتهم إلا مؤخرأ ، كما أوضحنا ذلك سابقأ

وفي نفس الوقت تم تعيين باي في المدينة وهي أهم مدينة في مقاطعة التيطري . وفيما يلي قانون هؤلاء البايات :

تأتي هذه المرتبة بعد درجة الآغا الذي ذكرنا اختصاصاته أعلاه . وعلى كل واحد من هؤلاء البايات أن يؤمّ مدينة الجزائر بخبر عن إدارته ، ويقدم بنفسه فائض المدخولات ، وذلك لأنه يخضع منها كل ما هو ضروري لموظفيه ولقرسانه ورجال المدفعية بحيث يكون المبلغ الذي يدفعه إلى الخزينة العمومية كل ثلاث سنوات مساوياً لثمن مدخولاته .

حدود كل مقاطعة مضبوطة ، وكل باي مسؤول عن إدارته وعن الحدود .

إن الأجزاء التي توجد بها أملاك وطنية تخضع في إدارتها وتسييرها لخوجة الخليل . أما الأراضي الكائنة في ضواحي مدينة الجزائر ، والتي لا تدخل في ممتلكات الدولة ولا في مقاطعة من مقاطعات البايات الثلاثة ، فلإنها تكون تحت تصرف الآغا (9) .

وعندما يموت الباي ، فإن الواجب يقضي بأن يكون خليفته صهراً لشيوخ العرب ومطعماً كل الاطلاع على العادات والتقاليد . أما تركة الباي المتوفى فتعود لورثته ، باستثناء العتاد الحربي وكل ما له صلة بالإدارة التي كان مكلفاً بها ، إذ أن هذه الأشياء تترك في المسكن تحت تصرف الباي الجديد

(9) هوريس القوات المسلحة .

حتى لا يكون مضطراً لشراؤها أو للمطالبة بالأموال اللازمة لذلك ، وهكذا يجد الباي الجديد مورداً هو بداية ثروته .

وقد جرت العادة أن يرسل الباشا لكل باي حامية في كل سنة مرة . وبما أن سكان مقاطعة التيطري فقراء وقليلو العدد ، فإن الحامية لا تبقى عندهم إلا شهرين ثم ترجع إلى مدينة الجزائر . وفي معسكر ، في الجزء الغربي ، تبقى الحامية أربعة أشهر ، وأما في قسنطينة التي تشكل شرق البلاد ، فلها تبقى ستة أشهر .

وإذا أراد أحد الجنود ، في حامية ما ، أن يقيم في المقاطعة إلى أن تعود الحامية المتبلة ، فإنه يحصل على الإذن بكل سهولة . وإن الكثير من أعضاء الميليشيا يفضلون البقاء في المقاطعات على العودة إلى مدينة الجزائر : 1 - لأن مرتباتهم تتضاعف أثناء غيابهم ، وادخارهم يتزايد لأن حياة المدينة أغلى من حياة الريف . 2 - لأن الباي الذي يبقون معه يقدم لهم العطايا والمنح .

وفي أثناء السير تطعم الجيوش بالبرغل ، أي بالقمح ، يقل ثم يرحى ويفرل لتتزع منه النخالة فيصبح نوعاً من البسيسة . ويحتفظ بهذا القمح المطحون عاملاً كاملاً ، ويحضر ويطبخ تماماً مثل البياو (أكلة تركية شائعة في فرنسا) . ويحضر بالزبدة فقط . ولا يأكل الجنود اللحم إلا مرة في الأسبوع . ولذلك يفضلون في الشتاء حياة الحامية في المقاطعات على البقاء في مدينة الجزائر وعلى حياة القرصة .

تتكون حامية قسنطينة من 100 خيمة ، وحامية معسكر من 60 وحامية المدينة من 40 وتأوي كل خيمة 30 جندياً يقودهم ضابط برتبة بولكباشي

وآخر بدرجة: أوضاباشي وثالث يسمى باش يولداش . وفي كل واحدة من هذه الخيام محافظ للمؤونة يحرس المعاش والطبخ ويسمى الطباخ . ويساعده في مهمته عامل يسمى الصاغا ، يكلف يجلب المياه من مختلف الآبار وتوزعها على الجيوش .

ولكل خيمة ، بالإضافة إلى ذلك ، خادم يتولى جمع المتاع ونقله على الجمال من مكان لآخر . وهؤلاء الأشخاص الخمسة الذين ذكرتهم يركبون الخيل ، أما الباقي فيمشون ورجلين ويحمل كل واحد سلاحه . ويشرف على كل معسكر قائد يسمى آغا المحل ، ويختار عادة من بين الضباط الذين لهم رتبة بولكباشي ، بحيث لا يمكن التقدم في الدرجة إلا بقدر ما تكون الوفيات كما ينص على ذلك قانون الميليشيا في الجزائر .

ويصطحب هذا الآغا شاوشاً من ديوان الجزائر يعهد إليه بنقل أوامره .

وعندما يقوم البايات بجولات في كامل أنحاء مقاطعتهم لجمع الضرائب ، فإنهم يصطحبون معهم الحامية التركية ، وعندئذ يكلف الشاوش بنقل تعليمات الباي إلى الآغا . فعندما يشير الباي بتبديل المكان ، يقوم الآغا بنقل أوامره إلى الأوضاباشوات الذين ينقلونها بدورهم إلى من هم أدنى منهم درجة ، بحيث تتخذ جميع الإجراءات في رمشة عين .

وبحسب الموقع الذي يكون فيه المركز ، يجب أن تقام خيمة الباي وسط الجيوش محاطة بهالة من الفرسان هي نفسها مطوقة بدائرة من المشاة ، ولا يترك سوى ممر يقود إلى وسط المركز ، وعلى حافتي هذا الممر تقام خيمة كبيرة نجد فيها المستشفى والصيدلية والمقهى ، وأخرى يقيم فيها آغا المحل . وأمام

هذه الأخيرة تنصب الأعلام من جهة، والمدافع والمدفعيون والعناد الحربي من جهة أخرى .

وعندما يريد الباشا عزل أحد البايات ، يرسل تعليماته إلى آغا المركز أو آغا الحامية، بحسب المكان الذي يكون فيه الباي ، فيضع حداً لسلطته ويلقي عليه القبض في بعض الأحيان إلى أن يأتي خلفه ، وذلك مخافة أن يهرب ، الأمر الذي قد يؤدي إلى وقوع الاضطرابات في البلاد .

كان البايات لا يعزلون إلا نادراً ، في الأيام الأولى من عهد الأتراك . وعندما أصبح الباشوات والدايات جشعين يمحرون وراء الثروة كثرت التبديلات والتغيرات التي كانت مضرّة بالنسبة للشعب وللحكومة على السواء .

وكان من عادة الباشوات القديمة القيام بحولة ريعية في كل سنة . ويرافق الباشا في هذه الحولة ديوانه الخاص الذي يشكل الحاشية ، وكذلك أعضاء ديوانه الأعظم ما عدا آغا الیولداش الكبير ونائبه اللذين يجب أن يبقيا في المدينة . ويتبع الباشا ، أيضاً ، القواد والسناجق وفرقة موسيقية كاملة وعدد من الشخصيات الأخرى . وعلى بعد حوالي نصف ساعة من مدينة الجزائر ، بجوار حديقة مصطفى باشا ، يوجد مكان في موقع حسن وله منظر جميل ، تقام فيه خيمة رائعة لاستقبال الباشا وحاشيته . وعندما يصل الباشا يدور المركب دورة حول هذه الخيمة قبل التزول ، ثم يقفز القربان إلى الأرض ويدخلون خيمة الداي حيث يمدون طاولة مجهزة بأنواع المبردات والحلويات والمرطبات ، الخ . . . وبعد أكل خفيف تقام صلاة يعقبها ابتهاج إلى الله ليحفظ السلطان ويرفع عدد العرب ويسعدهم ويقوي إيمانهم في حدود معينة حتى لا يتقاسموا الحكم مع الأتراك . وبعد هذه الحفلة يرجع أعضاء الديوان

الأعظم وغيرهم من الشخصيات الأخرى إلى مدينة الجزائر ، ولا يبقى في الخيمة إلا الباشا وحاشيته لنسوية قضايا البلاد . ويفتح المقطاجي السجل ليعين الجنود الذين سيعينون للقيام بالحملات ولتكوين الحاميات الضرورية لمختلف الجهات . ثم ترتب المعسكرات وتنظم ، وتعين الوحدات التي ستقوم بالحملات البرية ، وفي الحين تعطى الأوامر لإقامة الخيام ولتموين الجيوش ، الخ . . .

يبدأ الاعتناء بالجيوش التي توجه إلى مستغانم ، ثم تجهز جيوش التيطري وتبقى حامية قسنطينة هي الأخيرة ، وكل هذه الحاميات يجب أن ترسل في الأيام الأولى من فصل الصيف . وعندما تم جميع هذه الإجراءات ، يعود الباشا إلى مدينة الجزائر . ولكنه بمرور الزمن ، أهمل الدايات هذه الحفلة وصاروا لا يقيمونها بالكيفية التي وصفناها ، وإنما أصبحت العادة شكلية فقط ، أي أن الخيمة ظلت تقام في المكان المعين ويقصدها الديوان في اليوم الموعد كما لو كان يلزم الذهاب إلى نزهة ، وبدلاً من أن يترك الداي وحاشيته في الخيمة ، صار يترك فيها أحد الحراس فقط .

الفصل الحادي عشر

تحديد رسوم الأرض وطريقة جمع الضرائب

وفقاً لشريعتنا ، ترتب الأرض على النحو التالي : اذا كانت البلاد ملكاً للمسلمين بمقتضى الفتح وبحد السيف ، وإذا كان سكانها القدماء قد بقوا فيها بعد تفاهم مع الفاتحين ، فان أراضيها تسمى خراجاً وهي كلمة تعني ان الحكومة لن تطلب أكثر من المبلغ المتفق عليه حتى ولو انتقلت تلك الأراضي من مالك لآخر على شرط ان تحبم الالتزامات المنصوص عليها في بداية الأمر . وعندما يعتنق مالكو الأراضي الإسلام طوعية ، فانها تسمى عندئذ ، حكراً .

وعلى هذا النوع من الأراضي يؤخذ العشر او الجزء العاشر من الإنتاج . وتوضع مقادير تلك الأعشار في صندوق الخزينة لدفع مرتبات الجيش وللاعتناء بالفقراء ولترية الأيتام ودفع أجور القضاة الخ... وحتى اذا لم تطالب الحكومة بهذه الأعشار ، فان كل واحد منا مجبر ، حسبما يقتضيه ديننا ، على ان يضعها جانباً ويوزعها وفقاً للطريقة المذكورة ، ولا يستطيع أي أحد ان يستحوذ على تلك القسمة كما سبق ان أشرنا لذلك .

وتسمح القوانين للعادل إن يتفاهم مع الشعب حول تلك الأضرار ،
واستبدالها بمبالغ معينة . وأراضي الجزائر كلها من هذا الصنف الثاني .

وعندما علم الأتراك ان جباة الضرائب يقومون بتجاوزات ، أي ان
الدولة لم تكن تقيض بالضبط جميع المبالغ التي تعود لها ، أو ان الجباة كانوا
يجمعون أكثر من اللازم ، عندئذ أوجدوا وسيلة تمنع تلك التجاوزات.
التي كانت تثبط الفلاحين وتموقهم .

لقد فرض على كل محراث يحرقه ثوران حمولة بعير من القمح واخرى
من الشعير ؛ وعندما يأتي السكان بمقادير رسومهم ، فان القابض يسلمهم
مقابل ذلك وصلاً .

ان القائد في كل قبيلة يجبر على إحصاء عدد الفلاحين المالكين للمحاريث ،
وبعد ذلك يسلم نسخة صحيحة للقابض الذي يجمع الضرائب حسب ذلك
الإحصاء ، ويعطي الإيصالات لكل فرد ، ويتفقد الكميات المقبوضة من
الحبوب ليتمكن من محاسبة القابض الرئيسي في الدولة . ولكن عندما يثبت
ان الأراضي لم تنتج شيئاً ، فان المزارعين يعفون من تلك الضرائب .

يستعمل : في العادة لزراعة ما يغطي محراث واحد حوالي ست حمولات
من القمح وأربع من الشعير .

لقد سبق ان ترمضنا لاستعمال هذه الضرائب ، ولكن الشعب يعتقد
كذلك ، انه عندما يدفع ما عليه يصبح من الواجب على الحكومة ان تحميه ،
وان تؤمن الطرقات ونحرسها ، وأن يكون الملك متديناً بدينه .

وحسب قانوننا ، فإذا قام مختصب أو ملك لا يتدين بنفس الدين ،

واستحوذ على الضرائب التي ينص عليها ذلك القانون ، فان القلاح يبقى في عين الشرع ، مطالباً بأداء واجبه الذي لا يكون إلا عشر الكمية الباقية له بعد الإغتصاب .

وحسب هذا القانون الشائع في افريقيا ، فإني أعجب للدوق دوروفيكو الذي اشترط ، بإيعاز من اليهود والأشرار ، ان تدفع متيجة العشر وسكانها أفقر الناس وأكثرهم بؤساً .

ومع ذلك ، فان الولاة الفرنسيين كانوا قد نشروا بياناً يعلنون فيه لسكان الايالة انهم يلغون جميع أنواع الضرائب ، وان الحكومة تتنازل عن هذه الأنواع من الموارد .

وبقطع النظر عن هذا الوعد ، فان الحكومة الفرنسية لا تستطيع ان تجمع الضرائب بكيفية شرعية ما لم تؤمن الطرق ، وما دام البلد مضطرباً ، فعليها ان تبدأ بالحفاظ على الأمن وحمايته من كل هجوم تقوم به القبائل المعارضة والمعادية .

وخلاصة القول ، فإن كل ما يمكن ان يعطى للحكومة الفرنسية التي لا تتدين بنفس دين هذا الشعب ، لا يعتبر إلا من قبيل التمسك ، ويبقى السكان - في عين الشرع - مطالبين بأداء واجبهم . ويترتب عن هذه الأوضاع ، كذلك ، ان قبائل الداخل ، عندما تعلم بأن الضرائب دفعت للفرنسيين ، ستحارب أولئك الذين دفعوها وتتهمهم بأنهم خضعوا لمن هم أعداء الايالة بأكلها .

لقد كانت الضرائب تدفع على النحو الذي ذكرناه إلى أن كان الغزو الفرنسي . واليوم ، وبما أن هذا الشعب لا يعرف ملكاً شرعياً ولا ظاهراً في البلاد ، فإن كل مالك سيوزع أعشاره بنفسه على الفقراء .

وليكسب ثقة هذا الشعب ، فإن باي قسنطينة ، بدلاً من أن يشترط حمولة بعير من القمح وأخرى من الشعير عن كل محراث ، فقد اكتفى بأن يقبض مكان ذلك مبلغ ١5 فرنكاً ، كما أنه اكتفى للفلاحين ، مقابل سبعة وعشرين فرنكاً ، كل ما يمكن أن يغطيه طوال السنة محراث يجره ثوران .

يقوم القادة أو جباة الضرائب بالإحصاء عندما تجمع المحاصيل . وقد يحدث في كثير من الأحيان ، أن هؤلاء الجباة يبقون لأنفسهم جزءاً من الضرائب ، ويتركون منها جزءاً آخر للفلاحين ، فيترتب عن ذلك أن الدولة لا تقبض جميع مدخولاتها . وعلى الرغم من أن الباقي كان على علم بوقوع مثل ذلك التفاهم ، فإنه كان يغمض عينيه لكي لا يثبط عزائم الفلاحين وليكسب الشعب حوله ويبين اعتداله .

أما عن مقاطعة الغرب ، فلأنني أجهل وضعها الحالي ، ولا أعرف شيئاً عن فلاحيتها ولا عمن تدفع إليه الضرائب .

إن مقاطعة التيطري فقيرة ، خاصة بعد الزيارة التي أداها لها الجنرال كلوزيل . ويعتبر جميع البدو والقبائل أن سكان التيطري من ألد أعدائهم لأنهم لم يبدون العداوة للفرنسيين . ويتمنونهم بالتفاهم معهم وبأنهم لم يخبروهم بوصول الجيش الفرنسي ، ولو فعلوا لوفروا لهم الوقت الكافي لاتخاذ التدابير

وللدفاع عن أنفسهم . ومن هنا يتحتم على جميع القبائل أو كل من يخضع
للفرنسيين أن يكون يقطاً لتجنب سخط القبائل .

وعندما نرى سلوك الولاة في افريقيا، نميل إلى الاعتقاد بأنهم إنما ينشرون
الخلافاً والشقاق من أجل التضحية بالشعب الجزائري .

الفصل الثاني عشر

عن انحطاط حكومة الأتراك وسقوطها

بعد أن ثبتت حكومة الأتراك أقدامها في هذا البلد ، ووسعت سلطانها المتمثل في الحصول على طاعة هذا الشعب ، كان من أسباب انحطاطها إرسال مندوبين إلى أزمير يجمعون الأجناد . وبدلاً من أن يتبع هؤلاء المندوبون الطريقة القديمة التي لم تكن تسمح بأن يحمّد في الميليشيا إلاّ الرجال التزهاء الذين لهم جاه ومكافأة ، فلأنهم كانوا يفتحون أبواب الميليشيا لأيّ كان حتى لأتاس كانوا قد أدبوا أو أذبنوا . وكان يوجد من بين المجندين يهود ويونانيون غحنوا أنفسهم . وكما أن حبة فاسدة تكفي لإفساد كوم كامل من القمح ، فإن رجلاً فاسد الأخلاق يكفي لجلب الشر على جميع الذين يخاطبهم ويحيطون به .

وهكذا ، صارت تلك الميليشيا المسلحة التي لا مبدأ لها ، صارت ترتكب المخالفات ضد البدو والقبائل . ثم قام هؤلاء الرؤساء بإشعال الثورات وقلب قادة الدولة بحسب هواهم .

وكان أول ضحاياهم الملكية هو الداي مصطفى باشا ، والد سيدي إبراهيم الذي كان موجوداً بباريس قبل مدة قصيرة . لقد جعل الثائرون على رأسهم المسمى أحمد خوجه الذي دبّر المؤامرة والذي كان دفتردار معزولاً . إنه هو الذي كان سبباً في موت ذلك الداي عندما أمر بالهتاف في كل مكان : لم نعد نبني حكومة مصطفى باشا ! واستجابةً لتلك الهتافات تجمعت الميليشيا ، فحطمت عظمة الداي مصطفى وقتلته دون أن يكون قد ارتكب أدنى خطأ (1) .

أما السكان ، فإنهم لا يشتغلون أبداً في مثل هذه القضايا ، ويخضعون لمن يختاره الديوان ملكاً عليهم .

إن الجريمة السياسية تؤدي دائماً إلى جرائم أخرى تتبعها : لقد عامل هؤلاء المتهيجون بعنف ووحشية معظم أعضاء حاشية الداي وأهم أنصاره واستولى أحمد خوجه على الحكم (2) .

لقد ارتكب هذا الرجل ، أثناء ولايته ، عدداً من الجرائم . ولكافأة الميليشيا رفع أجور أفرادها . ولكنه عزل وقتل البايات للاستيلاء على أملاكهم وثروتهم . وكانت الشخصيات المحيطة به والمكونة لحكومته تنقصها المهارة ولا تملك الوسائل ، إذ لم تكن تعرف حتى تقاليد العرب ولم تكن لها أية علاقة بمختلف الشيوخ . وفي تلك الفترة ، لم يكن على الذي يريد أن يصبح باياً إلا

(1) لقد ارتكب مصطفى أخطاء كثيرة ، أهمها والذي قتل من أجله هو إعطائه اليهودي بوجناح سلطة مطلقة ، يتصرف في الإيالة كيفما يشاء ، حتى أن المؤرخين الغربيين كانوا يسمونه ملك الجزائر .

(2) هو أحمد بن علي الذي جابه تمرد ابن الأحرش في بايلك الشرق ، وأحمد تمردات أخرى في تلمسان وتمرت . وقد مات في إحدى المعارك سنة 1806 بعد أن حكم عاماً واحداً .

أن يتجه لأقارب أحمد باشا ويعلمهم بالأموال . لقد كانت تلك المناصب تباع وتشترى ، وهو أمر كان يلائم رجال الحكم الذين كان ظلمهم يتجاوز القانون . ودام هذا الوضع إلى أن كانت الحادثة التي تعرضت لها مدينة قسنطينة التي كان باي تونس يريد استرجاعها . سأوري ، فيما بعد وفي فصل آخر ، تفاصيل تلك الأحداث وكذلك تفاصيل الحملة التي قام بها أحمد باشا ضد تونس .

وبعد ثلاث سنوات من الحكم تعرض أحمد باشا بدوره إلى مؤامرة تهدف إلى قلبه . وكان على رأس الميليشيا مجهول يدعى علي خوجه الذي استطاع أن يدفع الميليشيا لاستبدال أحمد بعد أن فضح التجاوزات التي قام بها وكذلك الأعمال الوحشية والإعدامات التي سُلطها على معظم أعيان الأتراك . لقد قتل أحمد مصطفى باشا فكان له نفس المصير . وبعده تولى الحكم علي باشا ، ولم يكن هذا الملك إلا آلة في خدمة الأتراك ، يستعملونها لتنفيذ مشاريعهم ؛ لأنه كان عاجزاً عن الحكم وعن فرض طاعته . وبعد ذلك بفترة وجيزة (3) قتل خنتاً واستبدل بالحاج علي باشا (4) . ولقد برهن هذا الأخير على نوع من الكفاءة ولكنه كان سفاحاً ؛ فقتل كثيراً من العرب وبعض أعيان البلاد دون أن يرتكبوا أية جريمة .

(3) لقد حكم الجزائر ثلاثة دايات في الفترة ما بين 1806 و 1815 . وكل واحد منهم كان يسمى حلياً ، وللك اختلط الأمر على حمدان . والصحيح أن قاتل أحمد باشا بقي في الحكم إلى غاية سنة 1808 . وقد قتله علي خوجه غشول والذي خلفه الذي ظل يحكم البلاد إلى أن قتل خنتاً سنة 1809 .

(4) هو الذي خلف علي غشول سنة 1809 ، وظل في الحكم إلى سنة 1815 . وقد قتل في حرب وقعت ضد تونس .

وخلال ولايته ، كاد الحظ ان يكون دائماً إلى جانبه ، ومع ذلك لم يتمكن ، بالرغم من مجهوداته ، من غزو مملكة تونس التي كان يريد السيطرة عليها . سأتكلم عن هذه الحملة فيما بعد .

كان الحاج ، بعد أن استولى على زمام الحكم في الجزائر ، يشعر بتفوق كبير في العلوم والمعرفة ، ولذلك احتقر وزراءه وآراءهم ؛ وعندما أهدن هؤلاء الأخيرون وملأ الرعب قلوبهم وضعوا مشروعاً يهدف إلى التخلص منه . وهكذا فلما ذهب يستحم ، ذات يوم ، قام الشخص المكلف بإعداد الحمام على الطريقة الشرقية - وكان من المتأمرين - بفتح الأبواب خلفاً محكماً ثم ضاعف النيران بكيفية عنيفة إلى أن اختنق الحاج باشا بالبخار بدون ضجيج ولا هرج ، واستبدل بخزفاجيه المسمى الحاج محمد باشا (5) . ويعتبر هذا الأخير نموذجاً حقيقياً للأتراك القدماء ، إذ كان رجلاً "فاضلاً" ، وكان من الممكن أن يحكم مدة أطول لو لم يتعرض لخيانة آغا المسمى عمر (6) .

وكغيره ، ضحى عمر هذا بالحاج محمد باشا بعد أن تفاهم مع الميليشيا على أن تعطى له الولاية . وكان عمر ، أيضاً ، سفاحاً ؛ وكانت الظروف تكاد تكون دائماً غير مؤاتية له ، وهذا الداي هو الذي أبرم مع اللورد أكسماوث ، سنة 1816 ، معاهدة بعد أن قام بقنبلة المدينة . وقد ساهم هذا الحادث مساهمة كبيرة في سقوط عمر .

(5) عين في مكان الحاج علي ولكنه قتل في نفس اليوم من طرف خليفته كما ذكر حمدان .

(6) حكم من سنة 1815 إلى سنة 1817 . وقد قتل خنقاً . وفي عهده تعرضت الجزائر لحملة أكسماوث 1816 ، وإلى الطاعون الذي قضى على عدد كبير من سكان الإيالة .

وقام علي (7) ، وهو رجل مجهول ومعتوه ، فاغتنم هذه الفرصة وجمع الجيوش ثم استولى على مقاليد الحكم في الجزائر .

وعندما تولى الحكم ، قام الداي علي هذا بثورة شاملة في نظم الولاية القديمة . كما أنه ارتكب عدداً من الجرائم ونفى كثيراً من الناس . وذات يوم ، أمر سكان مدينة الجزائر ان يلقوا أبوابهم في ساعة مبكرة ، وأمر كذلك بفتح الشككات ، ثم جمع عدداً كبيراً من البغال حمل عليها ، ليلاً ، جميع كنوز الجزائر التي كانت في محلات الباشا القديم ، ونقلها الى القسبة التي انتقل اليها مصحوباً بالجيوش يحافظ على شخصه ، وفي الصباح أعلن عن هذا التغيير بطلاقات مدفعية .

وخلال مدة ولايته التي لم تدم سوى ستة أشهر ، ساءت أحوال الدولة الى أقصى درجة . وأثناء نقل الثروات الى القسبة ، وقع كثير من النهب قام به وزراءه وأعضاء حاشيته . وقد مات علي بالطاعون في مقر إقامته الجديد ، ولو انه عاش لسبب في خراب الولاية ما في ذلك شك . وكان أعداؤه الذين كان يضطهدهم هم أنصار عمر باشا . ولم ينج من هؤلاء الأنصار سوى حسين خوجة الذي عينه خزانجياً ، وفيما بعد رفعه الى مرتبة خوجة الخليل وقد دهش الجميع عندما رأوا ان حسين الذي كان من المقربين لعمر ، يحظى بمثل تلك التقديرات من علي باشا . وحقيقة فان حسين — من بين

(7) هو علي بورصالي ، تولى الحكم سنة 1817 ؛ وعلى عكس ما يقول حمدان ، فإن الرجل كان تقياً ورعاً : حارب المهر والفساد وأراد أن يعطي الدولة طابعاً آخر ، إذ تخلص من الميليشيا وراح يعمل على إشراك الأهالي في الحكم وانتقاله إلى القسبة دليل على ذلك .

الشخصيات التي كانت تحيط بملك الداي - هو الوحيد الذي كان نزيهاً
وذا أخلاق فاضلة ، أما الآخرون ، فإنهم لم يكونوا سوى مغامرين . وعندما
توفي علي باشا هذا ، اجتمع الديوان لاختيار الملك ، فوقع اختياره على حسين
الذي كان آخر باشوات الأتراك قبل الغزو الفرنسي .

ولقد ارتكب الأتراك خطأ فادحاً عندما تركوا السلطة المطلقة بين أيدي
الباشوات ، لأن ذلك جرد الديوان من كل قوة وسلطان وجعله كلاً شيئاً ،
في حين أنه أنشئ لمراقبة أعمال الباشوات ومساعدة الحكومة عن طريق
تزويدها بالنصائح . ولم يعد يطلب من أعيان البلاد آراؤهم ، كما ان أهم
المناصب في الدولة والوزارات ووظيفة خروجة الخيل لم تعد تعطى إلا للأتراك
لأن الكراغلة طردوا من الحكم على الرغم من أنهم كانوا فروعاً لهؤلاء
الأتراك أنفسهم .

وفيما يخص الكراغلة ، سأروي حادثة تاريخية كانت هي السبب في إبعادهم :
ففي حوالي سنة 1650 ، وللاستيلاء على الحكم ، وضع أفراد تلك الطبقة
مشروعاً يهدف الى طرد الأتراك (آبائهم وأجدادهم) الذين كانوا يحكمون
البلاد . ولهذا الغرض اجتمعوا في حصن الامبراطور . وعندما علم الأتراك
بهذه المناورة فكروا ، لإحباط المشروع ، في ان يُلبسوا عدداً من العمال
الذين يدعون بني ميزاب ملابس نسائية ، ولما تذر هؤلاء بالملاحف أخذوا
أسلحتهم والذخيرة في شكل متاع مستورد ، ثم تقدموا الى مدخل الحصن
وكانهم نساء هربن من جور الأتراك . وبمجرد ما دخل اولئك الرجال
الحصن وهم تحت ذلك القناع ، هاجموا المتحدرين بمساعدة فوج كان
يتبعهم عن كثب ، فأخضعوهم وأحبطوا مشاريعهم . وعلى اثر هذا الحادث ،

وبما ان الأتراك لم يكونوا قادرين على ان يطردوا ذريتهم من البلاد ، فانهم قرروا فقط ، عدم السماح للكراغلة بشغل المناصب السامية . وقد عزل كل من كان يشغل منهم وظيفة حساسة في ذلك الحين . وهكذا ، اذن ، فان كل كرغلي يصل الى المرتبة السابعة ، كان يعزل ؛ وبهذه الكيفية لم يكن لأي واحد منهم ان يشغل في البلاط .

وان الترجمان الذي هو مترجم البلاط ، أو أمين اللغات الأجنبية (وهي وظيفة هامة جداً) وكتاب الدولة ، كلهم كانوا يختارون من بين العرب لا من الكراغلة. كما ان مراقب المؤسسات الخيرية التابعة لأملاك مكة والمدينة ، كان يعين من بين العرب .

وقد استمر هذا الحقد من الأتراك على أفلاذ أكبادهم مدة قرنين تقريباً . وهؤلاء الكراغلة كثيرون العدد ، وموزعون على كامل أنحاء الإيالة ، وخاصة في المكان المسمى وادي الزيتون الواقع في سفح جبل فليس ، ويعتقد أنه يوجد منهم في هذا المكان وحده ما بين 8 و 10 آلاف محارب . ومعظمهم كان يأخذ أجراً من الدولة ، وعلى الرغم من إبعادهم ، فانهم ظلوا يتقاضون رواتبهم خوفاً من إثارة سخطهم .

وبعد ذلك فكر الكراغلة في استعطاف آبائهم ونيل رضاهم ، ثم قاموا بإحضار جنود آخرين ، على نفقتهم ، وسجلوا أبناءهم كمتطوعين في الميليشيا . والكراغلة الذين كانوا يتقاضون أجوراً من الدولة ، والذين كانوا موزعين على مختلف أنحاء الإيالة ، لم يكونوا يستطيعون الحضور ، شهرياً ، كما هي العادة ، لتقاضي مرتباتهم ، ولذلك كانت جماعة من اليهود تسبق لهم رواتبهم السنوية مقابل وكالة تسمح لهم بأن يقبضوا — باسمهم — ما لهم

في ذمة الدولة . وفي العادة ، فان هذه التسيقة لا تكون في شكل نقود ، وإنما تدفع في شكل بضائع وبالفائدة . وقد كان هؤلاء الرجال دائماً في وضعية يجبرهم على قبول التسيقات مهما كانت الشروط . ولكن ، لو ان واحداً منهم يموت قبل نهاية السنة ، ولم يترك وراءه شيئاً ، فان اليهودي ، يخسر المبالغ المسبقة . وكانت قوانين الإيالة تسمح بهذا النوع من المعاملات وعندما قام الفرنسيون بغزو الجزائر توقفت أجور هؤلاء الكراغلة ، وضاع الضمان الممثل في الحكومة التركية بالنسبة لكل من كان مقرضاً هؤلاء الرجال ، ذلك ان الفرنسيين لم يكونوا يدفعون الاجور للكراغلة . وعندئذ اجتمع اليهود وأرسلوا اعتراضاتهم إلى السيد المارشال بورمون يطلبون منه أن يدفع ذلك الدين المترتب على الدولة . وقد رفض المارشال التسليم لادعاءاتهم . إنهم كانوا يريدون الحصول على ديونهم من موارد المؤسسات الخيرية المخصصة للاعتناء بالشكنات التي تقوم في هذا البلد مقام دار العجزة والمقعدين في فرنسا لأنها لم تكن آهلة إلا بالجنود المقعدين وبأرامل الجنود وأيتامهم وهؤلاء المقعدون هم وحدهم الذين لهم الحق في المطالبة بالمعونة من تلك المؤسسات .

أما مطالب اليهود الناتجة عن ديون وقع التعاقد عليها مع جنود يعملون ويتمتعون بصحة جيدة ، فإن وفاءها لو تم من صندوق تلك المؤسسات لشكل خرقاً للترتيبات التي وضعها منشئ تلك المؤسسات .

وعندما رأى اليهود انهم لن يحصلوا في الجزائر على أي شيء يرضيهم من الولاة الفرنسيين وجها مطالبهم إلى باريس قصد الحصول على المبلغ الذي هم به دائنون وأناي أجهل ماذا كانت نتيجة مطالبهم .

ولقد جاءني عدد من هؤلاء اليهود يسألوني رأيي فيما يخص مطالبهم
وليعرفوا ماذا أفكر في مثل تلك المطالبة .

وكانت إجابتي كالآتي يا أصدقائي ليس لكم أي حق في مطالبة الفرنسيين
وليس في إمكانكم إلا أن تلتمسوا من تلك الحكومة لتمنحكم عطفها
ومساعدتها ، وأنني لا أشك في أنها ستستجيب لرغبتكم عندما تعرضون
عليها أوضاعكم .

ولكي أعود إلى ذلك الشقاق الذي كان موجوداً بين الأتراك والكراغلة
أقول انه منذ أن وقع الحادث المفصل أعلاه تكون حاجز بين الطائفتين
بحيث أن الأتراك أصبحوا لا يستفيدون من علوم أبنائهم ولا من نفوذ ما
لهم من أقارب في البلاد وقد كان حذر الأتراك شديداً إلى درجة أنهم
لو أسدى لهم الكراغلة النصائح واوكانت مفيدة لهم لنظروا إليها كجبال
منصوبة لاقتناص حسن نيتهم وإذا ما علموا أن هناك اجتماعاً يعقده الكراغلة
في مكان ما فلنهم كانوا يرسلون إليهم جواسيسهم تنظر هل يشتغلون بالسياسة
وينتقدون بعض أعمال الحكومة أو حتى الحياة الخاصة للأتراك ، كما أن
الكراغلة كانوا يُراقبون خشية أن يحدث بينهم وبين بعض الأعيان في
داخل البلاد نوع من التفاهم بقصد الاستيلاء على الحكم ، وعندما
يكتشف الأتراك أنهم يضمرون لهم نوايا سيئة ، بل عندما يخافهم أدنى
شك في ذلك ، فلنهم كانوا ينفون قادتهم ويفرقون اجتماعهم . وأخيراً لقد
بلغت الإهانات التي كانت تسلط عليهم إلى درجة أن سكان الجزائر من
كراغلة وغيرهم لم يعودوا يهتمون بالسياسة لا في اجتماعاتهم ، ولا
امام الملاء ، ولا في مجتمعاتهم الخاصة . وما يحدث أحياناً أن بعض
الأشرار كانوا إذا ما أرادوا الانتقام يهتمون الشخص الذين ييغون هلاكه

بأنه يشتغل بالسياسة ولقد قضى هذا النوع من المراقبة على بذور الكفاءة عند رجال هذا البلد وخلق في المجتمع حذراً عاماً استمر حتى مجيء الفرنسيين ، وهذا الانحلال هو الذي جعل السادة الولاة يستطيعون القيام بأعمال تصفية أو يفتنون في تطبيق الأحكام الجائرة دون أن يجروا أناساً لهم من الشجاعة ما يمكنهم من التشهير بسلوكهم امام الجمهور ومن اعلام الحكومة الفرنسية بما هم عليه .

ومن جهة أخرى فإن نصائح الغدر التي كان يسديها اليهود قد ساعدت على أن يتزايد الطغيان وبلغ منتهاه، وعلى أن تنشأ فكرة مشوهة عن طبائع سكان الجزائر الذين يزرعون تحت نير الاستبداد .

وفيما يخصني ووفاء مني للحكومة الفرنسية ولصالح قضيتها، فاني قد حاولت ان اعرف بطبائع تلك الأمة الحرة وكذلك بالشعور النبيل الذي تتحلل به حكومتها التي لن توافق أبداً على أساليب الجور اللامسياسية والمناهضة للقوانين وبناء على هذا الاحتراز من الكراغلة والذي تكلمنا عنه اعلاه وضع الأتراك ثقتهم في اليهود لأنهم لا يخشون منهم الاستيلاء على الحكم .

وأقام سكان الجزائر من جهتهم حاجزاً بينهم وبين الأتراك وأبدوا تحفظاً شديداً إزاءهم بحيث لو طلب الأتراك من الجزائريين إبداء آرائهم لما افصحوا لهم عما يدور في أنفسهم. هذه هي الاسباب التي قضت على الدبوان وعلى الشورى في الأمور .

وهكذا ، فإن اليهود قد ارتبطوا بالأتراك من اجل المصلحة وقد جمعوا في تلك الظروف اموالاً طائلة. وسأذكر اليهودي بكري الذي كان أخوه ميخائيل يملك عندما قدم إلى الجزائر حانوت عطار صغيرة يبيع فيها الخردوات بالتفصيل. وكانت هذه الحانوت تقع في نواحي باب عزون. ومنذ تلك الفترة ارتبطت

محلات بكري هذه بمصالح حسن باشا ومصطفى باشا، واستطاعت أن تحصل على ثروة تقدر بالملايين وسأروي واقعة واحدة تستطيع أن تفسر الكيفية المريعة التي تمكن بها أولئك اليهود من جمع تلك الثروات: لقد قدم باي قسنطينة (8) كالعادة إلى مدينة الجزائر. ولما أراد أن يقدم هدية ثمينة إلى زوجة الـداي توجه إلى يهودي يدعى ففتالي أبو جناح ، شريك بكري ، لشراء حلقة نفيسة؛ فاحضر له سرماطاً مرصعاً بالماس تقدر قيمته بستين ألف بياستر (300,000 ف) فاشتراه وبما أنه لم يكن يملك المبلغ نقداً ، فقد تعهد بأن يدفع بدلاً من تلك القيمة كيلات من القمح يقلب عن الواحدة بأربعة فرنكات ، وتزن أربعين كلغ . وبعد الحصاد ، أرسل « البكريون » مراكب تشحن كمية من القمح قدرها خمسة وسبعون ألف عجلة نقلوها إلى فرنسا وكان ذلك أثناء الحصار الإنكليزي ، فباعوها بخمسين فرنكاً للكيلة الواحدة التي لم تكلفهم سوى أربعة فرنكات ، وهكذا أفادوا من تلك الشحنات ثلاثة ملايين وسبعمائة وخمسين ألف فرنك ويقال إن الحلبة صنعت في باريس ولا يبلغ سعرها إلا ثلاثين ألف فرنك وبما أن أحد شركائهم لم يستفد من هذه الصفقة في حين أنه هو الذي أرسل الحلبة من باريس فإنه قدم إلى الجزائر يطالب بحصته ولكنه لم ينل شيئاً . ولقد حصلت على هذه التفاصيل من ذلك الشريك نفسه . وهذه الأموال هي المصدر ، وأحد الأسباب الرئيسية للحرب التمهية بين فرنسا والجزائر ولسقوط حكومة الأتراك في هذا الجزء من أفريقيا. هذه هي ، إذن ، الكيفية التي جمع بها وبأمثالها أولئك اليهود ثرواتهم على

(8) المقصود هنا هو الوزناجي الذي كان باباً على التيطري ثم عزل سنة 1792 بعد حكم دام عشرين سنة . وفي سنة 1794 تدخل أبو جناح وبكري لدى الـداي فعبته على رأس بايلاك قسنطينة . والداي في ذلك الحين هو بابا حسن .

حساب جميع سكان الإيالة . وقد كانوا يحظون بجميع منافع ذلك الاحتكار ، في حين ان تلك التجارة كانت تمنع علينا ولا نستطيع التمتع بما ينتج عنها من منافع ، لأننا لا نستطيع الشراء بنفس الأسعار التي يشترطونها بها هم .

وفي تلك الفترة سمعت أحد البولكباشيين يقول - وقد كان قائداً للحامية التركية في عنابة - إن كمية القمح التي صدرت إلى أوروبا في تلك السنة كانت تقدر بست وتسعين شحنة. وبما أنه كان يتقاضى رسماً عن كل باخرة تشحن قمحاً ، فإن نصريحه جدير بالتصديق ، ولا أشك في صحته . وقد كان ذلك الرسم يقدر بمربع ذهبي أو بثمانين فرنكاً. وفي نفس تلك السنة وقع تصدير مائتين وأربعين ألف صاع قمحاً من ميناء وهران ، ولم تزد كلفة الصاع الواحد عن ست فرنكات بالنسبة لأولئك اليهود الذين كان البايات مجبرين على إرضائهم نظراً لأنهم كانوا يحظون برعاية الباشا . وعلى هذا الأساس ، فإن عدداً قليلاً من السنوات كان كافياً للقضاء على جميع ثروات بلدنا الجليل

وفي سنة 1800 أصيبت الجزائر بمجاعة كبرى ، ووقعت الحاجة إلى الأقوات ، فأمر الداي لتموين البلاد ، بالذهاب إلى موانئ البحر الأسود لشراء القمح . وقد بيع ذلك القمح بثمانية وعشرين فرنكاً للصاع الواحد وعلى الرغم من ذلك كان لا بد من تنصيب الجنود عند باب كل مخزن .

ونستطيع ، أيضاً ، إن نقول بأن اليهود ، الآن ، قد وجدوا نفس الحظوة لدى الفرنسيين . إنهم قد حصلوا على امتيازات هذا النوع من الاحتكار ولكن الفوائد ستكون أقل بكثير ، وذلك بسبب الوضع الذي توجد فيه الإيالة .

الفصل الثالث عشر

عَنْ دَاخِلِ الْإِيَالَةِ ، وَبَعْضِ الْمُلَاحَظَاتِ مُحَوَّلِ حُسَيْنٍ بِأَسَاسِ آخِرِ دَيَاتِ الْجَزَائِرِ

بعد أن قدمت ما أمكنني من تفاصيل حول تأسيس الحكومة التركية في الجزائر والقواعد التي تقوم عليها ، وكذلك التجاوزات والأسباب التي أدت إلى انحطاطها ، آخذ القلم ، الآن ، لأفسر عظمها في داخل الإيالة .

كان أول ما يهتم به البايات ، عندما ينصبون ، هو العمل على تحقيق أمن الطرقات حتى يستطيع الضعيف أن ينتقل من مكان لآخر دون أن يحتاج لحماية القوات المسلحة . وكانت كل قبيلة مجبرة على مساندة ذلك الإجراء لكي يستتب الأمن بينها وبين جاراتها .

ولذا وقع قتل ، فإن اعيان المنطقة التي وجدت فيها البلعة يصبحون مسؤولين عن القتلى ، ويتحم عليهم أن يبحثوا عنه ، وإن لم يفعلوا يكونوا مجبرين على دفع ضريبة قدرها ألف سلطاني (١٥ آلاف فرنك) يوزع هذا

المبلغ على ورثة الشخص المقتول ، وإذا لم يكن له ورثة نقل إلى صندوق بيت المال .

وبفضل استتباب الأمن هذا اكتسب البايات عظمة هائلة وغزوا تونس مرات عديدة ، مع ان تونس أقدم من الجزائر ومن الصعب الاستيلاء عليها . وتونس لا يمكن أن تؤخذ إلا بالتفاهم مع قادتها أنفسهم ؛ ويكون ذلك عندما يوعدون بتخليصهم من الظالم المسلط عليهم ، وباستبدال ملكهم بملك آخر من اختيارهم . بهذه الطريقة ، استطاع الجزائريون أن يفتحوا تونس . وقد كانوا دائماً يفون بما يقدمونه للتونسيين من وعود . ولقد قدم الفرنسيون أيضاً وعوداً عندما فتحوا الجزائر لكنهم لم يعملوا أبداً على إنجاز الالتزامات التي تعهدوا بها والتي كانت موضوع بياناتهم تلك البيانات التي وزعت في كامل أنحاء الإيالة . ولقد رأيت عدداً منها عند القبائل عندما قمت برحلي إلى قسنطينة ، ولقد شهدت بهذا الصدد ، أكثر من مناقشة . إن هؤلاء السكان يقولون بأن الفرنسيين قد انتهكوا حقوق الشرف عندما أغلوا بالتراماتهم ، وان المسيحيين كلهم لا يختلفون عنهم ، ولا يمكن الاعتماد على وعودهم .

وأخر غزوة شنها الجزائريون على تونس وقعت سنة 1754 (1) . كانوا يريدون أن ينصبوا على رأس الإيالة أحد أبناء أخوة بايها (2) ، كان في مدينة الجزائر ويدعى علي باي . ولقد حوصرت مدينة تونس ثم وقع الهجوم عليها

(1) وقع ذلك عندما كان حسين كلياني بايا علي قسنطينة . ويقول الحاج أحمد المبارك : « إن هذا الباي كان بطلاً شجاعاً . بنى الجامع الأعظم بسوق الغزل بمومة رؤوس الدوامس في قسنطينة » .

(2) باي تونس في ذلك الحين هو حسين بن علي هم علي باي .

وقد ارتكبت - في تلك الأثناء - جرائم تشتمل منها الإنسانية وتدينها .

وعندما وقع تقتيل قبيلة العوفية ، فإن السيد الدوق دوروفيكو قد ارتكب جرائم مماثلة لتي ذكرناها : لقد ذبحت النساء والأطفال ، وقطعت الأذان للاستيلاء على الأتراط المعلقة بها ؛ ولم يكن الهدف من كل تلك الجرائم إلا الجشع والنهب . ومثل تلك الأعمال الوحشية تسيل دموها من الدم .

وهكذا، إذن، تم تنصيب علي باي كباشا لتونس . وأبرمت معه معاهدة مخزية له ، من جملة شروطها ألا يسلم حصن الكاف الذي هو عبارة عن ممر ضيق منيع يقع في الحدود الفاصلة بين المملكتين . ومن الشروط ، أيضاً أن العلم الوطني عندما يرفع ، لا ينبغي أن يكون إلا في وسط الصاري . وعندما يصل أحد مراكب الدولة الجزائرية إلى ميناء تونس ، فإن قائد ذلك المركب هو الذي يتولى قيادة الميناء طوال المدة التي يقيمها فيه ؛ أما وكيل الجزائر أو المكلف بشؤونها ووكيل باي قسنطينة فلأنهما يحترمان كما يحترم سفراء البلاطات الأوروبية .

وزيادة على ذلك، فقد تعهدت إيالة تونس بأن ترسل كضريبة سنوية حمولة سفينة من الزيت وعدداً كبيراً آخر من الهدايا التي تصنعها أو تستوردها (3) .

وعاد ذلك الجيش المنتصر إلى الجزائر محملاً بكنوز ثمينة . ومنذ ذلك الحين ، صارت تونس تعتبر تابعة للجزائر ، وقد احترق التونسيون

(3) يقول الحاج أحمد المبارك في « تاريخ حاضرة قسنطينة » ، ص 20 « ودخل علي باشا إلى تونس ، ونزلت حملة الجزائر وحصين كلياني بالحرارية وهو موضع قرب تونس حتى استراحوا وأخذوا من علي باشا ما شرطوه عليه ووجعوا إلى بلدهم » .

غيظاً من سلوك الجيوش الجزائرية تماماً كما يفعل الجزائريون اليوم من سلوك الجيوش الفرنسية .

لم يكن باي تونس إلا شبه ملك ، وكان باشا الجزائر هو الذي يحكم البلاد والشعب حسب رغبته وكما يحلو له . ولذلك فلأن وكيل الجزائر أو القائم بأعمالها ، ووكيل قسنطينة التي هي أقرب محطة لإيالة تونس « وقايدان » القراصنة ، كانوا يقومون بتجاوزات دون أن يعاقبوا عليها أبداً . وإن كل إنسان يريد التحلي عن سمعته ليجمع المال ويلعب الأدوار ، ما عليه إلا أن أن يقدم الهبات لأهم الشخصيات في بلاط الجزائر ليعين وكيلاً في تونس وبأبسط الأسباب ، كان « قايدان » القراصنة يدخل إلى الميناء ويميث فيه فساداً ولشدة ما كانت تكرر هذه الإهانات المتعددة ، اغتاز التونسيون ، واشتملت نيران الفتنة بين الشعبين وعلى الرغم من أن الأشراف الذين يشكلون الأغلبية في الجزائر كانوا دائماً يستنكرون مثل ذلك السلوك ، فإنهم لم يستطيعوا إصلاح ما وقع من ضرر .

أعتقد أن الأمر سيكون كذلك بالنسبة لجميع الفرنسيين الحقيقيين عندما يطلعون على السلوك الاستبدادي المتبع في الجزائر إزاء جميع سكانها . إنهم سياسيون لتعاستنا ، ولقد رأيت منهم من كانوا ييكون عندما يحاطون علماً بما تقاسيه من آلام ويحتجون أمام الملاء ضد تلك الأعمال التي لم يكن في إستطاعتهم أن يمنعوها .

ولقد استمر هذا الوضع مدة طويلة في تونس ، لأن مبدأ هذه التجاوزات يرجع إلى سنة 1791 وهي الفترة التي كان منصب الباي فيها لا يعطى إلا بالمحسوبية كما سبق أن ذكرنا . وبما أن هؤلاء البايات كانوا يعلمون أن حكمهم

لا يطول، فإنهم كانوا يهتمون فقط بمضاعفة ثروتهم في أقرب وقت ممكن، وذلك على حساب الشعب، وهو أسلوب جائر يؤدي إلى إزلال الشعب إلى آخر دركة من 'دركات البؤس'، أو إلى حملة على إشعال الثورات.

عندما توفي علي، باي تونس الذي نصبه الجزائريون سنة 1754، خافه ابنه حمودة، وعلى الرغم من أن هذا الباي الجديد كان شاباً، فقد برهن على أنه يحسن التدبير عندما اتبع بالتدقيق سياسة والده. ولقد إزدهرت تونس في عهده.

وبعد سنوات من توليه الحكم، وعندما لاحظ القوضى المستولية على حكومة الجزائر والفساد المنتشر في بلاطها، رأى حمودة من واجبه أن يتدخل من المعاهدات المخزية التي ظلت تثقل كاهل بلاده منذ سنوات عديدة، وذلك للتخلص من سيطرة الجزائريين.

وفي سنة 1801 كنت غالداً من القسطنطينية صحبة خالي، فأرسلنا بتونس وأقمنا فيها أسبوعاً. وقد قام باي تونس المسمى يوسف خوجة وهو رجل فاضل بدعوتنا إلى بيته. وأثناء الحديث اشتكى بشدة من التجاوزات التي يقوم بها في تونس وكيل الجزائر ووكيل قسنطينة والرجال المحيطون بهما (4) ولاحظ لنا بأنه يخشى أن تؤدي تلك التجاوزات وتهاون حكومة الجزائر وقلة مراعاتها لتونس إلى ثورة تشتعل حتماً بسبب الخلاف الذي كان قائماً بين الحكومتين.

وعلى الرغم من أن خالي كان في خدمة الدولة، فإنه وجد ملاحظاته عادلة

(4) يقول الحاج مبارك في هذا الصدد: «فكانوا (الجزائريون) يفلظون على رعية تونس ويظلمونهم في طريقهم... وكان أهل غزن قسنطينة أهل غلظة وفظاظة لكون غالبهم من أهل البادية فلا يراعون حق السلطة بل تحملهم غلظتهم على العنف ومجازة الحد».

وأكد له بأن تلك التصرفات تتنافى مع شعور الجزائريين الذين يحبون الأمن والعدالة . وبعد ذلك قلنا إلى حمودة باشا باي تونس الذي استقبلنا بكل رعاية وحفاوة .

وبما أن العادة الجارية في الشرق تقضي بأن الأجنبي الذي يأتي إلى البلاد يقدم كدليل على الاحترام ، بعض الهدايا ، وبعض الأشياء من بلاده مقابل هدية يقدمها له . وتكون دائماً أئمن بكثير مما جاء به ، فإن حمودة باشا كان يعتقد أننا سنقوم نحوه بتلك الأياقة ، ولذلك أعدّ لنا هدايا نفيسة كان المقصود منها ، أيضا ، أنها ستجعلنا ندافع ، بطريقة غير مباشرة ، عن شكاياته لدى حكومة الجزائر . ولكننا لم نقدم له شيئا لأنه لم يكن من اللائق بنا أن نقبل مثل تلك الهدايا ، وواصلنا طريقنا إلى الجزائر .

وبعد ذلك بمدة قصيرة أحجم باي تونس عن إرسال شحنة الزيت التي تعود بنشها إلى الجزائر . وقد فعل ذلك ليعلم عن بداية اللامبالاة ، والإرادة السيئة .

وبمجرد ما ورد النبا إلى الجزائر اغتاض الداي احمد باشا غيظاً شديداً لذلك السلوك الذي كان نوعاً من القطيعة وخروجاً عن الطاعة .

والجدير بالذكر ان باي قسنطينة (5) في تلك الفترة كان شاباً بدون تجربة وأن الأثرak لم يكونوا متفقين أتم الاتفاق فيما بينهم .

(5) هو حسين بن صالح باي المشهور ، ويقول الحاج أحمد المبارك إنه « كان ولداً صغير السن ، حزيناً لا يقدر على الركوب والفزو ، ولا له معرفة بالحروب وسياسة الملك » .
(نفس المصدر ، ص 15) .

ولذلك أراد حمودة باشا أن يغتنم تلك الفرصة ، فأرسل جيشاً هاماً إلى قسنطينة حاصرها مدة سبعة عشر يوماً . وهوجمت المدينة ، بالمدفعية والقنابل ، ولكن سكانها أبدوا مقاومة مستميتة إلى أن جاءتهم النجدة من مدينة الجزائر لأنهم كانوا يعرفون حق المعرفة كيف كان تصرفهم في السابق مع تونس ومتأكدين من أن هؤلاء الأخيرين لن يعاملوهم بالحنى لو انتصروا عليهم . وبالفعل لم يلبث الآغا أن اقترب على رأس أحد الجيوش وهزم الجيش التونسي ، ثم رجع إلى الجزائر ومعه خمسمائة أسير من التونسيين . وكان أحمد باشا عبداً لهواه وقاسياً ، فأمر بختن ذلك الآغا الذي عاد منتصراً واستولى على ثرواته . وعين بعدها ابن أخيه ليخلف من أقدم على التضيحية به ، ثم نظم جيشاً آخر ضد تونس وأرسل مبلغاً هاماً من المال إلى قسنطينة لسد حاجيات الحرب . عند ذلك قام الأتراك المكونون لحامية قسنطينة بثورة ، وقتلوا باي تلك المقاطعة وكذلك الآغا الجديد الذي هو ابن أخ الباشا . ولما رجعوا إلى الجزائر أشعلوا ثورة أخرى فقتل أحمد باشا وجيء ببلي باشا في مكانه (6) .

ولم يلبث هذا الباشا الجديد أن سير جيوشاً برية وبحرية ضد تونس ، ولكنه كان دائماً يفشل في خطته ، وكانت محاولاته في ذلك الميدان بدون جدوى . ولكي يكون المشروع صالحاً وقابلاً للتنفيذ يجب أن يسير كما ينبغي وأن يكون أساسه العدل والإنصاف

ولقد كان الجزائريون ، أثناء غزوتهم الأخيرة لتونس ، قد ارتكبوا ، كما ذكرنا ، أعمالاً تصفية وإجرامية كثيرة بحيث أنها لم تنمغ من

(6) انظر الفصل السابق .

أذهان التونسيين الذين - بدلاً من أن يستسلموا - أعلنوا أنهم يفضلون الموت عن آخرهم .

ومؤخراً ، لقد أصدر التونسيون نفس الجواب عندما أرادت سردينيا إن تغزو بلادهم . وأذكر في هذا الصدد رسالة كتبت في تونس ونشرت في جريدة «لاتريين» يوم 21 ماي 1833 وكانت كالآتي :

«إن جميع الأفريقيين ، الذين يسكنون نفس القارة ، من بدو وقبائل قد شاهدوا ما جرى أخيراً ، في الجزائر ، ورأوا ما قام به الولاة الفرنسيون من تجاوزات ، ولذلك ، وبدلاً من أن ينخدعوا بالكلام المصول ، فإنهم يفضلون الحرب إلى أن يموتوا عن آخرهم .» وهكذا ، أيضاً ، عقد التونسيون العزم على أن يدافعوا عن أنفسهم ضد الجزائريين .

ومن أكبر التجاوزات التي وقعت في عهد حكومة الأتراك بالجزائر هو إعطاء منصب الباي لأشخاص بلا مروءة ولا كفاءة .

وهكذا عين المسمى مصطفى باياً على وهران ، وكان حظياً للخزناجي ومن صناعته . وللحصول على ذلك المنصب كان قد وعد بتقديم مبالغ ضخمة من المال . ولم يكن لذلك الرجل أية علاقة بالمشائخ كما أنه لم يكن يعرف أنحاء تلك المقاطعة . وميزته الوحيدة تتمثل في نهب الشعب ، وإرسال أسلابه لمجيئه . وعلى أثر هذه الأوضاع السيئة غضب الشعب وثار ، وكان على رأس الثورة المسمى ، دواغوي ، وقد استولى الثوار على معسكر بعد حصول قصير ، ثم ساروا ضد وهران وحاصروها .

وعندما رأى مصطفى باي استحالة صد ذلك الجمهور من الناس ومحاربتهم ،

سدم أبواب المدينة وركز قواته وراء الحيطان ، ثم أخبر الجزائر بالحادث عن طريق البحر . وضبطت الحكومة أمرها لاسترجاع السلطة وإقرارها ، فأخمدت الثورة ، لا بالقوة وإنما بالاعتدال . وعينت باباً آخر قوي النفوذ في أوساط الشعب وله علاقات ودية وروابط قرابة مع مختلف المشايخ . وبالإضافة إلى ذلك ، كان ابناً لابن قاره محمد الذي انتزع وهران من الإسبانيين .

ولكن الطرق بين الجزائر وهران كانت مقطوعة ، فاضطر الباي الجديد إلى المجيء لـ «وهران» عن طريق البحر . وبمجرد ما وصل فتح أبواب المدينة وخرج إلى الدرقاوي بنفسه على رأس الجيش ، ولما انضم إليه أنصاره هزم المتمردون ووقع تشتيتهم .

كان هذا الباي الذي خلص وهران من المتمردين ذا كفاءة ومروءة . وقد ساعد وجوده في تلك المقاطعة على تحقيق الأمن العمومي . وعلى الرغم من ذلك فإنه عزل بعد سنوات قليلة ، وقتل ليخلفه نفس مصطفى الذي كان باباً قبله ، والذي لم يكن له من فضل إلا رعاية الخزانة له كما سبق أن ذكرنا ذلك .

وبعد ذلك بمدة قصيرة عين مصطفى خزانة ، وخلفه في تلك المقاطعة ديلي باي شقيق قاره محمد باي .

ونفس هذه الأعمال قد تعرض لها بابايات قسنطينة . ومن جملة ما نتج عنها ظهور أحد المغامرين على رأس حزب من المتمردين . يسمى ذلك المغامر :

ابن الأحرش (7) ؛ وقد أقام مقر قيادته في نواحي بجاية ليتمكن من التجصن في الجبال المجاورة لتلك المنطقة .

كان باي قسنطينة ، في ذلك الحين ، هو عثمان بن قاره محمد . ولما أراد هذا الباي أن يطبق أحد مبادئ السياسة القاتل بأن الجسم لا ينتصر عليه إلا عضو من أعضائه أو جزء من أجزائه ، فإنه عمل على الاتفاق مع قادة القبائل ؛ فوعدهم بهبات كبيرة لو أنهم وافقوا على التخلي عن رئيس المشوشين وخنأوا قضيته . ولكنه فشل في محاولاته وذهبت مجهوداته أدراج الرياح .

لم يكن عثمان باي من صنيعة الخزناسي ، ولذلك وسوس هذا الأخير للداي بأن سبب الثورة هو ذلك الباي الذي لم يحمدها لأنه كان متفقاً مع المتمردين . وقد نتج عن هذا التدخل أن أرسل الداي للباي برقيات شديدة اللهجة ووليدة الغضب ، يسأله فيها أن يعترف ببعجزه أو أن يبعث له برأس الفتنة .

ولم يكن باي قسنطينة قد تعود على سماع مثل هذه اللهجة ، ولذلك فهم بأن روحاً شريرة قد تدخلت في الموضوع ؛ وإن تلك الروح هي خصمه الخزناسي وعلى أثر ذلك الأمر الملح والمهدد ، خرج الباي من قسنطينة كالبائس على رأس كل ما استطاع أن يجمعه من جيوش ، وهاجم بعنف تلك

(7) هو الشريف بن الأحرش : رجل مغربي كان يزعم أنه من شرفاء ملوك فاس ، دخل وسط القبائل ووعد الناس بأخذ قسنطينة . وسبب عيبه إلى الجزائر أنه كان يقود ركب الحجيج عندما وقعت الحملة الفرنسية ضد مصر ، فتوقف بالقرب من الإسكندرية وشارك في القتال ضد جيوش بونبرت . وقد اشتهر ، في جميع المعارك التي خاضها ، بالشجاعة والإقدام والمقدرة على تسيير المحاربين . وبعد أنصر تحالف مع الإنكليز فأعادوه ومن معه إلى مدينة عنابة ، ثم ذهب إلى قسنطينة ومنها التحق بالجبال واستقر بمدينة جيجل حيث بدأ يجمع الأنصار .

الجموع المكونة من القبائل . ولكنه عندما وصل إلى مر جبلي ضيق جداً ، تعرضت له القبائل وصدته بنجاح ؛ وقد كانت الطلقة الأولى موجهة إليه فأصابته . ثم هزم جيشه هزيمة نكراء بعد أن لاذ بالفرار . وسقط المسكر ، فتفاسم المنتصرون ما كان فيه من غنائم . وقد أسر ، في تلك الظروف ، كثير من الأتراك ، مضى زمن طويل قبل أن يتمكنوا من الفرار أو من أن يطلق سراحهم .

وعندما تولى الحكم الحاج علي باشا (8) ، كانت مقاطعة قسنطينة في بؤس شديد ، وكانت الزراعة تكاد تكون معدمة . وهذا الوضع هو عكس ما كان موجوداً في غربي البلاد . ففي تلك الأثناء ، أراد ذلك الباي أن يفزو تونس ؛ وعين لرئاسة الجيش دالي ، باي وهران ، لا لأنه كان يعتمد على قوته ، ولأن جيشه كان منظماً كما ينبغي وعلى أحسن ما يرام فحسب ، ولكن لأن ذلك الباي كان رجلاً يعترف الجميع بكفاءته .

ولكن ، بما أن دالي باي كان يعرف جيداً مصدر الحقد الموجود بين الشعيين ، وإن التونسيين يفضلون الموت عن آخرهم بدلاً من الاستسلام للجزائريين ؛ وبما أنه كان يخشى ، كذلك ، أن تحدث الاضطرابات في مقاطعة وهران بعد أن يغادرها ، فإنه رفض - لكل هذه الأسباب - قبول القيادة التي عرضت عليه .

ولم يكن الحاج علي باشا ليتفهم مثل هذه الأسباب ، وعلى العكس ، فقد ألح بشدة على أن يسير الباي ضد تونس واعداً لإياه بأنه سيرتك له كنوز تلك الإيالة ، وبأنه سيحظى بشرف النصر . وليثير نعرته كتب إليه الداي قائلاً :

(8) انظر الفصل السابق .

« إنك كرغلي، وباي تونس أيضاً كرغلي؛ فأنت، إذن، لا تريد أن تلحق الضرر بأخيك .إنك تفضل عصياني على أن تحاربه » .

ولما رأى ذلك الباي استحالة السير ضد تونس ، وتأكد من أن الداوي سيعاقب عصيانه ، عقد العزم على إعلان الثورة ؛ وليحصل على السلم شوش ومنع جميع الطرق التي تصله بالجزائر .

ولكي ينتقم ، سَير الحاج علي باشا جيشاً ، ضد وهران ، تحت قيادة عمر آغا (9) . وقد تحققت رغبة ذلك الطاغية بكل نجاح ؛ واضطر الباي المسكين إلى الاستسلام للجيش فحكم عليه بالإعدام . كما ان زوجته وأطفاله قد تعرضوا للمعاملة سيئة ، ثم حملت جميع ثرواته إلى الجزائر وعين باي آخر في مكانه .

لقد تكررت مثل تلك التعيينات إلى أن تولى حسن باي الذي سلم وهران للفرنسيين . وكان حسن باي هذا صهراً لباي وهران القديم : دالي باي . وقد ساهمت هذه القرابة مساهمة كبيرة في ازدهار تلك المقاطعة . واستطاع حسن ، على وجه الخصوص ، ان يطبع إدارته بالاعتدال طوال الأربعة عشر عاماً التي دامها حكمه .

كان ذلك الباي يحكم بعطف أبوي، فلا يفرض على الشعب إلا ضرائب قليلة ولا يستعمل العنف ضده أبداً . ولأجل ذلك ازدهرت المقاطعة لإزدهاراً كبيراً وكان السكان يعترفون له بالجميل .

(9) انظر الفصل السابق .

وعلى الرغم من أننا ذكرنا بان الأتراك كانوا قد قرروا ألا يرفعوا واحداً من الكراغلة إلى رتبة باي ، فإن الضرورة ، وحسب الحرية والاعتدال الذي يميز حسين داي قد جعلاه يعين الحاج أحمد على قسنطينة ، وهو ما يزال ، إلى يومنا هذا يشغل ذلك المنصب .

وقبل أن يكون باباً، كانت مقاطعته فقيرة ، والأراضي مهملة إلى درجة ان السكان لم يكونوا قادرين على تسديد الضرائب القليلة التي لا تدفع ، مع ذلك ، إلا كل ثلاث سنوات .

وإنني أذكر ، عندما قدم باي قسنطينة بنفسه إلى الجزائر ، ان الباشا كان - لكي يخفي فقر تلك المقاطعة - قد أرسل له سرّاً ومسبقاً مبلغاً من المال ليتمكن ، عند وصوله ، من أن يحضر كما جرت العادة وبكيفية مشرفة .

وهكذا، إذن، فإن الحاج أحمد باي قد عين في قسنطينة لأجل كفاءته واستحقاقه، والدليل على ذلك أنه عرف كيف يبقى حتى بعد سقوط الحكومة التركية ، كما أنه عرف كيف يكون لنفسه ثروات طائلة بفضل ارتباطاته مع مختلف القبائل. وسأعطي، حول ذلك، تفاصيل أكثر دقة عندما أتكلم، فيما بعد ، عن الرحلتين اللتين قمت بهما إلى قسنطينة .

لقد بدأت تجاوزات الأتراك والفوضى الناتجة عن عزل البايات سنة 1791 ، واستمرت إلى غاية 1818 وهي السنة التي وصل فيها حسين باشا إلى الحكم .

وحسين باشا هو آخر داي تركي في الجزائر. وينتمي هذا الرجل الفاضل إلى أسرة كريمة، كما يتمتع بثقافة واسعة. وقد خدم الإيالة أكثر من ثلاثين سنة.

وبما أنني أعرف طبعه ، فلنني أستطيع القول بأنه من ذلك الأصل التركي العريق ، أي أنه شريف النفس كريمها . ولا أعتقد ان هناك من يستطيع إتهامه بالطمع . فقد حرص دائماً على عدم إراقة الدم البشري ، ووفائه فيما يخص القيام بالالتزامات معروف في كامل أنحاء أوروبا . ولما أنه لا يوجد بلاط واحد اشتكى من ان حسين باشا قد خرق المعاهدات التي أبرمها سواء مع القوي أو مع الضعيف ، فلنني متيقن من أنه ، بهذا الصدد ، سينصف كما ينبغي .

أما عن تلك الحرب المشؤومة التي أجبرته على ترك الحكم ، فاننا سنرى فيما بعد وبالتفصيل ان الحظ إنما خانته بسبب أخطاء وكراته والميليشيا . كما ان حاشيته كانت تشتمل على كثير من الأشخاص ممن ليس لهم مبادئ ولا تجربة ولا شجاعة . ولقد كان ، أثناء ولايته ، ينوي ان يعيد الأمن والانضباط الى نصايبهما ، لأنه ، عندما تولى ، كان قد وجد الحكومة تتخبط في فوضى يصعب وصفها . وكانت هناك تجاوزات قديمة ، وجدت منذ سنوات عديدة . وللتمكن من القضاء على الشر ، ولتطهير حكومة الولاية ، كان لا بد ان يتدخل الحظ ، وان تدوم ولايته مدة أطول . واذا كان هناك ما يلام عليه ، فيما يخص حكومته ، فهو أنه لم يسترجع الديوان القديم ليتمكن من المداولة حول أهم القضايا ، والإفادة من النصائح التي يمكن ان تصدر عن تجربة القلماء ومعرفتهم لتكون نبراساً يتبدى به . ويجب ، كذلك ، ان يسند اليه خطأ كونه لم يستعمل جميع الوسائل الممكنة لمنع الحرب التي وقعت مع فرنسا .

— انتهى الكتاب الأول —

الكتابُ الثاني

الفصل الأول

الحرب وأسبابها

إن الأصل أو الأسباب الأولى لهذه الحرب المشؤومة التي سببت بؤس جميع الجزائريين سيجعل الأجيال المقبلة تدين الفرنسيين لأنهم مسحوا بوقوع جميع الأحوال التي أصبحت الجزائر منسحقاً لها ، لكي لا نقول : التي سلطوها عليها . لقد كنا نعتقد أن الأنكار التعصبية الضيقة قد نسيت في القرن التاسع عشر ، وإن عصر تحرر الشعوب قد حان ، وإنه أصبح من المحتوم اعتبار جميع سكان المعمورة كأمة واحدة .

نقول إذن ، إن أحد الأسباب الأولى لهذه الحرب هو المطالبة التي تقدم بها بكري (I) للحكومة الفرنسية فيما يخص ديون يرجع تاريخها إلى الثورة ،

(I) هو لقب لأسرة يهودية قدم رئيسها الأول - ابن زقوط - من ليفورنه إلى مدينة الجزائر سنة 1770 . وكان لزقوط هذا أربعة أبناء أسسوا في مستهل العقد الثامن من نفس القرن شركة تجارية لم تلبث أن اتسع نشاطها وصارت تتعامل مع الخارج . وأهم ما قامت به تزويد فرنسا بالحبوب والاندماج في مؤسسة أخرى يهودية كان يقودها حفيد ابن زقوط السيد نفتالي بو جتاج . أما الأخوة بكري فهم : يوسف ومردوشي ويعقوب وسليمان .

قبل عهد الامبراطورية ، ترتبت عن تزويدات في مادة الحبوب كنا قد
تكلمنا عنها .

ولقد حددت الحكومة الفرنسية ، بقرار ، ثمن هذه التزويدات بسبعة
ملايين من الفرنكات (2) . ولكن التسديد طال كثيراً وبقي سنوات متعددة.
وكان الاعتراف باسم بكري وشريكه ميكائيل بوجناح (3) . وبما أن بكري
كان مديناً لخزينة الجزائر بمبالغ هامة تمثل قيمة كميات من الصوف اشتراها
من الدولة ، فإنه كان يعتمد على التصفية لدفع هذا الدين وغيره من الديون
التي ترتبت عليه في فرنسا . وتقدم عدد كبير من دائني بكري إلى الخزينة
معتضين على الدفع وقد تعقدت التصفية نتيجة لهذه الاعتراضات .

ولما رأى هؤلاء اليهود أن تسوية القضية ما تزال بعيدة ، شرعوا في

(2) كان هذا المبلغ في بداية الأمر 24 مليوناً من الفرنكات كما ورد في محضر اللجنة
التي كونها الملك لويس فليب لهذا الغرض. ثم وقع اتصال بالمعنيين وجرت مفاوضات نزل
المبلغ بمقتضاها إلى سبعة ملايين أبرم في شأنها اتفاق ، أمضاه الملك نفسه يوم 28 أكتوبر
1819 . وينص ذلك الاتفاق على أن الدين يدفع مباشرة في ظرف عام ابتداء من فاتح مارس
1820 .

(3) هو حفيد ابن زقوط كما رأينا ، فلمت أسرته من ليفورنه إلى مدينة الجزائر في
نهاية الربع الأول من القرن الثامن عشر . وقد بدأ نجمه يلمع في عالم التجارة سنة 1782 .
وفي مستهل العقد التاسع ، استطاع بدعائه ومكره أن يكسب ثقة الداوي حسن ويصبح مستشاراً
له ذا نفوذ لا مثيل له ، حتى أن المصادر الغربية كانت تسميه ملك الجزائر . ونتيجة لتعسفاته
التي كان يقوم بها ضد الأهالي تطوع أحد جنود الميليشيا وقتله رمياً بالرصاص صباح يوم 28
جوان سنة 1805 ، في عهد الداوي مصطفى باشا الذي سيلقى نفس المصير بعد ذلك بقليل .

مفاوضات مهلكة . فوقوا سندات بمائة ألف فرنك وتنازلوا عنها بعشرين ألف لأن المهم عند هؤلاء اليهود هو أن يحصلوا على الدراهم . وفي هذه الأثناء تقرب بكري من قنصل فرنسا السيد دوفال ووعدته بمبلغ هام إن هو عمل على الإسراع بالتصفية في باريس . ويزعم البعض أنه أعطى الدراهم نقداً إلى القنصل المذكور ، ويقول آخرون بأن القنصل لم يحصل إلا على الوعود . وفيما يخفني ، فإنني لا أعرف شيئاً إيجابياً عن هذا الموضوع ، وعليه فإنني أكتفي ، هنا بتريديد ما سمعته من الناس . ولكنني أعرف أن كثيراً من المناورات وقعت بشأن هذه القضية حتى أن حسين باشا قرر أن يرسل بنفسه إلى الحكومة الفرنسية للإسراع بالتصفية دون أن يعلم بأن أعمال غير لائقة قد تمت في هذا الموضوع وأن السبب الوحيد الذي جعله يقبل التدخل في الأمر هو أن بكري كان جزائرياً ، ومدينناً لخزينة الإيالة : فكان الباشا يأمل ، بعمله هذا ، أن يسترجع أموال الدولة .

يقال ، أيضاً ، أن نفس السيد دوفال قد ساهم ، لفائدته الخاصة ولكن باسم جماعة من أصدقائه ، في بعض تلك المفاوضات التي أهلكت بكري ، وأنه استغل احتياج هذا اليهودي وشريكه . ويقال كذلك ، أنه كان ينوي أن يستولي مع أصدقائه على مجموع ذلك المبلغ الهام الذي كانت الحكومة الفرنسية مدينة به لبكري . وبالفعل ، فإن أحداً لم يستفد من الدين غير السيد دوفال وأصدقائه .

ولتسهيل التصفية في باريس ، ولكي تدفع الحكومة الفرنسية ذلك المبلغ احتراماً للداي فإن السيد دوفال قد وعد بأنه سيحضر للعاقل المذكور المبلغ المترتب على بكري لفائدة الخزينة (الجزائرية) . وعلى الرغم من أن الداى

سلم لدوفال البرقية التي طلبها منه ، فإن شيئاً لم يتم من وعود القنصل وواصل الداي بدون جدوى إرسال برقيات أخرى إلى الحكومة الفرنسية مستعملاً لذلك طرقاً مختلفة وبالطبع ، عال صبر الداي لعدم تلقيه اجوبة من الحكومة الفرنسية جاهلاً أن هذه الأخيرة لم تطلع على أي واحد من مطالبه المختلفة .

لقد جرت العادة أن تقوم قناصل الدول الأوروبية المعتمدين لدى الجزائر بزيارة لإكرام إلى الداي بمناسبة اليوم الأول من اليرم (4) ، وكان القنصل الإنكليزي والقنصل الفرنسي يتنافسان البصدارة في هذه المناسبات . ولذلك ، ولتجنب كل مناقشة قرر الداي أنه يستقبل الواحد عشية الاحتفال والآخر في يوم العيد نفسه . وعلى هذا الأساس جاء السيد دوفال عشية عيد اليرم ليؤدي زيارته للداي بحضور جميع أعضاء الديوان . وكان هذا القنصل لا يجيد التركية إلا كما أتكلّم أنا اللغة الفرنسية ، فلا يعرف معانيها ولا عبقريتها . وبعد الحفل ، سأل الباشا القنصل لماذا لم تجبه حكومته عن برقياته العديدة الخاصة بمطالب بكري . فكان جواب السيد دوفال في منتهى الوقاحة إذ جاء كالآتي :

« إن حكومتي لا تتنازل لإجابة رجل مثلكم » .

نستطيع لصالح السيد دوفال أن نقول بأن إجابته هذه كانت بسبب جهله للغة ، لأن الفرنسي الأصيل لا يتلفظ بكلام بذيء مع إنسان عادي ، ناهيك إذا كان ذلك الإنسان رئيس إيالة . ومما لا شك فيه أن الداي كان يمكن أن يعذر السيد دوفال لو وقع ذلك بمناسبة أخرى ، ولكن هذه الكلمات ، أمام ديوانه ، قد مست كرامته إلى درجة أنه لم يتمالك نفسه من الغضب وضربه بالمروحة ضربة واحدة . (هذه المروحة مصنوعة من سعف النخيل) . إن حسين باشا

(4) كلمة تركية تعني عيد القطر .

أبعد من أن يكون رجلاً قفلاً . وكل إنسان يعرفه لا يمكن أن يتهمه بالخشونة .
والني لأحكم ، في ذلك ، جميع القناصل الأجانب .

وعلى ما يقال ، فإن القنصل قد أفاد من الظروف ، ولتغطية سلوكه وإسداد
ستار النسيان على عباراته الوقحة ، عرض ضربة المروحة بكيفية غير مؤاتية للداي .

ولما علم الداي أن لجوزيف بكري ، أحد قادة المؤسسة اليهودية ، ديوناً
في ذمة البلاط الإسباني ، وأن تلك الحكومة كانت مدينة له بمبلغ هام زيادة
على الفائدة المتركمة منذ حوالي عشرين سنة (كان بكري يزعم أن ماله من دين
على الحكومة الإسبانية يبلغ خمسة ملايين من الفرنكات) ، فإنه طلب من
قنصل هذه الأمة أن يكتب لحكومته ملزماً إياها بتصفية هذا الدين وبتسديده
إلى خزينة الجزائر وعلى أثر مناقشة حادة جرت في هذا الموضوع بين الداي
وقنصل إسبانية ، غادر هذا الأخير المدينة وركب سفينة من سفن بلاده .
عندئذ ، دعاه الداي إلى الهبوط ، وجلب انتباهه إلى أنه لا يجب أن يخلق
المشاكل ، وبأنه لم يكن ينوي الإساءة إليه ، وأن العبارات التي وجهها له لا
تخص إلا الحكومة التي يمثلها . ولما رفض القنصل النزول إلى الأرض ، قال
له الداي بأنه يعتبر تماديته في الرفض قطيعة بين الحكومتين .

وعلى الرغم من ذهاب القنصل ، فإن الداي لم يتصرف بشدة ، بل على
العكس ، فإنه اتجه بود إلى البلاط الإسباني مطالباً بحقوقه ، ومقترحاً على
الحكومة الإسبانية طريقة للتفاهم بينها وبين بكري .

وبما أن إسبانيا لم تكن وافقة ، ولما الحق في ذلك ، على دفع فائدة قدرها
ثلاثون في المائة ، كان بكري يطالب بها ، فإن الداي اقترح عليها أن تدفع

له مليوناً من الفرنكات مقابل أن يجعل حداً لادعاءات بكري وأن تسوى القضية تسوية نهائية . وزيادة على ذلك ، طالب الداي بمبلغ 500,000 فرنك كتعويض لمصاريف الحرب . وقد كتب هذه البرقية الأخيرة بخط يده . ولما وافقت الحكومة الإسبانية على الاقتراح المعقول ، فإن الصداقة قد عادت إلى ما كانت عليه في الحين .

وعندما تم دفع المبلغ المذكور ، وزع المليون بالتقسيط على من كانت لهم ديون في ذمة بكري ووقع ذلك بمحضر هذا الأخير ، وعلى مشهد من الخزانجي للتأكد من السندات . أما الخمسمائة ألف فرنك ، فلأنها صبت في الخزانة كتعويض لمصاريف الحرب كما سبق أن ذكرنا . وقد دفع الداي من هذا المبلغ الأخير خمسين فرنكاً لكل جندي بحيث لم يبق للخزانة إلا حوالي خمسين ألف فرنك .

لقد رفض الداي تلك النسبة المرتفعة من الفائدة لأن القوانين الأوروبية لا تعترف سوى بخمسة في المائة ، ولأن قوانيننا لا تسمح بالرأى مهما كان نوعه . هذه هي الأحداث التي جرت في تلك الظروف وقد كنت عليها شاهد عيان .

لقد كان للداي كرئيس دولة وكأب للشعب وولي للأيتام تعرف به القوانين ، كل السلطة لتسوية هذه القضية . وكان لبكري شريك ، هو أخوه ، يوسف الذي هلك وترك وراثته ، ولذلك كان من المحتوم عليه أن يرضع حداً لهذه المسألة .

وعندما دخل الجنرال دوبرمون إلى الجزائر ورأى بكري أنه كان يحسن

وفادته توجه إلى حسين باشا ومعه وثيقة رسمية تثبت أن بكري أودع في الخزانة مبلغ خمسمائة ألف فرنك ، وطلب منه أن يوقعها له مقابل 125,000 فرنكاً . وقد كتب هذه الوثيقة بخط يد اليهودي نفسه أما الخمسمائة ألف فرنك ، فإنه كان يريد الحصول عليها كبقية من حسابه مع إسبانية . وهكذا رجا من الداي أن يوقع هذا الاعتراف الذي كان ينوي أن يقدمه للقاضي والمفتي يصادقان عليه ، وكان تأكداً على حد زعمه أنه سيحصل على المبلغ . وبعد أن تأمل الداي في هذه الوثائق رد بكري خائباً دون أن يوقع ولا أن يضع ختماً . ومع ذلك فقد أبقى عنده تلك البيانات التي أعدت لارتشائه ، وأجاب الراشي قائلاً : إن شرفي يمنعني أن أقوم بمثل هذه الأعمال . ويقال إن الداي أعطى لهذا اليهودي ، قبل أن يطرده ، صدقة يتراوح قدرها ما بين 7 و 8 آلاف فرنك ، قدمها له من أمواله الخاصة لمساعدته وإعالة أبنائه ، وذلك لأن بكري كان آنذاك ، في وضع مادي يرثى له .

يقال أن بكري طلب من الحكومة الفرنسية أن تدفع له الخمسمائة ألف فرنك . لست أدري كيف يمكن أن يبرر طلبه هذا ، وكل ما أستطيع قوله هو أن ما ذكرته الآن ، عن وعي ، وقع كله بمحض رمي .

وفيما يخص طلقات المدفعية المشؤومة التي وجهت للسفينة البروفانس (5)

(5) هي السفينة البرلمانية التي كان يركبها السيد دولابروتونيار ، والتي وصلت إلى ميناء الجزائر يوم 30 جوليت سنة 1829 لتفاوض مع سلطات الإيالة حول إمكانية التوصل إلى حل للأزمة القائمة بين الدولتين منذ أكثر من عامين . ولما فشلت المحادثات ، أبحرت السفينة ، وبدلاً من أن تأخذ طريقها مباشرة إلى فرنسا ، مالت كثيراً إلى الساحل واقتربت من الحصون الحربية حتى ظن بعض القادة الجزائريين أنها تنجس عليهم ، فأمر بإطلاق النيران حولها ليعتد . ولو كان الغرض هو تخريبها لما تعدد ذلك ، لأن المصادر تذكر بأنها كانت قريبة جداً من المدفعية ، وأن الريح كانت في ذلك الحين غير مؤاتية للملاحه .

والتي ضاعفت من الأسباب وجعلت فرنسا تقرر الحرب وعجلت بؤسنا
 وخربنا ، فلأنني أستطيع التأكيد بأن حسين باشا (6) لم يكن على علم بها ولكننا
 نقول باللغة العربية . إن السيد مسؤول على أخطاء عبده . فلو أن الداي كان
 قد عين في وزارة البحرية رجلاً أهلاً للمنصب لما وقعت الحرب ولما انتهت
 الحصانة البرلمانية (إن عزل هذا الوزير ، وإبعاد رئيس المدفعية الذي أمر
 بإطلاق النيران لم تكن لها أية نتيجة بالنسبة إلينا) وفي الحين ، توجهت بنفسي
 إلى الآغا وطلبت منه أن يخبر الباشا أنني أعتقد ، حسب رأيي ، بأن ما وقع
 سيعتبر خيانة ، وهو مناف لشريعتنا ولقوانين المجتمعات والحضارة .

ولفضل هذا العار الذي أصابنا كان يجب على الباشا أن يرسل ، حيناً ،
 سفيراً إلى فرنسا يعرض الأحداث ، ويعترف أمام الملأ بأخطائنا ، ويخبر
 بعزل الوزير وإبعاد رئيس المدفعية . وفي حالة ما إذا طلبت الحكومة الفرنسية
 من السفير تفسيرات حول مبدأ الحرب يقتصر على الإجابة بقوله : إن مهمتي
 خاصة وهي ترمي إلى الاعتراف بأخطائنا وتقديم توضيحات حولها ، أما عن
 مسألة الحرب ، فنعقد أننا على صواب . ومن حقكم أن توفلوا رسولاً إلى
 الداي وأن تتخلوا عدلنا كمثال تقتلون به . ثم ينهي الرسول كلامه قائلاً :
 إن الداي متأكد من أن الحكومة الفرنسية سترضى بالاعتذار الذي كلف
 بتقديمه ، وأنه يأمل أن يقع التوصل إلى الاتفاق حول القضية الرئيسية التي زاد

(6) هو آخر الدايات ، تولى الحكم مرضعاً سنة 1818 . وكان رجلاً عالماً وشجاعاً
 حكيماً . في عهده أصيبت البليدة بزلزال ، ووقعت حادثة المروحة والحصار سنة 1827 ،
 ثم الاحتلال سنة 1830 . أكبر خطأ ارتكبه أثناء ولايته هو سماعه لقواشين في قضية يحیی
 آغا الذي كان أكبر قائد عسكري عرفته الإيالة في عهد الآغاوات والدايات .

في تعقيدها السيد دوفال (7) عندما لوث شرف حكومته بأعمال الرشوة ،
وباحتجاز برقيات الداي .

ولو تمّ الأمر على هذا النحو ، لكان من الممكن ، بعد هذه التوضيحات ،
أن نعود المياه إلى مجاريها بين الجزائر وفرنسا ، وأن يُتجنبَ كثير من الشرور .

(7) هو آخر قنصل فرنسي في الجزائر قبل الاحتلال . كان في نفس الوقت تاجراً ،
تورط في كثير من القضايا مع محلات بكري وبوجناح ، ولقد كانت مواقفه الشخصية من
الأسباب التي زادت الوضع تعقيداً عندما وقعت الأزمة الأخيرة بين الجزائر وفرنسا .

الفصل الثاني

قصة وصول الجيش إلى سيدي فح

لقد كتب حسين باشا إلى القبائل والعرب يخبرهم بالنوايا العدوانية التي يضمها لهم الفرنسيون ، ويأمرهم بأن يستعدوا ويكونوا رهن الإشارة . فأجابوه بأنهم مستعدون وبأنهم لا ينتظرون سوى أوامر الباشا لیسارعوا إلى نصرته. كما أن حسين باشا كتب إلى باي وهران (1) وأوصاه بتحسين مدينته وباليقظة وأمر باي قسنطينة (2) بتحسين ميناء عنابة (3) : و بما أن هذا الأخير لم يأت إلى الجزائر منذ ثلاث سنوات ، فإنه أمره بالمجيء وفقاً لما جرت عليه العادة ، ودون أن يزعم القبائل .

(1) هو حسن باي الذي دفعته ثروته وشيخوخته إلى الاستسلام دون مقاومة . ولقد حكم مدة 7 أشهر باسم الفرنسيين وفي نهاية الأمر اضطر إلى القرار إلى الاسكندرية ومنها إلى مكة حيث قضى أيامه الباقية .

(2) هو الحاج أحمد باي الذي تكلمنا عنه في الكتاب الأول .

(3) كانت عنابة ميناء تجارياً تحت تصرف الفرنسيين إلى أن وقع الحصار سنة 1827 .

وأمر الباشا ، كذلك بإحصاء العمال في مدينة الجزائر ، وبأن يرسل إلى الحصون للمساهمة في مناورات المدفعية ، جميع القادرين ، وبأن يعين قائد على رأس كل فيلق .

لقد كان الآغا إبراهيم صهراً للباشا ، لكنه لم يكن قائداً ممتازاً في يوم من الأيام ، ولم يكن يعرف الشيء الكثير من التكتيك العسكري ، وكان سابقه يحيى آغا (4) قد شغل هذا المنصب مدة اثني عشرة سنة في عهد حسين باشا . فشهد كثير من المعارك التي جرت بين العرب والقبائل ، وكان مدة ما بقيت ، لا يعرف الركود على الإطلاق . لقد كان شديد الطموح ، صائباً في منطقته ويعرف كيف يجب نفسه خاصة إلى العرب والقبائل ، ولو أنه ظل في هذا المنصب مدة أطول لاستفادت الجزائر منه أشياء كثيرة على ما اعتقد . ولكن الحسد والغيرة اللذين أثارهما في نفس الخزناسي ، نتيجة مكانته عند الباشا وعملي هذا الأخير بتصانحه ، قد جعلتا الخزناسي يتآمر ضده . وقد تمت الدسيسة بواسطة تقارير كاذبة وشهود زور كان وعدهم بمناصب عندما تنجح الخطة . وبهذه الطريقة عزل يحيى آغا ، ثم نقاه الباشا إلى البليدة واستبدله بصهره إبراهيم وهو رجل لا منطق له ولا كفاءة كما سبق أن ذكرنا .

ونحني المتآمرين أن تنكشف أفعالهم ، وإن يعود منافسهم إلى الحكم فحاكوا خيوطاً جديدة وأنهموه بأنه يتفاهم مع مختلف رؤساء العرب والقبائل ،

(4) أشهر قائد عسكري عرفته الجزائر في عهد الآغوات والدايات . صاحب فضل كبير على أحمد باي إذ هو الذي شفع فيه وساعده على تدعيم سلطته في شرق الإيالة . ويعتبر قتله أكبر خطأ ارتكبه حسين داي في حياته .

وأن هؤلاء الرؤساء كانوا يزورونه ليلاً ، وأنه كان يعقد الاجتماعات في بيته لمهاجمة الجزائر وللإستيلاء على الحكومة وتعيين نفسه على رأسها ، وبالا اعتماد على هذه المزاعم ، قدمت وثائق مزيفة تشبه الحقيقة وتم اقتناع الباشا بأن الآغا السابق يخفى خائناً ، فأمر بإعدامه .

من السهل أن ندرك ، بعد هذه التفاصيل ، بأنه لو كان يحى ، أثناء هذه الحرب الأخيرة ، على رأس الجيوش الجزائرية لكان سير الأمور أحسن ، لأن التجربة التي حصل عليها في البر والبحر وشجاعته في جميع الحالات ، كلها كان يمكن أن تشكل ضماناً بالنسبة للجندى الذي يحارب تحت إمرته .

وبما أن إبراهيم قد عين آغا خلفاً ليحيى ، بعد حادثة « البروفانس » المشؤومة ، فقد أرسل له مخطط الفرنسيين ، وأخبر بالمكان الذي كانوا ينوون النزول فيه ، كما أحبط حليماً بالعدد الصحيح فيما يخص مكونات الجيش من سفن وجنود (5) : وعلى الرغم من هذه المعلومات المنتجة ، فإنه لم يعد أي شيء ولم يتخذ أي نوع من التدابير ولم يعط أي أمر ، بل كان يزعم أنه عندما تطلأ أقدام الفرنسيين الأرض ، سيطوقهم بالقبائل الذين لم يكونوا تحت تصرفه ، لأنه كان يجب أن يعطي الأوامر مسبقاً ، لكي يتسنى لهم أن ينتقلوا إلى الأماكن المعلومة بدون تعب ولكي يتمكنوا من صد الأعداء . وبالفعل ، فإن قدوم البعض يتطلب أسبوعاً بينما يقتضي مجيء غيرهم أكثر من ذلك . وإذا كانت

(5) يقول الباي أحمد في مذكراته : « عندما مثلت بين يدي حسين داي قال لي : لم يعد لديكم سوى ما يكفي من الوقت للخروج للفرنسيين الذين سينزلون بسيدي فرج . إنني أعرف مكان النزول بواسطة الرسائل التي تصلني من بلادهم وعن طريق منشور طبع في فرنسا وأرسله لي جواسيس من مالطة وجبل طارق (مذكرات أحمد باي الصفحة الأولى) .

جماعة تستعمل الخيل ، فإن هناك من يأتي راجلاً . أما الخيالة العرب الذين يستحقون الشهرة التي حصلوا عليها ، فلأنهم يقيمون بعيداً ، في أطراف الإيالة ، كما أن هؤلاء الأبطال أيضاً ، لم يتصلوا بأي أمر . وعلى هذا الأساس فإن الجيش الذي كان يحيط بهذا الآغا لم يكن مكوناً إلا من سكان متميجة الذين لا يعرفون سوى بيع الحليب . لقد سمعت من يقول لهذا الأبله أن له تحت تصرفه خمسة آلاف سارق سيعملون ليلاً على مفاجأة الفرنسيين في جميع الأنحاء ويجعلونهم يتحاربون فيما بينهم . أما العدد الضئيل من القبائل الذين كانوا يأتونه ، فلأنهم لم يحصلوا ، بالنسبة لهم ولخيلهم ، لا على مؤن ولا على ذخيرة ، وبما أنهم لم يكونوا يستطيعون حتى شراء ذلك على نفقتهم الخاصة فلأنهم كانوا يعودون من حيث أتوا ويتركونه وحده . . .

وفي سيدي فرج لم تحضر المدفعية ، ولم تحضر الخنادق ولم يكن هناك سوى اثني عشر مدفعاً كان الآغا السابق قد نصبها في بداية إعلان الحرب .

وفي اليوم الذي نزل فيه المارشال دوبرمون مع جيشه لم يكن تحت تصرف الآغا سوى 300 فارس ، ولم يكن مع باي قسنطينة إلا عدد قليل جداً من الأجناد (6) ، لأنه لم يكن مستعداً لخوض المعركة . وكان باي التيطري (7) في المدينة

(6) يقول الباي أحمد : إنني جئت إلى العاصمة كالعادة أحمل الدنوش ، ولذلك لم أصطحب معي سوى حوالي 400 فارس . ومن جملة القادة الذين كانوا معي : ولد مقران وابن الحملوي آغا ، وشيخ ريفا وقائد الزمالة والعربي قائد ابن عاشور وشيخ بوشنان .

(7) يذكر الباي أحمد أن باي التيطري كان موجوداً في الجزائر قبل النزول ، وأنه حضر مجلس الحرب الذي ترأسه الآغا إبراهيم ، وشارك في جميع المعارك وخاصة معركة سيدي فرج وسطاوي .

ولم يصل منها إلاّ بعد بضعة أيام ولقد سمعت أن نزول المارشال دوبرمون كان صدفة وأنه كان معرضاً لأخطار جسام لأنه أنزل الرجال قبل المؤن والمدفعية . وظلت الأمور على هذه الحال ثلاثة أيام بسبب الرياح المعاكسة التي كانت تبعد سفن النقل . وما من شك أن الجيش الفرنسي كان يمكن أن يهزم لو وقع نوع من التحضير لصدد هذا النزول . هذا بالإضافة إلى أن جيش وهران كان غير بعيد عن سيدي فرج تحت قيادة خليفة باي تلك المقاطعة ، كما أن باي التيطري كان قد أعلم الباشا بأنه يوجد تحت تصرفه 20 ألف فارس نصفهم من حملة الرماح (لأجل ذلك سمي هذا الباي : بو مزراق ، والمزراق هو الرمح) . وباي التيطري هذا رجل وقع وذو شجاعة يغطي عليها لكنه عاجز عن قيادة جيش . وعندما وصل لم يكن معه أكثر من ألف فارس بدلاً من العشرين ألف التي كان قد أخبر عنها . كل هؤلاء الفرسان تمركزوا في سطاولي (8) ، كما جاء إلى هذا المكان الآخا مع فرقته المشهورة المكونة من أهل متيجة والتي تكلمت عنها آنفاً ، وحضر ، كذلك جنود من القبائل لكنهم سرعان ما انسحبوا إلى الدار البيضاء (9) لعدم توفر المؤن والذخائر الحربية

(8) سطاولي أو أوسه ولي (بالتركية) يقع على مسافة سير ساعة من سيدي فرج وقد وقعت فيه المعركة على مرحلتين ، جاء في أحد المخطوطات : فلما كان ليوم السبت الثامن عشر من شهر ذي الحجة من السنة المذكورة الموافق 9 يولية قاموا (الجيوش الجزائرية) جميعاً على الفرنسيين وهزمهم وبددوا شملهم وأخذوا رؤوس من قتلوه (كذا) منهم وبعثوا بها إلى مدينة الجزائر لتكون علامة دالة على النصر وإعلاناً بالظفر . . . وبعد مدة يسيرة من الأيام انهزم المسلمون وصاروا يقاتلون وهم مدبرون (انظر أحمد الجزائري : كيف دخل الفرنسيون إلى الجزائر) .

(9) ضاحية من ضواحي مدينة الجزائر تقع في شرقها على بعد حوالي ثلاثين كيلومتراً من سيدي فرج .

وفي صباح كل يوم كان هؤلاء الأجناد يعودون إلى مراكزهم .

لقد لاحظ باي قسنطينة على الآغا بأن تنظيم الجيش هذا لا يسمح بأي أمل في النجاح . وفي حالة ما إذا سار الجيش الفرنسي نحو مدينة الجزائر ، فإن انسحابنا سيكون دليلاً لها . وحسب رأيه ، فإننا لن نكون قادرين على صدّه ولا على مقاومته . كما أشار ، كذلك ، إلى أنه ليس من السياسة في شيء أن تجمع قواتنا في نقطة واحدة ، وإن من الواجب توزيعها بحيث يحمل جزء منها إلى غربي سيدي فرج ، ومعنى ذلك أن الفرنسيين إذا لاحقونا ، فإنهم سيبتعدون عن هدفهم الذي هو مدينة الجزائر ، وسيكون ذلك لصالحنا ، إذ نستطيع أن نبدأهم بالهجوم . وإذا قصد الفرنسيون الجزائر دون أن يهاجمونا ، فإننا عندها سنكون أقوى وأقدر على الدفاع عن أنفسنا والانتصار عليهم . واقترح ، أيضاً ، أن يتولى كل قائد الاعتناء بجزء من الجيش . وكان مقر القيادة الذي وقع عايه اختيارنا هو الدار البيضاء التي تفصلها عن سطاولي مسيرة أربع ساعات . وعن كل هذه الملاحظات كانت لإجابة الآغا كالأتي :

« إنكم لا تعرفون التكتيك الأوروبي ، إنه يتعارض كل المعارضة مع تكتيك العرب » . ورأى باي قسنطينة في هذه الإجابة البليدة إهانة له ، لذلك التزم الصمت ولم يسمح لنفسه بإبداء أية ملاحظة أخرى (IO) .

كنت بنفسني عشية الاستيلاء على سطاولي ، عند الآغا للتعرف على الأوضاع فتعشيت معه ، ومع باي قسنطينة وباي التيطري ، وخليفة باي

(IO) حول هذه القضية انظر مذكرات الباي أحمد ، فإنها تشتمل على كثير من التفاصيل .

وهران ، وخوذة الخيل : في تلك الليلة اقرب مني الآغا وأسر لي الخبر الهام الذي مفاده أن فلاناً وفلاناً (مع ذكر أسماء الأشخاص) قد ذهبوا إلى مركز الفرنسيين كأمناء لقضيتهم ، يقدمون لهم تقارير كاذبة حول وضع البلاد ويطلبون منهم أن يرسلوا عن طريق البحر جزءاً من جيوشهم إلى بعض الأماكن واعدن لإيائهم بأنهم سينضمون إليهم ويقودونهم إلى حصن الامبراطور لمخادعة الجزائريين . وأضاف الآغا قائلاً : أعتقد بأن المخطط سينفذ غداً وعندما يهجم الجيش الفرنسي إلى طريق قاحل وصعب يقوم العرب بالهجوم من جهة ، وأتولى الهجوم من الجهة الأخرى. وفي انتظار ذلك، وزعت على كل جندي عشرة خرتوشات .

لم أدري ماذا أقول عندما رأيت هذا الآغا يهذي بهذه الكيفية . ومع ذلك سأله ماذا يصنع الأجناد عندما يطلقون الخرتوشات العشرة ، فأجابني بأن تلك الكمية كافية لقتل نصف الجيش الفرنسي وبعد ذلك لن يكون في حاجة إلى توزيع البارود . وعندما لاحظت له بأنه كان يجب أن يحفر الخنادق لحماية الجيش والدفاع عنه أجاب بنفس الثقة : نحن نشكل الخنادق الحقيقية ومن المؤسف ألا نعرف كيف نحمي أنفسنا .

لكن ، قلت له ، لتكن هذه الخنادق على الأقل لتغطية المدفعية . لأنها أمام مدفعية العدو ومن واجبك حمايتها . على أثر هذه الملاحظة الأخيرة أعطى أمراً في الحين ، بنشر إعلان في الجيش يطلب فيه من كل عربي غير مسلح أن يأتي للآغا قصد تزويده . ونتيجة لهذا الأمر ، اجتمع عنده عدد كبير من الأجناد ، وبدلاً من الأسلحة أعطاهم القفوس لحفر الخنادق . وبالفعل لقد تم خلال تلك الليلة ، حفر خندق لم يستعمل في الواقع لأي شيء .

لقد سلم حسين باشا لهذا الآغا مبالغ كبيرة من الدراهم لتوزع على المحاربين لكي يسرعوا في الأعمال وتشجيعاً للجنود . خير أن هذا الآغا لم يعط شيئاً لمن وجه الداي إليهم تلك المبالغ .

ودائماً لتشجيع المعركة وإثارة طمع القبائل ، وعد حسين باشا بأنه يعطي مكافأة قدرها خمسمائة فرنك لكل من يحمل رأس أحد الأعداء . وكلف الآغا بحساب هذا المبلغ ، وجمع الإيصالات من أصحابها بعد تقديم الأدلة المقنعة . وبدلاً من أن ينفذ إرادة سيده ويدفع المكافأة الموعودة . فإنه كان يرد الجنود طالباً منهم أن يعودوا بعد المعركة لتقاضي ما لهم . ولا أدري ماذا كان مصير المبالغ الهائلة التي كانت في حوزة الآغا .

وفي صباح الغد توجه الآغا وحاشيته والمرافقون إلى المكان المسمى : سيدي فرج ، وبقي المركز شاغراً ، ليس فيه على أكثر تقدير ، إلا حوالي أربعين شخصاً لحماية الأمتعة وكانوا بدون أسلحة ولا يملكون أية وسيلة دفاعية . عندئذ إقتنعت بنفسه أن قيادة الجيش أسندت لرجل لا يعرف الفن العسكري ، واعتبرت الإيالة قد ضاعت ثم رجعت حزينة إلى الجزائر . فهل من التكتيك الدفاعي أن يترك معسكره خالياً ؟ ألم يكن عليه أن يبقي فيه حوالي ثلث جيشه للاحتفاظ بجنود غير متعبين يستطيع أن يدعم بهم جيوشه المتبصرة أو يسهل بهم عملية الانسحاب ؟ إن هذا التكتيك يخلق في الميدانين ، المعنوي والمادي ، نوعاً من الثقة ويلهم الشجاعة ، وإذا لم يكن كذلك وانسحب الجيش نحو خيمة فوجدها خاوية ، فإنه لا يستطيع إلا أن يهرب وكله خيبة وبأس .

ولأعطي فكرة دقيقة عن قصر نظره وعجزه ، أذكر حادثة وقعت لي خلال المدة التي قضيتها عنده .

لقد كنت ، ذات ليلة ، في وسط معسكره ، واحتجت إلى بعض الأشياء وبدلاً من إرسال أحد الخدم توجهت بنفسي إلى خيمته . فقطعت المعسكر ودخلت إليه ثم أخذت ما جئت من أجله دون أن يشعر بي أحد لأن الجيش كله كان في نوم عميق ، ولم ألاحظ في طريقي أي حارس يسهر على حماية المعسكر من هجوم الأعداء .

نرى من خلال كل ما تقدم فرقاً كبيراً بينه وبين سابقه يحيى آغا من حيث الوسائل العسكرية والإدارية التي كانت لكل منهما

لقد تعودت كلما رجع يحيى آغا من الحرب أن أذهب للقائه في ميثجة حيث أقضي معه يوماً كاملاً . وأتذكر ، آنذاك على الرغم من أن الوقت كان سهلاً ، فإن جيشه كان أحسن تجهيزاً وأكثر تنظيمياً ، كما أنه كان أكثر عدداً من الجيش الذي نظمه إبراهيم آغا لمحاربة الفرنسيين . لقد كان من العادة أن يلرب مدفعيته يوماً ، وأن يستعد للدفاع كما لو كان العدو سيهاجمه . لقد كانت مراكز معسكره في نقطة دائمة : فهناك مركز يكلف بمحراسة المعسكر عامة وهناك آخر خاص بالسهر على دخول الخيل وخروجها ، وآخرها هناك ثالث يحيط بخيمته ، ويتكون من ثمانية رجال في الخارج والذين في الداخل وواحد عند الباب ، وفي كل نصف ساعة كان حارس باب الخيمة يطلب من حارس الخارج أن يحبيه بالإشارة المتفق عليها ، ثم يتوجه حارس الخارج بنفس الطريقة إلى حارس الخيل ثم إلى حارس المدفعية ، فحارس المدفعية العام وهلم جرا ، بحيث أن المعسكر كان محروساً كأحسن ما يكون .

وعندما فقدت الإيالة يحيى آغا تنبأ كل عاقل بانتهاء الجزائر ، ولم يوافق أحد على الحادث وحتى لو كان مذبذباً ، فإنه ما كان ينبغي أن يستبدل إبراهيم

آغا . إنها غلطة فادحة لا تغتفر ، قد تكون هي الوحيدة التي يمكن أن يلام عليها حسين باشا خلال السنوات الثلاث عشرة التي دامها عهده . ولقد كان لهذه الغلطة تأثيرها الكبير خاصة وأنها وقعت في الوقت الذي كنا فيه في حرب مع فرنسا . وإن الذي ارتكبها أمير برهن على كثير من الاعتدال والعدل بحيث أننا لم نكن نتظر منه مثل هذا العمل .

وهكذا ، إذن ، كان إبراهيم آغا يريد تحاربة الفرنسيين بدون جيش منظم ولا ذخيرة حربية ولا مؤن ، ولا شعير للخيول وبدون أن تكون له المقدرة الضرورية للقيام بالحرب .

وعندما وقعت هزيمة سطاوالي ، غادر هذا الآغا المعسكر وكله يأس كما لو أنه فقد رأسه لقد ترك كل شيء : الخيم ، فرق الموسيقى ، الاعلام وجيشه بأكمله . ولو أن بورمون سبر جيوشه في ذلك اليوم ، إلى حصن الامبراطور لما لاقى أية صعوبة .

وبعد ذلك بيومين دعاني حسين باشا لمعرفة حقيقة الأمور فأجبت قائلا : إن الحرب حظ مخطر ، ولا يحق للقائد أن ييأس ، لأن يأسه يؤدي إلى الهزيمة النكراء ، والقضية الظالمة يمكن أن تصبح عادلة ، إذا توفرت لها المقاومة والصمود .

عندئذ تكلمت له بكل صراحة عن سلوك صهره إبراهيم آغا المخزي ، وهو ما لم يجرأ أحد على فعله قبلي ، فكلفني بالذهاب إليه وتشجيعه . وإلزامه بجمع جيشه وبعدم التفكير في الماضي ، وعندما وصلت إليه ، لم أجد إلا بمض الجنود المشتتين هنا وهناك ، وبعد بحث طويل تمكنت من العثور عليه في دار

ريفية كان يختفي فيها مع ثلاثة أو أربعة من خدمه . وبمجرد ما وجهت له الكلام علمت أنني لا أخاطب رجلاً وإنما طفلاً لما كان يديه من ضعف وقنوط ويأس . ولذلك ضاعت كل محاولة مني لتحميمه ورأيتني مجبراً على الرجوع إلى الداي الذي قال لي عندما أعلمته بسيرة صهره وبالجهود التي بذلتها للعثور عليه : « إنكم ذهبتم يحدوكم الأمل ، ورجعتم دون أن تنجح مساعيكم » . عندئذ أجبته بأن الشعب ليس إلا قطعياً ، ولا بد له من راعٍ ، وإن شعبكم بدون راع والعدو يتقدم .

كان الجيش بدون قائد ، والقبائل يجهلون في أي مكان يختفي . وعليه ، لم يبق إلا تسليم المدينة للفرنسيين . لم يكن الباشا يعرف أن الآغا رعديد وكان يظن أن له مقدرة أكبر من التي أظهرها . ولذلك طلب مني أن أرجع إليه وأرضعه على العودة إلى معسكره . وفعلنا تبغي رغم أنفه ، وجمعنا ما أمكننا من الجنود الذين كانوا مجهزين ومستعدين ، وعلى الرضم من أنني كنت على يقين - مسبقاً - من أننا لن نتمكن من فك حصار المدينة والدفاع عنها ، فلإني بذلت كل ما في وسعي لأداء هذه المهمة .

وعندما تحرك بورمون في سطاولي انهزم الآغا وجيشه لتوهما ولم يعرف أحد إلى أي مكان تم الانسحاب .

وفي هذه الحالة دعا الباشا المنفي (II) (شيخ الإسلام) ، فسلمه سيفاً وطلب

(II) في هذا الصدد يقول أحمد الجزائري : « وفي هذا الوقت (أي بعد هزيمة سطاولي) أمر حضرة الباشا بإحضاري لديه كيخبرني بما حصل لصاكر المسلمين من الهزيمة ، فأخبرت في تسلية خاطره ... فتهنئ حتى قام أمام المهزومين وأخذ يحثهم على القتال ، ويحلوهم

منه أن يجمع الشعب للدفاع عن البلاد . ولكن من سوء الحظ ، كان الأوان قد فات ، وعند الغروب كان الجيش الفرنسي قد اقترب من حصن الامبراطور . إن شيخ الإسلام رجل عادل ، فاضل ولكنه بعيد عن أن يكون محارباً ، وفي مثل هذه اللحظة الحرجة لم يكن من الممكن أن يقود جيشاً ويصد عدواً . إن أعضاء الدواوين والفقهاء لا يهتمون إلاّ بالعلوم والقوانين ، وهم أحسن لإعطاء النصائح من أن يقوموا بالأعمال ، وبما أنني كنت على اتصال بهذه الشخصية فإنه دعاني ، كتابة للتوجه إليه ، وكان جوابي : أنه لم يبق أي أمل بالنسبة لهذه القضية . ان هلاكنا محقق ولا أريد أن أشهد مثل هذه الكارثة المفجعة .

لم يكن المشاة منظمين ، فما بالك بالمدفعية ، ولا ندري كيف يمكن أن نأمل في تحقيق النجاح ؟ ولقد كان ذلك ممكناً لو تم تعيين رجل مجرب لقيادة الجيش ووضعت تحت تصرفه عشرة آلاف من القبائل مع الأمر بإعطاء كل واحد 10 بوجوات (18 فرنكاً) يومياً لتشجيعهم . عندئذ يوجه هؤلاء القبائل إلى مختلف النقاط لسد الطرق الرابطة بين سطاولي ومقر قيادة بورمون . وكان من الواجب أيضاً أن يوضع تحت تصرفهم كل أنواع الذخائر التي يمكن أن يحتاجوا إليها . لقد كان النصر مرهوناً فقط ، بمثل هذه التدابير . ولكن الأوبن الذين كانوا يحيطون بالمفتي لاحظوا بأن حمدان عميل للفرنسيين : سافر إلى بلدهم وأعجب بعاداتهم ، وعليه يجب الاحتراس منه . وأخيراً قيل بأنه لو

من عاقبة الفرار حتى ردهم إلى الحرب ، فساروا إلى أن وصلوا إلى الموضع المسمى العين الزرقاء ، وكانت الفرنسيون هناك ، فوقعت العين على العين والتحم القتال بين الفريقين ، فلم تمض لحظات من الزمن حتى انهزمت القوانسوية وولوا مدبرين ، وتمادوا على هزيمتهم حتى وصلوا إلى الموضع المسمى سيدي فرج وأقاموا به (انظر نفس المصدر) .

قطعنا الطرق لغضب الفرنسيون وهاجمونا للانتقام منا على تلك العرائيل التي نكون قد وضعناها في سبيلهم .

وفي الغد عندما رأى الباشا أن تنبؤاتي تتحقق ، وأن الآغا ليس إلا شبه رجل ، عزل إبراهيم وعين باي التيطري آغا في مكانه ، ولو أن يحبس آغا الذي تكلمت عنه أعلاه هو الذي كلف بقيادة الجيش لما استطاع أن يغير شيئاً من هذا الوضع الحرج ، حيث أن العقول تذبذبت ولم يعد هناك لا الوقت ولا الوسائل للدفاع عن الجزائر . لقد رجع الآغا البلطيد إلى بيته مرتاح البال ، يجمع الضرائب ، وسمعت من يقول أن كل ما تميز به هذا المحارب هو أنه كان يختار البنادق الأكثر طولاً ليرمي الفرنسيين بنفسه .

لقد رأى حسين باشا ، والحال هذه أن يبعث الخزانجي إلى حصن الإمبراطور . وكان كل ما يصبو إليه هذا الرجل هو أن ينجح في التأمر للحصول على تأييد الميليشيا ، فيعزل حسين باشا ويستولي على الحكم .

لقد انتهى أن يسالم الفرنسيين بالشروط التي يريدون فرضها ، ولأجل ذلك رأيناه ينشط كل النشاط عند تحرك الجيش الفرنسي نحو حصن الإمبراطور . وعندما رأى أنه يهاجمه فقد كل شجاعة وارتاع إلى درجة أنه نسي أن يفتح أبواب الحصن . كما أن أتباعه فقلوا شجاعتهم إلى درجة أنهم استعملوا جميع الوسائل الممكنة للفرار .

وعندما وجد الخزانجي نفسه وحيداً وسط خطر داهم ، بدأ فجأة ، يصنع نثار بارود يصل إلى المفجرة تهديم الحصن ، ومن حسن الحظ أنه قصد المفجرة الصغيرة لأنه لو وصل إلى الكبيرة التي تقع أبعد منها لتأثرت المدينة كثيراً لأن كمية البارود فيها أكثر بكثير .

كان حسين باشا قبل هذا الحادث ، يحترم هذا الخزانجي ، وكثيراً ما كان يعمل بأرائه .

وعندما دخل بورمون إلى حصن الإمبراطور ، جمع حسين باشا سائر الأبناء (I2) وأعيان البلاد ورجال القانون وغيرهم ، ثم عرض عليهم الوضع الخطير الذي كانت عليه المدينة ، وطلب آراءهم للتوصل إلى وسيلة تحقق السلامة وتقضي على الشرور وقال لهم : أصدقائي لا تخرجوا ، وقولوا رأيكم بصراحة ففي مثل هذه الظروف يجب أن نتداول على أنجع الوسائل ولست إلاً واحداً منكم . فماذا ترون ؟ هل من الممكن أن نقاوم الفرنسيين مدة أطول ؟ أم هل يجب أن نسلم المدينة بمعاملة تسمى « استسلام » .

وجد المجلس نفسه في حيرة من أمره لأنه لم يكن يعرف إذا كان الباشا صادقاً في كلامه أم هل هو يستعمل هذه الطريقة للتعرف على آراء الأعيان في المدينة . ونحشي كذلك أن يكون الباشا إنما يريد ، فقط ، إن يعرف مدى مفعول بيانات بورمون التي وزعها في الجزائر (سأتكلم فيما بعد عن هذه البيانات) . وفي مثل هذه الظروف فضل الجميع أن يحتفظوا بأرائهم وخشوا أن يغضب الداي لو أبدوا رغبة في السلم ، ولذلك كانت الإجابة العامة كالآتي : سنحارب إلى أن نستشهد عن آخرنا ومع ذلك فإذا فضل سموكم وسائل أخرى ، فإنه حر في أن يعمل ما يراه صالحاً وسيجدنا عند إرادته .

وهكذا ، إذن ، تفرق الجمع قاصدين المعركة . إلاً أنه يجب أن نؤكد بأن بيانات وزعت باسم الأمة الفرنسية التي كانت تعرف بالحلم والعدل ،

(I2) الأئمة هم رؤساء الهيآت المهنية الموجودة في المدينة . وكان كل أمين مسؤولاً أمام السلطات من حياته فيما يخص حقوقها والواجبات .

قد تكون ساهمت كثيراً في التأثير على النفوس وفي دفع الأشخاص المتصيرين والمعتدلين إلى تفصيل الوسائل السلمية . هؤلاء الأشخاص كانوا يفكرون كالأتي ويقولون : لا ينبغي لنا أن نعرض العاهل ولا سكان المدينة إلى أخطار محققة باستعمالنا وسائل الشدة والعنف . ومن السهل ، حسب هذا المنطق ، أن نفهم بأن أعيان المدينة لو كانوا يخشون الظلم والنهب والتقتيل لحاربوا بشجاعة أكبر . ولو أنهم كانوا يعتقدون بأنهم سيعاملون بهذه الطريقة التي نعامل بها اليوم ، لعرضوا كل شيء للحصول على كل شيء لأن مزايا الحرب ، كما يعلمنا بذلك المؤرخون ، لا تحصل إلاّ عن طريق التضحية بالنفس وعجابه الأخطار ، وفي هذه الدنيا ، عندما تحمل الكوارث ، يجب أن تشتري السعادة بالدماء . وكذلك كان القدماء يقولون : أن الذي لا يحاطر لا ينال .

وهكذا إذن ، فإن كل الطاقة التي كان من الممكن استعمالها قد تجمدت من جراء هذه البيانات الغامضة . وليس من حيلة الحرب ، لأن الأمر يتعلق بالشرف والثقة ، لقد كانت الوعود واضحة ونستطيع أن نرفع أصواتنا بأن الإخلال بها جريمة سياسية .

وفي نفس الليلة اجتمع عدد من أعيان الجزائر في حصن باب البحرية (13) ، لقد كانوا من التجار والرأسماليين ، وبرهنوا على أن الجزائر ضائعة لا ريب في ذلك ، ولو أن الفرنسيين يدخلون بالقوة على أثر هجوم ، فإنهم سينهبون المدينة ويقتلون جميع السكان والنساء والأطفال العزل ، وعليه فمن الأحسن الانضمام إلى اقترحات الداي السلمية شريطة أن تكون إتفاقية التسليم مع قائد الجيش الفرنسي . لقد كانوا يعتقدون أن أمة شريفة لا تنكث بمعهودها ،

(13) ما زال هذا الحصن قائماً حتى الآن في حي البحرية الجزائرية .

واننا ستنمتع بحريتنا ونعامل بكل عدل وبقطع النظر عن كون زيد أو عمر هو الذي يحكمنا ، فان المهم هو ان نحكم كما ينبغي وفقاً لمبادئ الحكومة الفرنسية ، وان لا تمس ديانتنا . ان الدين شيء روجي لا تنافس فيه ، وان الفرنسيين رجال ستجمع بيننا وبينهم الأخوة . ومن جهة أخرى فان عماد الحضارة هي حقوق الإنسان ، ولذلك فاننا لا نخشى شيئاً من أمة متحضرة . كان هذا هو التفكير الذي أدى في نهاية الأمر الى عدم مقاومة الجيش الفرنسي .

إن الأتراك يتدينون بديننا ، وكان علينا أن نفضل حكمهم ما في ذلك شك . وبما أن أملاكنا وعاداتنا وديانتنا كانت محترمة ، وإن المقصود صار ، على العكس ، هو أن نعرض أرواحنا ، ونريق دماءنا غزيرة ، ونشاهد أملاكنا تنهب ونسائنا وأطفالنا يقتلون ، فإن كل هذه الاعتبارات تدعونا إلى إبرام معاهدة سلم ، وقد تم ذلك فعلاً .

وفي هذه الحالة أرسل المجتمعون وفداً إلى القسبة لإجبار الداي بهذا المشروع . وكانت إجابة الداي أنه سيعمل في الغد وفقاً للرغبات التي عبروا له عنها ، وبالفعل لقد أرسل في الموعد ، المتطاعي مع قنصل إنكلترا للتفاوض ، وسيلي بوضربة (14) وابني الحاج حسن (15) كترجمين يجيدان الفرنسية ، وذلك

(14) هو أحمد بوضربة . كان من التجار المغضوب عليهم لفساد أخلاقه . وعندما وقع الاحتلال وضع نفسه تحت تصرف السلطات الفرنسية ، وقدم لها مذكرات حول كيفية إخضاع البلاد وقمع الأهالي الذين يرفضون الاستعمار . ويقول حمدان أن الرجل كان مرتدلاً لا دين له ولا ملة . ولزيد من التفاصيل حول هذا الشخص انظر دراستنا التي أرفقناها به المذكرات ، الذي سيصدر قريباً .

(15) كان ابنه هذا يجيد الفرنسية والانكليزية . وحمدان ابن آخر اسمه علي ، وهو للذي كتب «مرآة الجزائر» باللغة التركية .

للاتصال بقائد الجنرالات والتفاوض معه .

كان هذا المقطاعي على علم بنؤامرة الخزناجي التي أشرنا إليها أعلاه ،
ولذلك أراد بكل مكر أن يتفاهم مع قائد الجنرالات لرفع الخزناجي إلى مرتبة
داي واقترح على قائد الحملة أنه يحمل إليه مقابل ذلك رأس حسين داي ثم
يبرم مع فرنسا معاهدة تكون حسب رغبتها ولكن الجنرال بورمون أجابه
قائلاً : «إنني لم آت لتشجيع القتالين وإنما لأحارب . وإنني لا أرضى باقتراح
حسين باشا الراعي إلى تحديد شروط الاستسلام . إنني مبتهج لهذه المواطف
الإنسانية ، لأنه بعمله هذا يمنع سفك كثير من الدماء » . وهكذا اذن وقع
التقاش حول الاستسلام ، وتم الاتفاق عليه من الطرفين كما يلي :

اتفاقية بين قائد جنرالات الجيش الفرنسي وسمو داي الجزائر :

1 - يسلم حصن القصبة وجميع الحصون الأخرى التابعة للجزائر
وكذلك ميناء هذه المدينة إلى الجيوش الفرنسية ، هذا الصباح على
الساعة العاشرة (حسب توقيت فرنسا) .

2 - يتعهد قائد جنرالات الجيش الفرنسي بأنه يترك لسمو داي الجزائر
حريته وكذلك جميع ثرواته الشخصية .

3 - الداي حر في الانسحاب مع أسرته وثرواته الخاصة إلى المكان
الذي يحدده ، وسيكون هو وكامل أفراد أسرته تحت حماية قائد
جنرالات الجيش الفرنسي ، وذلك طيلة المدة التي يبقاها في
الجزائر ، وستقوم فرقة من الحرس بالسهر على أمنه وأمن أسرته .

4 - يضمن قائد الجنرالات نفس المزايا ونفس الحماية لجميع جنود
المليشيا .

5 - تبقى ممارسة الديانة المحمدية حرة ، كما أنه لن يقع أي اعتداء على حرية السكان من جميع الطبقات ولا على دينهم وأملاتهم وتجارهم وصناعاتهم ، ونساؤهم سيحترمن .

إن قائد الجيوش يتعهد بشرفه على تنفيذ كل ذلك . وأن تبادل هذه الاتفاقية سيتم قبل الساعة العاشرة من هذا الصباح ، وبعد ذلك مباشرة تدخل الجيوش الفرنسية إلى القصبة ثم إلى جميع حصون المدينة والبحرية .

في المعسكر المخيم أمام الجزائر ، يوم ٥ جويلية سنة ثلاثين وثمانمائة وألف.

إمضاء : كونت دوبرهون

خاتم حسين باشا ، داي الجزائر

وعندما علم العرب والقبائل بدخول الجيش الفرنسي إلى الجزائر ، ظنوا أنه فعل ذلك عنوة لا عن طريق المفاوضات ، واعتقدوا ، كذلك ، أن المدينة نهب ، ولذلك قاموا بدورهم ينهبون ويخربون ديارنا في البادية حتى لا يستفيد منها الفرنسيون على حسابهم . وهكذا ، أخذوا كل ما يمكن حمله : المواشي ، الخيل ، البغال ، الخ . . . وأشعلوا النيران في المخازن ، وكسروا جرار الزيت والزبدة ، ثم اصطحبوا معهم كل ما قدروا على نقله حتى لا يتركوا شيئاً للفرنسيين . وبدورهم ، قام هؤلاء الأخيرون باقتلاع سياجات الحديد ، وتهديم الحمايات وحملوا إلى الأسواق ما تبقى من أشياء فباعوها أمام أعيننا ، وبذلك يكون الفرنسيون قد اتبعوا طريقة البرابرة ، بل لمنهم كانوا أكثر فساداً ، لأنهم هدموا ما كان مبنياً وخربوا ما كان موجوداً .

لقد كان العرب والقبائل يعلمون أن نتيجة كلها كانت ملكاً لسكان
الجزائر ولذلك نهبوا وخربوا كل ما كان في متناولهم . وسأعود ، فيما بعد
إلى الكلام عن هذا الحادث المؤلم .

الفصل الثالث

عن تفاصيل دخول المارشال بؤرمون إلى الجزائر

لقد قام كثير من الضباط الفرنسيين بوصف الظروف التي غادر فيها الناي وحاشيته القصبة ، وإذ أوردوا ذلك في مؤلفاتهم ، فإنهم كفوني مشقة وصف تلك الاحتفالات ، وسوف لن أهتم إلا بالخاصيات التي وقعت ، والتي أهملت .

عندما غادر القصبة ، لم يمس حسين باشا أي شيء مما هو تابع للخزينة العامة ولم يسمح لأحد بأن يفعل ذلك . لقد كان يرى نفسه مسؤولاً حسب شروط الاستسلام عن كل ما يمكن امتلاكه . وبذلك لم يؤخذ أي شيء من كنوز الجزائر ، واستطاعت فرنسا أن تتسلمها كاملة .

كان يوجد من القصبة صندوق مستقل يشتمل على حوالي 20,000 فرنك لأداء النفقات اليومية التافهة ، وكان صاحب هذا الصندوق يقيم حساباً جارياً كما سنرى ذلك فيما بعد . أن هذا المبلغ قد ضاع ، على حد ما يقال ، ولا ندري من الذي أخذه . أما المحفوظات حيث كانت الدفاتر والسجلات مودعة فإنها ظلت محترمة . وكان هناك مكان توجد فيه ورقات طائرة عليها

معلومات معدة لتسجيل في الدفاتر اليومية وفي دفتر المقطاجي كما بينا ذلك أعلاه . ولقد أخذت هذه الأوراق وشتتت . ومن الممكن أن الفرنسيين الذين أخذوها كانوا يظنون بأنها تشتمل على معلومات ذات قيمة ، بينما لم تكن لها ، في الحقيقة أية أهمية . وهكذا ، ضاعت الأوراق على الأرض ، ولقد مشيت بنفسي على بعضها في حي القصبة . لقد كانت هناك ، في ذلك الحين ، فوضى وعدم نظام لا مثيل لهما .

كان قنصل السويد يملك ويسكن داراً للاستجمام . وكان ذلك المسكن محلي ومجهزاً بأفخر الأثاث وأواني الفضة وغيرها من الأشياء الثمينة . وعندما وصل الجنرال بورمون إلى أبي زريعة (I) طلب منه أن يحلي الدار ليفتح حيطانها ، على حد قوله ، ويتمكن من مهاجمة حصن الأمبراطور . وبعد أن تشاور مع زملائه في هذا الشأن خضع القنصل لرغبة الجنرال ، ولكنه حملة مسؤولية الحسائر التي قد تحدث من جراء هذا العمل العسكري . وقبل أن يخرج من داره ، أخذ كل حذره ، فجمع في بيت مستقل جميع الأشياء الثمينة ثم سد الأبواب . وعلى الرغم من هذه الاحتياطات ، فقد أخذ كل شيء ، وقطعت الأشجار ، ووقع تخريب لا مثيل له في جناحه . وظن القنصل المذكور أن من حتمه أن يتقدم بطلب للمرشال بورمون قصد الحصول على قيمة الحسائر التي لحقت به ولما لم يتصل بأي جواب ، اشتكى لحكومته التي أمرته بأن يتوجه إلى الحكومة الفرنسية ، ولا أدري أين أصبحت القضية ، وكل ما أستطيع قوله هو أن هذا القنصل كان رجلاً فاضلاً ونزيهاً ، ويبدو أن ثروته كلها كانت مخزونة في جنان المسكن .

(I) هو الحي الذي ما زال يعرف بهذا الاسم ، ويقع في غربي مدينة الجزائر .

إن الجنرال بورمون لم يجب لا دعوات الخواص ولا طلبات من كانت لهم ديون في ذمة الدولة . ومع ذلك فإن الحق العام المعمول به في جميع البلدان يحتم على كل حكومة أو من يخلفها أن تدفع ديونها كما أنه يسمح لها بمطالبة المدنيين بما لها عليهم. إن حكومة العودة (2) قد دفعت ديون الإمبراطورية ، كما أن الإمبراطورية وحكومة جوليت (3) قد دفعت كل منهما ديون الحكومات السابقة . إن الدولة هي الآفة ، فهي لا تتغير لأنها راسخة في الأرض ، ولذلك فإن ديونها مقدمة .

لقد طلبت بنفسني من بورمون أن يسدد لي قيمة كمية من الورق كان الداى قد أخذها مني لصناعة الخرتوش عندما كان الجيش الفرنسي في سطاوي . وتقدر هذه القيمة بحوالى عشرة آلاف فرنك . ولكن المارشال بورمون لم يتفضل حتى بإجابتي . وكررت هذا الطلب لدى السيد كلوزيل (4) فسلك مسلك

(2) تطلق العودة على الفترة التي تلي الإمبراطورية الأولى، والمقصود بها هي عودة أسرة البوربون الى الحكم . وهناك عودة أولى وعودة ثانية تفصل بينهما حوادث المائة يوم الشهيرة .

(3) هي ثورة ثلاثين جوليت 1830 التي قامت بها جماعة المتحررين ، والتي قضت على أسرة البوربون وجاءت الى الحكم بالدوق دورليان الذي سيصبح ، بعد ذلك ، لويس فيليب .

(4) ولد كلوزيل سنة 1772 ، وتوفي بعد ذلك بسبعين سنة . ساهم في إعداد وإنجاح ثورة جوليت التي منحتها قيادة الجيش الفرنسي في الجزائر ابتداء من شهر أوت 1830 . ثم خشي لويس فيليب فاستدعاه في شهر فيفري سنة 1831 . وبعد اندلاع الثورة بعام واحد حصل على رتبة مارشال فرنسا . وعاد لقيادة الجيش في الجزائر يوم 8 جوليت 1835 ، فارتكب أبشع الجرائم . وعندما استبدل بدامرمان ، يوم 12 فيفري 1837 ، التحق بمجلس النواب الفرنسي حيث أراد أن يبرر سلوكه ، ويثبت نزاهته وعدم صحة الاتهامات الموجهة اليه .

سابقه وأخيراً دعمت طلبي بوصل من الترجمان ، وشهادة جماعة أعضاء البلاط مثل وكيل الحرج والسائي ، ومع ذلك فلانني لم أحصل على المبلغ الذي يمثل قيمة تلك المادة . ولقد سمعت أن فوجرو ، المالي المستبد ، المتدكر على حقوق الغير ، قد أشار على الحاكم بأن لا يدفع أي دين من ديون الدولة لأنه لو فتح هذا الباب ستتكاثر الطلبات التي يجب إرضاؤها .

إن للسادة المسيرين مبادئ واسعة ، وتنمطط إلى درجة أنهم يغيرونها كيفما شاؤوا . ولنرجع إلى أحداثنا دون مقارنة ولا تعليق لأن وثقنا سيطول لو فعلنا ذلك . إننا نقدم محدوداً في هذا الإطار ، إلى عقول القراء وقوة تمييزهم دون أن ندخل ، بأنفسنا ، في تفاصيل الملاحظات التي يمكن القيام بها فيما يخص كثيراً من الموضوعات .

عندما وجد الجنرال بورمون نفسه في القعبة وسط كنوز هامة كما لا يخفى على أحد ، فإن جماعة من الحاضرين قد تكون ، على ما يقال ، أوردت نواذر مختلفة تتعلق بتلك المناسبة ، وهماذا أن رئيس الجيش هذا لم ينج من بعض الأطماع وكذلك كثير من ضباطه المقربين . غير أن هذه ليست إلا إشاعات يؤمن بها الجميع ، ولكن لا يريد أحد أن يشهد بها .

لقد جرت العادة أن يعطي صائلو المرجان ، سنوياً ، للدولة خمسة أربال من النوع الرفيع . وكان ذلك المرجان يجمع ثم يباع فيشكل جزءاً من موارد الإيالة . وبعد دخول الفرنسيين بجاني أحد اليهود ، وطلب مني أن أبحث ، باسمي ، إلى ليفورنة (5) عدداً من صناديق المرجان . ولما كنت أجهل الطريقة

(5) ميناء تجاري هام في إيطاليا الجنوبية . كانت الجزائر تقيم معه علاقات مثينة عن طريق محلات بكري ويوجتاج خاصة .

التي كسبه بها ، اشترطت عليه - قبل أن ألبي رغبته - بياناً يثبت بأن المرجان الموسوق ملك له حتى أكون في مأمن مما قد يقع . ولقد أجدت فعلاً إذ اتخذت هذه الاحتياطات لأن السيد فوجرو ، عندما اكتشف لإرسال هذا المرجان ، طلب مني بعض التوضيحات ، فقدمت له بيان اليهودي ، وبعد ذلك لم أسمع شيئاً عن هذه القضية ، اللهم إلا أن الظواهر تدل على أنها سويت بالراضي بين اليهودي والمالي الفرنسي .

لقد تعود خالي ، أمين الشركة ، على غرار سابقه أن يأخذ من الخزينة كميات موزونة من الفضة لتصنع منها النقود، وكانت تلك الفضة في صندوق بدار العملة تحت تصرف يهودي كان هو أمين صندوقه ، يقدم له حسابات كل ما يدخل وما يخرج من هذه المادة . وكان ذلك الأمين مكلفاً ، أيضاً ، بصندوق آخر فيه مادة الذهب المعدة لصنع النقود . ومفتاح هذا الصندوق الأخير يوجد عند نفس الأمين الذي كان يدفع إلى الخزينة قطع النقود مقابل بعض المواد الأخرى وهكذا دواليك . ولقد كانت حسابات أمين السكة جاهزة على الدوام .

وكان باستطاعة أمين السكة ، كذلك أن يشتري الأشياء الذهبية القديمة من مختلف الأشخاص والهيئات فيودعها في الخزينة التي تأخذ القيمة بعين الاعتبار .

وفي العهد الأخير لحكومة الأتراك ، كان لهذا الأمين في صندوقه حوالي

(6) تقابل هذه الوظيفة في وقتنا الحاضر وظيفة مدير البنك المركزي .

ستين رطلاً من الذهب اشتراها بنفسه لبودعها في الخزانة ويأخذ مقابلها مالا ،
وكان في الصندوق ، أيضاً ، عشرة أرطال من ذهب الخزانة .

وأثناء قبلة المدينة ، وبما أنه كان من الممكن أن تهدم القنابل دار العملة ،
فإنه نقل ذلك الصندوق إلى مكان أمين ووضعه تحت سلم متين في نفس المحل .
وفي صندوق الفضة ، كان هناك حوالي عشرة قناطير من تلك المادة تم
صنعها وأصبحت جاهزة لتسك نقوداً . وكان مفتاح الصندوق عند أمينها كما
سبق أن أشرنا إلى ذلك أعلاه ، ولكن عندما غادر الداي القسبة ، تخلى أمين
السكة ، كذلك ، عن منصبه .

وعندما دخل الجنرال بورمون ، استدعى خالي بواسطة السيد بكري
الذي كان إذاك بمثابة خادم لذلك القائد . وبعد ذلك بثلاثة أو أربعة أيام دعانا
السيد دوبرمون - خالي وأنا - للمثول بين يديه فتوجهنا إلى القسبة ، ولكن
بدلاً من أن يستقبلنا الجنرال ، أحالنا على السيد دوني بكيفية غير لائقة . لقد
علمت فيما بعد أننا إنما استدعينا بنصيحة من بعض المناورين الذين كانوا
يحيطون بالجنرال .

ولما طلب السيد دوني من خالي أن يخبره بما بقي عنده من أموال الخزانة ،
أجابته قائلاً : « عندي عشرة أرطال من الذهب وحوالي خمسة قناطير من
الفضة » . من الممكن أن السيد دوني قد وجد ذلك مطابقاً لكتابات الدفاتر .
« أما عن الستين رطلاً من الذهب التي اشتريتها . فإنها لي ، لأنني لم أحصل
على مقابلها ، وهي موجودة في دار العملة ، الخ . . . » وتوقف الحديث
عندما حضر السيد دوفال والسيد دوبينيوز (7) الذي كان معه على ما اعتقد .

(7) كان في السابق رئيس شرطة نابليون ، وقد عاد إلى نشاطه بعد ثورة جويليت 1830 .

سلم السيد دوني إلى خالي مفتاح دار العملة وأذن له أن يذهب إليها صعبة
أحد الضباط ليأخذ ماله ويترك ما هو للخزينة. وعندما وصلنا إلى الدار وجدنا
الأبواب مكسرة وصندوق الفضة محطماً بينما لم نجد شيئاً تحت السلم ، ومعنى
ذلك أن صندوق الذهب قد ضاع . عندئذ رجعنا إلى السيد دوني وأعلمناه
بما جرى فأجاب : « إذن ذلك من عمل الجنود. ، ولكنني الآن ، مشغول
جداً ، تشدني أمور جسيمة ، وسأتولى التحقيق في ذلك فيما بعد ، فاذهبوا .

في نهاية هذا المجلد سأتكلم عن كل ماله علاقة بخالي وعن طلبه الخاص
بذهبه الذي يقدر بستين رطلاً ، والذي نهبه الأجناد . وحتى الآن ، فإنه لم
يحصل على أي شيء بهذا الصدد . أما عن الفضة المصنوعة والجاهزة لأن
تسك ، فلأنها كانت بين أيدي الجنود ، وقد اشتراها الصرافون بأسعار بخسة .

وعندما غادر الداي القصبة ليسكن داره الخاصة ، وقعت أعمال نهب
متنوعة لن أنكلم إلا بما سمعته عنها ، لأنني لم أشاهد أي عمل منها .

لقد كان المارشال بورمون يقول للسكان ويوعدهم بأن الجيش الفرنسي
لن يبقى في الجزائر أكثر من ستة أشهر ، وكان يقول أن تلك هي نية الحكومة ،
وعندما يشرع في الجلاء ، فإنني أترك البلاد بين أيدي أعيانها ونحت تصرفهم ،
وكان يقول كذلك إن الجزائر كانت من ممتلكات الباب العالي .

وبعد هذا البيان الذي كان يبدو إيجابياً ، فإن كثيراً من السكان الذين
كانوا يطعمون في الوصول إلى الحكم وفي أن يكونوا من جملة أولئك الذين
يسيروا الحكومة الجزائرية عما قريب ، قد أحاطوا بالmarshال وكونوا حاشية
ملازمة له ، وناوروا ليعملوا عن ذلك القائد كل من كانت له كفاءة ومقدرة ،

وكل من كان يمكن أن تكون نصائحه مفيدة لمصالح سكان المدينة والإيالة .

إن الهدف من هذه النشرة هو الكشف عن التجاوزات التي وقعت في الجزائر ، والأخبار بأن انقسام سكان هذه المدينة . ، قد أضر كثيراً بمصالح الجميع ، وأن جميع الأهواء المؤدية إلى التكفكك ، مثل الفيرة والطمع والحققد قد انتشرت ، وكانت سبباً في نفي بعض الأعيان وإخلاء المدينة ، إن الشر هو المسيطر ، والويل للمغلوبين ولقد كان الخلاف سائداً بين السكان وكل الأشخاص الذين استهوتهم تلك الغاية قد تقربوا من المارشال بورمون وأظهروا له إخلاصاً لا حدود له لمواصلة مشاريعهم الجنونية آملين أنهم سيخلقون الفرنسيين فيما بعد .

ولكن ، لقد مضت أكثر من ثلاث سنوات وهؤلاء ما يزالون يحكمون ، وما نشاهده من سيرة هؤلاء السادة يحسم تماماً تلك المساوئ المشتركة عند الناس أي حب الذات والأنانية ، والضعف والعمى والكبرياء ليس هذا هو الوقت الذي تثار فيه الأحقاد بمثل هذه الدنيا والتفاصيل الشخصية ، ولذلك ، لإنني أفضل تعميم الأحداث لأقترب ، بذلك ، أكثر فأكثر من أسلوب المؤرخ الحقيقي ، لعل الأجيال المقبلة تستفيد من بعض ما أرويه هنا .

الفصل الرابع

عَنِ الْإِحْتِلَالِ الْعَسْكَرِيِّ

إن أعيان مدينة الجزائر وأعضاء الحاشية (I) الذين لا يسكنون القصبة قد وضعوا مساكنهم تحت تصرف ضباط الجيش السامين ليسكنوها . فكانت لكل واحد حصته ، وبهذا الصدد أقول أن الجنرال لوواردو ، الذي كان يسكن دار الآغا إبراهيم ، كان رجلاً شريفاً حقاً ذا أخلاق كريمة في مستوى أمة عظيمة . لقد ملكوه بهذه الدار وما حوته ، ونقول بسرعة إنها لم نصب بأي ضرر ، ولم يضع منها شيء . فهو لم يكتف بعدم الإضرار بها ، ولكنه منع الحاشية وغيرها من أن تفسد فيها وتعبث . وتستحق عنايته هذه كل تقدير ، لأنه طلب ، قبل مغادرة المسكن ، من السيد سان جوهن القنصل الإنكليزي ووكيل إبراهيم أن يدون كل ما وضع تحت تصرفه .

(I) أعضاء الديوان والموظفون السامون .

وإذا كانت مثل هذه الأفعال تستحق الذكر ، فهناك أفعال أخرى ، ولكن معاكسة يجب أن يشهر بها .

لأنني أعرف حق المعرفة أنه كان يوجد في مسكن باي قسنطينة ، بالجزائر ملابس وأشياء أخرى تقدر قيمتها بأكثر من مائون فرنك . تتمثل هذه الأشياء في حياك وبرانس وأوان فضية ، الخ . . . ويبدو أن الضابط السامي الذي أعطي له هذا المسكن ، كان يعتقد بأن له الحق في التمتع بكل ما اشتملت عليه . فيقال أنه باع كل شيء بمبلغ 2,200 فرنك لأنه لم يكن يعرف القيمة الحقيقية لتلك الأشياء وقد استفاد من هذا النهب أحد اليهود المحيطين به ، اسمه ابن درّان ، الذي اشترى منه كمية هائلة من الملابس تطلب نقلها سبعة أيام .

هناك ديار أخرى كان لها نفس المصير ، ووجد اليهود في ذلك تجارة رابحة . ولقد استطاع كثير منهم أن يحملوا ، بواسطة التخويف بعض السكان الأثرياء على بيع أثاثهم وأمتعتهم قبل أن يأتي الفرنسيون للاستيلاء عليها . وكدليل على ما أقول أذكر الحادث التالي : لقد حمل اليهودي بكري وكيل الحرج على أن يبيع له أثاثه الثمين وأنواعاً مختلفة من أمتعة الزينة ، تقدر قيمتها بحوالي خمسين ألف فرنك بمبلغ أربعة آلاف فرنك . ولم يدفع له ذلك نقداً ، وإنما وقع له سنداً لأجل معلوم . ثم نُفي وكيل الحرج هذا ، وبقيت القيمة عند بكري ، وبما أن هذا الأخير أصبح الآن غير قادر على الدفع ، فإنه لا يملك لإرغامه على تأدية ما عليه . وهناك ألف قضية أخرى تشبه هذه ، وهي حقيقة على الرغم من أنها تبدو مستبعدة ، ولأنني لا أكاد أصدق أعيني ، بالرغم من أن الأمور كانت تقع بمحضري .

ومن جملة المؤلفات التي نشرت حول أحداث الجزائر ، لا شك أن بعضهما قد تكلم عن كل هذه الخصائص . وإذا أهمل ذكرها ، فإنه ينبغي أن نفترض بأن المصلحة الشخصية هي السبب في ذلك .

الفصل الخامس

عن البايات منذ أن وقع الغزو الفرنسي

بعد أن تم التوقيع على معاهدة الاستسلام ، توجه خليفة باي وهران مع كل من كان معه إلى مقاطعته وبما أنه أسرع في سيره ، فإنه كان أول من نقل خبر كارثة الجزائر إلى سكان تلك المقاطعة . لقد كانت الطرق ما تزال هادئة ولو لم يكن كذلك لعرقل الأعراب مسيرته . وفي نواحي وهران التقى بالباي وأخبره بالحادث .

كان هذا الباي طاعناً في السن ، ولم يكن له أطفال . وبما أنه لم يكن يأمل الاحتفاظ بمنصبه بعد سقوط الجزائر ، فإنه رجع إلى وهران ينتظر نتائج تلك الظروف الحرجة .

وعندما علم العرب بأن الفرنسيين دخلوا إلى الجزائر ، رفضوا أن يواصلوا الاعتراف بسلطة الباي وشقوا عصا الطاعة . وزيادة على ذلك نهبوا المزارع التابعة لباي وهران ، واستولوا على كل ماشيته كالدواب والحيل الخ ...

إنهم كانوا يعتقدون أن الفرنسيين يريدون غزو كامل الإيالة، وعليه قاموا بنهب كل ما كانوا يلاقونه للاستفادة منه بدلاً من تركه لهم . وحتى لو أراد حسن ، باي وهران ، أن يتفاهم معهم مثل ما فعل باي التيطري ، لما استطاع ذلك لأنه لم يكن محبوباً .

كان حسن شيخاً قد ملّ الحكم ، ولذلك لم يكن يطمح إلا في حياة هادئة . وكان يأمل أن الفرنسيين سيحرمون راحته إذا ما أظهر أنه لا يفسر لهم العداوة .

وعلى العكس ، فإن باي التيطري الذي كان يدفعه الطموح قد جمع سائر الأتراك الذين أرادوا أن يتبعوه ، واقترب من الجزائر رغبة في الاتصال بالفرنسيين ، واستطاع بفضل نفوذ صديقه بكري أن يحصل على مرتبة آغا بتعيين من المارشال بورمون .

ولكن هذه الأوضاع ستمكر ، فيما بعد ، بسبب إحدى المناورات، فيعزل بدون ما سبب ويستبدل في منصبه كأغا العرب بمحمدان بن أمين السكة (I) ، وعندما حان الوقت الذي فقد فيه بورمون كل سلطة بالخزائر قدم باي التيطري هبات كثيرة للتمكن من الرجوع إلى المدينة ، ومواصلة تسييره للبايلك كما كان في السابق وسأقص كل هذه المغامرات فيما بعد .

أما باي قسنطينة ، فإنه رجع إلى مقاطعته متبعاً الساحل حيث وجد كثيراً

(I) لقد كان بعض المؤرخين ، مثل بلايفر ، لا يفرقون بين محمدان خوجه ومحمدان بن أمين السكة فقد كان هذا الأخير عسكرياً ، وحيته بورمون آغا العرب ، ثم عندما أحس كلوزيل بمجوله الوطنية عزله يوم 7 جاتفي 1831 . وفي العام التالي تفاه روفيكو الى باريس حيث تزوج بفرنسية ، وتوفي سنة 1834 .

من المنافع والخبرة الحربية . وقد تمركز مدة ثلاثة أيام في نواحي الدار البيضاء ليجمع الخيل والبغال التي كانت للدولة ، وكذلك كل ما استطاع أن يعثر عليه في مزارع الدولة وضيعها . فجمع حوله ثلاثة آلاف تركي وعدداً كبيراً من أسر مدينة الجزائر التي تركت المدينة لأن بعضها لم يعد مطمئناً لها بينما هرب البعض الآخر خوفاً من الظلم .

لقد أخذ باي قسنطينة ، إذن ، كل هذا العدد الكبير من الناس تحت حمايته . وكان يوجد ضمن هذا العدد حوالي خمسمائة امرأة ، ولم تؤخذ المون لمجابهة أتعاب الطريق لأنه لم تكن هناك استمدادات لهذه الرحلة . غير أن باي قسنطينة ، قد برهن ، في هذه الظروف الطارئة ، على كثير من الإنسانية والبطولة ، وأن أعماله لكفيلة بأن تمجد ، إذ تولى بنفسه إشباع جميع الحاجات الضرورية لهذه الهجرة ، وتم اتخاذ كل ما يمكن من الإجراءات . ثم سار بقافلته نحو قسنطينة ، ووجد الأتراك بنصف أجورهم . وقد وصل الجميع إلى أبواب تلك المدينة دون أن يحسهم البرابر بأذى . عندئذ وسوس الشيطان لذلك العدد العديد من الأتراك وأوحى لهم ذلك المشروع الفظيع الرامي إلى عزل القائد الذي أوصلهم إلى هناك .

إن الحاج أحمد باي قسنطينة ، لم يعدمهم إلا بنصف الأجر ، ولكي يحصلوا على الأجر كله فكروا في عزله من منصبه واستبداله بابن شاكر باي (2) وقد كان شاكر هذا باياً على قسنطينة . ولكن الابن كان شريراً وسكيراً

(2) هو ابن محمد شاكر باي الذي خلف محمد نعمان باي سنة 1813 ، وقتل شقاً في شهر جانفي 1818 . وقد ظل هذا الولد يتاور للحصول على منصب والده ولكنه لم يفلح .

غير أنه وعد ، وقبلت الشروط ثم وقع الاتفاق . وبالفعل ، ففي اليوم المحدد لدخولهم إلى قسنطينة ترك الجنود أبواب المدينة وابتعدوا بحوالي ميلين : هناك كان رئيسهم الحديد في انتظارهم .

وبعد ذلك بقليل أخبروا الحاج أحمد بنواياهم ، وصرخوا له بأنه ينبغي أن يعتبر نفسه موزولاً . ولم يضيع هذا الباي لحظة واحدة في إخبار سكان قسنطينة بتلك الإجراءات الغادرة ، وقال لهم أنه لا يريد أن يكون سبباً في نشوب حرب أهلية ، وإذا كانت لهم نفس نوايا المتطرفين ، فإنه يرجوهم أن يخرجوا من المدينة كامل أفراد أسرته ، وأنه بعد ذلك سينسحب إلى الصحراء عند أهله (3) ، إنه كان يفضل أن يتصرف كذلك بدلاً من أن يسفك دماء مواطنيه .

بعد أن وصلت هذه المعلومات إلى أعيان المدينة والفقهاء ، اجتمعوا للتشاور حول الحزب الذي يجب أن يختاروه . وقد تقرر ما يلي : إن الحاج أحمد باي قد عين من طرف حسين باشا ، وكان هذا الأخير وكيلًا للسلطان . ولذلك لا نعترف إلاّ بسلطة السلطان . وأن السلطان ما يزال موجوداً وإذا كان ممثله في الجزائر لم يعد موجوداً سياسياً ، فإن ما قام به هذا الأخير قد تم بموافقة الباب العالي وعليه يجب أن يكون الحاج أحمد هو رئيسنا ، وهو صالح لنا فعلاً . ولا نستطيع تغيير هذه الأمور دون أن تكون هناك تعليمات جديدة من الباب العالي . ونظراً إلى المسافة الفاصلة بين البلدين ، وفي حالة وفاته فإنه يمكننا أن نختار ، دائماً بموافقة السلطان ، من يصلح بنا لحماية الأمن والسهر

(3) أهله هم أخواله في بيت ابن قانه شيخ العرب .

على هدوء البلاد وفي جميع الحالات ، فإن ابن شاطر مغامر ، ولا يمكن أن يكون تعيينه شريعياً . وهكذا ، إذن ، فلنأخذ لن نواصل اعترافنا بسلطان الحاج أحمد باي فقط ، وإنما ينبغي أيضاً أن نعترف به كباشا ليتمكن من تهدئة القبائل والعرب ، إنه سيخلف باشا السلطان ، وبعد ذلك نطلب رأي السلطان فيوافق أو لا يوافق على هذا الإجراء .

وفي الحين أرسل هذا القرار إلى الحاج أحمد ، وأخبر بأن جميع السكان مستعدون لحمايته ضد أعدائه لأنهم يعتبرونه كباشا ، وعندئذ توجه لمحاربة المتمردين وهزمهم . وليبرهن هؤلاء الأخيرون على خضوعهم ، أرسلوا له رأس قائلهم . وزيادة على ذلك اشترط الحاج أحمد أن يسلم إليه المحركون الرئيسيون لهذه الثورة وعددهم عشرون ، فينفيهم إلى تونس . غير أن عدداً منهم قد هرب وتفرق في أوساط القبائل والعرب . وبعد ذلك دخل الحاج أحمد منتصراً إلى قسنطينة .

وبعد هذا الحادث ، أرسل باي قسنطينة قرار أعيان هذه المقاطعة إلى باقي سكان الإيالة ودعاهم إلى طاعته ففعلوا . ثم طلب من سكان عنابة أن يرسلوا له كمية من اللخائر الحربية ، وولى عليهم المسمى الحاج عمار الذي كان وكيلاً له في تونس . ولكن الحاج عمار هذا كان يحظى بسمعة سيئة في عنابة ، وكان يعتبر حاكماً عاجزاً ، وبما أنه كان قد شغل هذا المنصب في نفس المنطقة ، فإن السكان أصبحوا يقدرونه حق قدره .

وعلى هذا الأساس شق سكان عنابة عصا الطاعة ، فلم يمثلوا لأوامر الحاج أحمد باي ورفضوا أن يرسلوا له ما طلبه من ذخيرة ، ولما أحس الباي

بأن في الرفض إهانة له وجه لهم الجيش يحاصره ويحبرهم على الاستسلام (4).

خاف سكان عنابة من هذه الإجراءات وطلبوا من الباي ألا يعين عليهم الحاج عمار (5) واعدن إياه بأنهم يرضخون لأوامره . ولكن الباي لم يتنازل وواصل الحرب ضدهم . عندئذ اغتم إبراهيم باي ، باي قسنطينة السابق ، هذه الفرصة وقدم إلى عنابة ، فاستقبله السكان بكل حفاوة ، لأنهم كانوا يريدون التخلص من الحاج عمار . غير أن هذا الوضع لم يطل لأن الحاج أحمد باي تنبه إلى مساوئ الحاج عمار وعجزه فعزله وفتح سكان عنابة أبواب مدينتهم واسعة للحاكم الجديد الذي جاء لممارسة مهامه . وبذلك عاد الهدوء من جديد .

أما إبراهيم باي ، فإنه انسحب إلى القنصة مع الأتراك ، ثم لاذ بالفرار بينما قام جنوده بإدخال الخائن يوسف (6) ومعه 30 من جنود الفرنسيين . وكان

(4) يقول الحاج أحمد ، باي قسنطينة ، إنه أرسل على رأس هذا الجيش خليفته ابن عيسى الذي ظل يحاصر المدينة إلى أن عزل الحاج عمار عندها فتح سكان عنابة مدينتهم لقوات الباي . (انظر الفصل الثالث من المذكرات)

(5) يذكر محمد الصالح بن المنثري ان الحاج عمار بن زقوطة كان من مناصبي ابن عيسى ، ولذلك فان هذا الأخير قد ألقى عليه القبض ووجه له كثيراً من التهم فأمر الباي بقتله .

(6) من يهود إيطاليا . أسلم ثم جاء إلى تونس يشغل عند باش مملوك باي الأيالة المذكورة وذات يوم ، ارتكب ، مع زميل له ، بعض الجرائم وخافا من العقاب ففرا إلى الجزائر . أما سليم فإنه قصد باي قسنطينة الذي أسند إليه منصب قائد الشعير . وعندما توفي سيده الأول رجع إلى تونس ، ويقول الباي أحمد في مذكراته ، انه استعاد منصبه السامي في الجيش . وأما يوسف فإنه قصد الفرنسيين ، ثم انخرط في جيشهم وارتد عن الإسلام .

الباي قد أمر الحاكم بعدم مقاومة الفرنسيين وطلب منه ، على العكس ، أن يعاملهم كأصدقاء ، لأجل ذلك تركهم هذا الحاكم يفعلون ما بدا لهم ورجع إلى قسنطينة (٢) .

لقد اجتمع العرب والقبائل حول الجزائر ، وذلك بتدخل من مرابطيهم ، وفي مثل هذه الظروف نسي كل ذي حقد حقه لتكون الوحدة شاملة . وكان المرابطون هم الذين دعوا إلى هذه الوحدة قائلين لهم : عندما يدخل الذئب وسط مجموعة من الكلاب ، إن الكلاب تنسى بعضها ولا تنبح إلا ضده .

يقول القتيب بالكاتب في مراسلاته : « انه كان يشرب الخمر ويأكل لحم الخنزير حتى في شهر رمضان ، كما أنه كان يرائس الأوروبيات وينهب القرى المجاورة ، ويطلب من جميع القبائل المال والنساء ، ويقتل تحت العصا جميع القادة الذين يقاومون رغبته » . (أنظر ف ٨٥ ، ١٦٧٢ من المحفوظات الوطنية بباريس) ولزيد من التفاصيل ارجع إلى مذكرات الباي أحمد .

(٢) لقد علمت أن بعض الأشخاص ممن أحترمهم قد توجهوا إلى الصديق الذي ترجم أفكاره ، وأبدوا له دهشتهم من الاعتدال الذي أنسبه في كتابي إلى باي قسنطينة ، وكانوا يقصصون هذه الفقرات ولكنني أشير إلى أن هذا هو تعبير الحاج أحمد نفسه ، واذكره لأنني سمعته منه خلال المهمتين اللتين قمت بهما بتكليف من اللوق دورليكو . وقد أحاط هذا الأخير معالي وزير الحرب بكل ما في الأمر ، وأظن أنه يملك الدليل القاطع على ما ذكرت بين يديه . وفي المجلد الثاني سأورد كل ما له علاقة بالمهمتين اللتين قمت بهما إلى قسنطينة ، وسأبهرن على أن هذا الباي لم يكن يريد محاربة الفرنسيين لو لم يجر على الإعراف بسلطانهم . وإذا عومل كصديق ، فإنه يكون مستعداً ليتاجر مع فرنسا بدلاً من أن يرسل متوجات الإيالة إلى تونس . هذا ، وإن الرأي العام سيطلع على هذه القضية مما قريب وبكيفية أحسن .

وعليه فقد آن الأوان لتسلحوا ضد الفرنسيين ، ولتتحدوا قصد طردهم .
وهكذا ، إذن ، اتحدوا فيما بينهم ، وامنوا الطرقات . لقد توقعوا أن يقوم
الفرنسيون بنهب الجزائريين ، ولذلك سارعوا إلى الاستيلاء على ممتلكات
سكان مدينة الجزائر في متيجة ، لأنهم لم يتركوا ماشية ولا حيوباً .

الفصل السادس

عن إدارة المارشال بورمون

عندما نزل المارشال بورمون بأرض الجزائر ، نشر ، باسم الأمة الفرنسية ، بياناً ذكر فيه بأنه سيقضي على نظام الظلم السائد في الجزائر . وتنص معاهدة الاستسلام على أن الأتراك يعتبرون من سكان المدينة . ولكن ، بعد استسلام المدينة بفترة وجيزة ، قام بورمون بنفيهم واختطافهم . ففصلوا عن نساءهم وأطفالهم دون أن يقرءوا أي ذنب . وكانوا يقادون إلى السفن قبل ساعة الإبحار بأيام عديدة . وأشيع أمام الرأي العام بأنه ثبت أنهم ينوون التآمر ضد الفرنسيين ، وهي جريمة مزعومة لا أساس لها من الصحة .

ألم يكن من حق رجل كالسيد دوپرمون ، المكلف بمهام سامية والممثل لأمة متحضرة ، أن ينظر في المسألة ليتأكد من صحة أو عدم صحة الاتهام ؟ وهل يمكن أن يكون لذلك أساس ؟ .. أن قلة عددهم وكذلك ضعفهم لا يسمحان لهم بتدبير أية مؤامرة . وقد كان عليه قبل أن يتصرف بهذه الكيفية ،

أن يستغبر هل أن الوشاية كانت لفائدة الصالح العام ، أم هل هي لمجرد الانتقام . هناك مثل عندنا يقول : « إذا كان النمام مجنوناً ، يجب أن يكون المستمع عاقلًا » .

كيف يمكن أن تكون لهم نوايا علوانية ، وهم بدون سلاح ولا عتاد حربي ولا مدفعية ، وعددهم قليل ؟ لقد كان الأتراك في السلطة ، وكانت لهم كتوز وجيش ، وكان البايات معهم ، وكانت لهم القسبة والحصون ، ومع ذلك فإنهم لم يجاربوا الفرنسيين . وبدون كل هذه الموارد ، هل يستطيعون التآمر ضدهم ؟ كيف إذن ، يمكن لقائد جيش أن يهتم بتقارير كاذبة ، بعيدة كل البعد عن الحقيقة ولا تدل إلا على النوايا السيئة التي يضمورها أعداء الأمن العمومي .

وفيما يلي أذكر حادثاً يدعم أقوالي : لقد نجمهر الناس ذات يوم بالقرب من القسبة وكانوا جميعاً من المسلمين الذين يريدون تقديم شكوى ضد إهانات كان اليهود قد وجهوها إليهم ، وفي الأخير أوفدوا من بينهم اثنين إلى الجنرال بورمون ليعرضاً له موضوع الشكوى باسم الجميع . ولكن المبعوثين ، بدلاً من أن يقوموا بالمهمة التي كلفوا بأدائها ، انقادا لدعايات الماكرين وتقدموا إلى الجنرال قائلين له : بأن الجماهير تشتكي من الأتراك . صدق المارشال تقرير هذين الشخصين ، وبذلك يكون قد اتخذ تدابير على أساس تصريح بسيط . إنني أسمع لذينك المتناورين واغفر ذنبهما ونواياهما الخبيثة ولكنني لا أستطيع أبداً أن أسمع لرجل مثل السيد دوبرمون الذي يشغل منصباً سامياً أن ينخدع لبعض الطامعين ويحكم في الأمور عن غير معرفة وبدون تفكير . ولو أنه حقق في القسبة لعرف السبب الحقيقي الذي قاد للتجمع ، ولما

كانت النتيجة هي طرد الأتراك من وطنهم ، وجعلهم ييأسون ويفصلون عن
نسائهم وأطفالهم . لقد رأيت بنفسى بعض الفرنسيين يولون ظهورهم للمشهد ،
ويلدنون الدموع من الألم .

لقد استطاع كثير من الناس أن يلحظوا مثلي كنه هذه المكيدة ، فرأوا
كيف أن شكوى كان من المفروض أن توجه ضد اليهود ، قد حولت ضد
الأتراك . إن الإدارة إذاً ، لا تقوم بواجبها . إنها لا تهتم إلا بالذهب
والفضة ، وأضل رجال السلطة سعيهم وراء الثروات .

ومن سوء الحظ بالنسبة إلينا ، فإن ما أقوله هنا حقيقة لا تخفى على أحد ،
وهي السبب في كل الشرور التي أصابتنا . إن هذه الأساليب قد أجبرت
الأغنياء على مغادرة البلاد على الرغم من أنهم هم المورد الوحيد بالنسبة للطبقات
الفقيرة ولذلك حدث سخط عام في أوساط الشعب وبدأ الاحتراز من الفرنسيين
الذين لا يوفون بعهدهم . وافترى على القاضي الحنفي بدوره فتفاه السيد
دوبرمون متهماً إياه بأنه جمع أعيان المدينة في أحد المساجد لتدبير مؤامرة ضد
الفرنسيين ، وأصبحت إدارة دوبرمون عهد خوف ورعب تهتم فيها النوايا
الحسنة بالإجرام ، ويسير العدل وفقاً للأهواء والنميمة . ومع ذلك ، فإن
السيد دوبرمون تراجمة فكان باستطاعته أن يستشير السكان قبل أن يتصرف
بتلك الطريقة الظالمة . إنه لم يحترم وثيقة الاستسلام التي وقع عليها بنفسه ،
لأنه نقض أهم موادها بعد التوقيع بثمانية أيام فقط . هل ينبغي أن نتنظر من
الحكومة الفرنسية أنها تتصرف بمثل هذا الجور نحو أمة يزعم أنها كانت ،
قبل الاحتلال ، خاضعة لحكم تصفي ظالم .

وفيما يلي حادثة آخر يكاد يشبه الذي انتهيت الآن من روايته ولكنه

وقع في عهد حسين باشا . إنني سأنقل حرفياً ما جرى أمامي في تلك الأثناء . لقد اشتكى بعضهم ، ذات يوم ، للداي بأن القاضي لا يحكم بالعدل ، وقيل له أنه أصدر حكماً منافياً للقانون ، لم يسبق لغيره من الفقهاء ورجال العدالة أن أوردوه . وبدلاً من أن يعاقب المتهم دون الاستماع إليه ، فإن حسين باشا ، قد طلب من القاضي - في أدب - أن يحضر إلى بيته حيث كان قد جمع سائر رجال القانون ، ثم دعاه إلى تقديم الأسباب التي دفعته إلى إصدار حكم ظالم ، وأمر المفتي والفقهاء أن يتناقشوا معه في الموضوع وأن يطلبوا منه ذكر المادة التي جعلته يتخذ مثل ذلك القرار . ولما نلكا القاضي في أجوبته ، وثبتت الشكوى التي قدمت ضده ، عزله الداى في حينه ونفاه إلى وهران دون أن يرسل معه رجال الدرك .

هذه مقارنة بين إدارة الإيالة والإدارة الفرنسية ، ومع ذلك ، فإن السيد دوبرمون يزعم أنه جاءنا ليقتضي على التمسك ، ويطبق القانون وفقاً للعدالة والانصاف . فلو أن هذه الأخطاء ارتكبها شخص آخر غير السيد دوبرمون لكان يمكن غفرانها . ولذلك صار كل واحد منا يقول : أين هم ، إذاً أولئك الفرنسيون المشهورون ، تلامذة نابليون العظيم ، أين هم أولئك الجحالات المتصرفون ، والمواطنون والقضاة النزهاء ؟ . ماذا فعلوا بعلمهم ، ومقدرتهم وذكائهم ؟

لقد احتجزت أسلحة المييشيا وسكان المدينة . ورجال في أذهاننا أن تلك الأسلحة ستوضع في مستودعات كوسيلة ضمان وأمن . ولكننا كنا نعتقد ، كذلك ، أن الفرنسيين سيتصرفون مثل الروم عندما غزوا الإمبراطورية العثمانية ، لقد قام هؤلاء الروس بجمع الأسلحة ثم جعلوا لكل قطعة بطاقة تحمل اسم صاحبها وأودعوا الكل في مسجد على أن تعاد لأصحابها في الوقت المناسب .

قلت ، لقد كنا نعتقد بأن الفرنسيين سيتصرفون مع الجزائريين على الأقل مثل ما تصرف الروس مع الأتراك . خاصة وأن السلاح بالنسبة لسكان الإيالة يعتبر أثاثاً تزين به قاعات الاستقبال حسب ما تكون له من نفاسة . هناك من يملك أسلحة مرصعة بالفضة ، والذهب ، والأحجار الكريمة . إن هذه الأشياء تمثل رأسمال ، وقد سلمناها بالاعتماد على كلمة الشرف ، وكان ينبغي أن نحفظ لنا مقابل حسن نيتنا . وبالتالي ، كان ينبغي للفرنسيين أن يعتبروا هذه الأسلحة المسلمة لهم ودعابة مقلدة لا تمس بأي أذى ، ولكن بأي حق استولوا عليها ؟ هل يبعث لهم ، أم هل اكتروها أم وهبت لهم ؟ إنهم هم السادة ، ولقد فعلوا ما أرادوا في هذه الظروف ، ولكن يستحيل أن يكون هناك قانون فرنسي يرخص الاختصاب ، بل على العكس ، فإن حقوق الإنسان تتنافى مع ذلك بكل شدة ، والقانون المدني في فرنسا مأخوذ من حقوق الإنسان .

لقد كان لي ، أيضاً ، ولأبنائي أسلحة جميلة ، كانت مرصعة بالذهب والفضة والمرجان والأحجار الكريمة . وكان من الممكن أن تقلد قيمتها بعشرين ألف فرنك . ولكي امتثل للأوامر الصادرة ، وضعتها في صندوقين ثم أودعتهما عند الجنرال لوفردو الذي احتفظ بهما في بيته . وبعد ذلك بقليل ، دعاني هذا الجنرال إلى سحب وديعتي ، فحملتها إلى صديقي فنصل نابل ، ولما رأيت أنه أبدى بعض التخوف أرحته منها ، وفكرت في أن أضعها بين يدي الجنرال الذي كان يسكن الدار التي كنت استعملتها للاستجمام . لقد أودعت هذه الشخصية صندوقي الأسلحة في إحدى الغرف ، ووضع المفتاح في بيته . غير أنني ، في يوم رحيله ، لم أجد المحتوى ، بل كان الصندوقان فارغين . وعندما سألته عن مصير أسلحتي أجابني قائلاً : لقد

أخذ ابنك بعضها ، واحتفظت ببعضها الآخر . وهاك القيمة التي أعتقد أنها تساوي الجزء الذي أخذته . (أظن أنني ما زلت أتذكر أنه دفع لي 36 نابليون).
أن ولدي لم يأخذ شيئاً ، إنه لا يستطيع أن يسرق ما هو ملك له . وعليه فإن ذلك الجنرال الشهم ، ورجال حاشيته هم الذين جردوني من أسلحتي .

الفصل السابع

عن أحداث الترسانة والاحتلال العسكري

عندما أبقن مصطفى ، وزير البحرية ، بأن الكارثة آتية لا ريب فيها ، فتح صندوق النفقات اليومية ، ووزع ما فيه من مبالغ على العمال ، ثم أحرق السجلات ، عندئذ أبحرت كثير من الأسر على متن قوارب الترسانة قاصدة بلاد القبائل وبجاية . وجاءت السفن التجارية المرافقة للحملة إلى المرسى ، فنهت الميناء ، وأخذت السلاسل والحبال والصوف التي كانت في الخنادق ، والمراسي ، والقنب ومجموعة أخرى من العتاد والذخائر ، وتقدر كل هذه الأشياء التي أغلستها تلك السفن ليلاً ، بواسطة قواربها ، نعم تقدر بمبالغ هائلة ، ونحن نجهل إذا كان ذلك قد تم بالاتفاق مع السلطة الفرنسية . ولكنني أعتقد أن كل واحد كان يأخذ لنفسه ، لقد كان هناك ما يكفي الجميع ، وكان الصبوس متفقين فيما بينهم فلا يوشى بعضهم ببعض . كانت تلك هي الثمرات الأولى للاحتلال وللحضارة الفرنسية !

كان نصف الجيش الفرنسي متمركزاً في أجنحة سكان المدينة (أو في ديارهم المعدة للاستحمام) . ولن نقر إلا حقيقة ، إذا ذكرنا هنا بأن مالكي تلك المساكن لم يحصلوا أبداً على أي تعويض ، ولم يكن لهم حق التمتع بملكياتهم وان الأبواب كانت تكسر لتتحرق ، وسجاجات الحديد تقام لتباع . وكان الجنود يخفرون الأرضيات بحثاً عن الكنوز الموهومة . وأخيراً ، فإن الأجنحة والمساكن قد خربت إلى درجة أنها لم تعد صالحة لشيء . وكل ما أرويه هنا بعيد عن المبالغة والمغالاة ، ولكن ، لكي تكون للمرء فكرة واضحة يجب أن يرى بنفسه ما وقع من تخريب .

كانت هذه أحد الأسباب الرئيسية التي دفعت الملاك إلى التنازل عن ممتلكاتهم بالشروط التي تقدم لهم وبأسعار بخسة . وهكذا لم يعد في استطاعة أي واحد ان يفخر بكونه يمتلك عقارات في الجزائر . وبهذه الطريقة كانت الأملاك الوطنية تكتسب في فرنسا أثناء الثورة ، ولكي ننسى هذه الاختصارات ، يجب أن نتذكر قروناً ، أو ينبغي أن تلغ تعويضات تقدر بالملايين لكي يرتاح ضمير المالكين . أنه عهد الثورة والفوضى ، ذلك الذي يخرب فيه كل ما يمكن تخريبه .

إن بعض الأوروبيين من المالكين الجدد قد احتلقوا النزاع ليحتلوا من العقود التي أمضوها ، وذلك بعد أن اقتلعوا الأشجار ، وخربوا الأجنحة وجمعوا الأموال من كل شيء ثم أصبحوا عاجزين عن دفع المبالغ السنوية المتفق عليها ، وكانت المحكمة مكتظة بالرافعين لأن معظم تلك العقود كان قد تم بالراضي عن طريق الدلائل . ومن ثمة فإن بعضهم قد خرب كل شيء ثم أظهر سوء نيته ، بينما كان الآخرون يبيعون من جديد وكانت تلك العمليات المتتالية تخلق كثيراً من النزاعات ، لأن البيع الأول لم يكن شرعياً ولا خالياً من الإشكال

لقد كان هناك غموض بالنسبة للسكان والمحاكم على السواء . وأصبح من المحتوم ، في هذه الحالة ، على المالكين الحقيقيين ، أن يرضوا بالنظام بدلاً من أن يخسروا كل شيء .

بهذه الطريقة وقعت كثير من عمليات البيع والشراء ، وتوصل الفرنسيون أو سيتوصلون إلى امتلاك جميع الملكيات في البلاد . إنني لا أعلم أن هناك ملكية واحدة قد اشترت بكيفية عادية وشرعية .

وليست هذه العقود كلها الا كراءات دائمة وقانوننا لا يعترف بصحتها ، لأن عقد الكراء عندنا لا يمكن أن يكون إلا لسنة . ويزعم بعض الفقهاء أنه يمكن أن تمتد العقود على ثلاث سنوات . ولكنه يبقى ، دائماً ، للمالك حق تمديد الكراء أو إلغائه بعد السنة الأولى . إنني سأتطرق في فصل خاص بكيفية واضحة ومفصلة إلى كل ما له علاقة بقوانيننا .

إن الأسباب التي منعت الفرنسيين من أن يشتروا بالطرق الشرعية على غرار ما يتم عندنا وفي فرنسا ، يمكن تفسيرها كما يلي :

1 - لأنهم غير متأكدين من مواصلة الاستعمار .

2 - لأن معظم الأوروبيين الذين ذهبوا إلى الجزائر مغامرون بدون أموال ، يريدون اكتساب الثروات على حساب الجميع .

وعلى هذا الأساس ، فإن الجنرال كلوزيل قد أخطأ عندما زعم ، في أحد كتبه ، أن بيع الممارات في البلدان الإسلامية لا يتم بنفس الطريقة المعمول بها في فرنسا وإنما مقابل ريع دائم . إننا نود أن يكون اليهود ، مستشاروه المفضلون ، هم الذين أضلوه ، وإلا فإنه قد يتهم بأنه أضل الأمة الفرنسية ، وأولئك الذين توجهوا إلى الجزائر للحصول على ملكيات بطريقة في مثل تلك السهولة .

الفصل الثامن

عَنِ الْإِحْلَالِ الْعَسْكَرِيِّ وَسُلُوكِ أَهْمِضِبَاطِ الْجَيْشِ الْفَرَنْسِيِّ

لقد أسكن عدد كبير من الجنرالات والكونولنالات وغيرهم خارج المدينة . فكانوا يتساقطون لاختيار أجمل الحدائق ، والمساكن الأكثر ملاءمة ، ينتصبون فيها سادة لا ينازعهم . نازح . وكانوا يقطعون الأشجار أو يقلعونها حسب رغبتهم ، ولم يعد المالكون قاصرين على النحول إلى ممتلكاتهم ، ولم ينفق فرنك واحد لإصلاح أبسط الأمور ، وإنما كانت المصاريف تخصص لاقتلاع الأشجار أو للتخريب .

وفيما يخصني ، فإن الجنرال هـ قد استحوذ على جنائي ، على غير علم مني ، وطرده خطمي وعندما علمت بذلك أرسلت ولدي إلى المارشال بوربون ليطالب بالحماية التي تمهد بشرف الأمة ، أنه يقدمها لنا . ولما لم يتمكن ولدي من رؤية المارشال توجه إلى الجنرال تولوزان ، فأعطاه هذا العسكري الممتاز ، حيناً ، أمراً بترحيل الجنرال هـ . . . الذي كان قد سكن داري المعتلة للاستجمام . وعندما قدم له ولدي الأمر ، غضب ثم قطعه وقال :

لقد احتلنا الجزائر ، وأصبحنا سادتها بلا منازع ، كل ما فيها ملكنا ، وليس من حق السيد تولوزان أن يبعث لي بمثل هذه الأوامر . ولما وصلتني إجابة هذا الضابط سارعت إليه لملي أجده فيه إنساناً متحضرأ ومتسماً بالاعتدال والعواطف الفرنسية النبيلة ، وقلت له إن ولدي كان مخطئاً عندما اشتكى عليه ، وأنه يجب أن يعذر شاباً صغيراً ، وإنني جد مسرور باستقبال ضيف كريم مثلك لأكني متيقن من أنه سيحمي الدار من نهب الجنود . وفي الحين فتحت جميع الخزائن لكي لا تكسر ووضعْتُ تحت تصرفه أغلى ما فيها من أثاث وحلي وزراحي وأوان خزفية ، (عدد هذه الأواني كان يزيد عن 500 قطعة) . وكذلك طقم خزفي لتناول الشاي اشتريته من باريس بثلاثمائة فرنك ، ومجموعة من ادوات الطبخ كلها من الخزف ، والخزف المزخرف وجرار مملوءة بالزيت والزبدة وغير ذلك من المؤن الكبيرة التي تعودنا أن نلدها في البادية .

ومن ثمة ، فقد وضعت تحت تصرفه داراً كاملة ، مجهزة بكل ما يحتاج إليه بما في ذلك أدوات الزينة . كما أنني تركت له بعض البغال ، وسائلاً للاعتناء بها . وبالتالي لم يكن هناك قائد أسعد منه في هذا الميدان . ومع ذلك ، فإنه تقبل كل ذلك باعتزاز ولم يوجه لي حتى عبارة شكر ، كما لو كنت قد قدمت متاعاً هو له . وفي نظري ، لقد كان من الواجب عليه أن يتصرف بطريقة أكثر تأدباً ولباقة وأن يبرهن علي أنه يعرف كيف يقدر المواقف ، وأن أصله يتناسب مع مرتبته .

إن هذا الجنرال لم يمتنع عن شيء مما قلته له ، واستعمل بسعة كل ما وجد ، وعندما شارك في حملة المدينة مع الجنرال كلوزيل ، أخذ اثنين من بغالي : نفقا ، من الثعب أو الجوع ، بعد رجوعهما من الرحلة مباشرة .

لقد كان من الضروري القيام بمثل تلك المجاملة لأنني كنت مجبراً على ذلك . وإذا بدا لي أن أزور جنائي ، فلنني أمتنع ، أو يطلب مني أن أحضر أمراً من الجنرال ليسمح لي بالدخول ، ومع ذلك . فقد كانوا يعلمون أنني أنا المالك الحقيقي .

وعندما غادر الجنرال هـ مسكني أخذ معه كل ما أعجبه ، وما كان يمكن أن يحمل حتى أواني الخزف المزخرف ، مدعياً بأن كل تلك الأشياء إنما سرقها مترجمه . وبالإضافة إلى ذلك أخذ صندوق الأسلحة اللذين سبق أن تكلمت عنهما . أن ديار المدينة التي سكنها الأجناد لم تعد صالحة للسكن .

لقد علمت من أناس مطلعين أن الشخصيات التي سكنت القسبة (مقر اللداي) قد حضرت كل الأراضي آملة أن تعثر على الكنوز المخفية . كما أن بعض الأسوار قد هدمت لتفحص الغرض .

ومن جهة أخرى أجبر الخوवास على الرحيل عن مساكنهم لكي نحتل عسكرياً ، وقد غلب اليأس على هؤلاء السكان فهاجروا عن طريق البر أو البحر . يا لها من أساليب تلك التي استعملها رجال السلطة الذين كان يجب عليهم ، على الأقل ، أن يدفعوا أجراً للمالكين تعويضاً لحرماتهم من ممتلكاتهم .

وبعد أن تمركز ، أرسل الجنرال بورهون إلى باي وهران يطلب منه أن يستسلم لفرنسا . ووفقاً لرغبة قائد الجنرالات ، استجاب هذا الباي للأوامر وأعلن ولائه للفرنسيين ولذلك كلف بالبقاء في وهران إلى أن يمين الأوان ، وأن يحصن المدينة ، ضد سكان المناطق الداخلية ، من الإيالة ، ويحفظ الأمن إلى أن ترسل له الجيوش . وباستسلامه لفرنسا ، قطع الباي كل علاقة ودية مع القبائل وتخلّى عن صلاته القديمة . وللاحتفاظ بالمنصب ، كان عليه أن يتفق

من أمواله الخاصة على جيش من الأتراك . إن هذا الرجل ، قلت في السابق ،
مسن ومسلم ، لا يرغب إلا في الراحة . ولذلك استجاب لإرادة الجنرال
الفرنسي ، ولم يعد ينتظر إلا تنفيذ الوعود التي ضربت له والتي تتعلق باحترامه
واحترام كل ما كان يملك . وحسب العدالة ، لقد كان يجب أن يجازى هذا
الباي وأن تدفع مصاريفه لأنه حكم وهران لحساب الفرنسيين منذ استسلامه
إلى أن غادرها ، أي مدة سبعة أشهر . وقبل أن يحتل الفرنسيون تلك المدينة
وردت وفود متعددة إلى إحدى الشخصيات ، وإنني أعرف كما يعرف
الجميع أن هذه الشخصية أرسلت بدورها ، مرات متعددة ، بعض البواخر
إلى وهران تحمل رجالاً من حاشيتها ، وكان هؤلاء الرجال يشترطون على
هذا الباي كثيراً من التوضيحات التي لم يحدث أن رفضها في يوم من الأيام .
سأقص في مكان آخر مغامرات هذا الباي مع الجنرال كلوزيل .

عندما علمنا بالتغيير المأم الذي حدث في النظام الملكي الفرنسي ، فرحنا
بالحادث أشد الفرح ، وقد ابتهجنا خاصة للظروف التي أدت إلى وقوعه .
واعتقدنا بدورنا أننا سنستفيد من ثمار تلك الحرية . لقد كان أملنا وطيداً في
العامل الجديد، لويس فليب (I) الذي كان ينبغي أن تحفظه تجربته ومآسيه من
كل ضعف ، والذي كان يجمع في نفس الوقت جميع الصفات الضرورية
لقيادة أمة عملت على تعيينه ليكون رئيسها وحاميها، إنه رجل يجمع بين الشجاعة

(I) ولد لويس فليب الأول في باريس يوم 6 أكتوبر 1773 ، في نفس السنة
التي ولد فيها حمدان ، وتوفي يوم 26 أوت سنة 1850 . بايعة ثورة جولييت ملكاً يوم
9 أوت 1830 . ولكن ثورة 1848 ستقضي على ملكه وتعلن الجمهورية الثانية يوم
24 فيفري . أما لويس ، فإنه فر يجلده إلى انكلترا حيث قضى العامين الباقيين من حياته .
اشتهر لويس فليب بالبلبن والتفاق حتى مع أخصائه .

والإحساس ، ولقد شوهد في ميدان المعركة يظهر كل عطف الأبوة والزوج الصالح . وكما يقول الشاعر : ولا يعرف الحب إلا من كان عاشقاً .
فالفرنسيون ، إذن ، لم يكن في استطاعتهم أن يختاروا أحسن منه . ومن جهتنا كنا نقول : ليس هذا هو العامل الذي يسمح بأن يخضع الجزائريون لنظام تعسفي ، ليس هو الذي سيأمر بفصل الزوج عن زوجته وأطفاله ، ولا بأن تؤخذ أملاكنا وكل ما لنا من موارد .

في سنة 1820 ، كنت في باريس ، وتشرفت برؤية الدوق دورليان (2) يتأبط ذراع الدوقة زوجته وهو محاط بكامل أفراد أسرته . كنا لانسمع عنه إلا الخير ، وكان الحفل كله مديحاً وبركاً . لقد كان هو الطيبة نفسها ، ومثال الإحساس الرقيق ، والحلم المشخص ، لقد كان الدوق دورليان هو الأفضل رجال القرن .

عندما علمت بالحادثة السعيد الذي جاء بتعيينه قلت لنفسي : « ان الفرنسيين سعداء ، انهم سيمتعون بالحرية » . وطمأنت جميع الأصدقاء مؤكداً لهم بأن هذا الأمير كان كثير الاعتدال ، عادلاً وأهلاً لأن يحب ، وعليه يجب أن نهيء أنفسنا بحكومته . ولكن مع الأسف لقد طال صبرنا ونحباب أملنا .

وأخيراً رفع العلم المثلث واستبدل المارشال يورمون بالجنرال كلوزيل . وكان أول أعماله ، لطمأنة سكان الجزائر ، هو إلغاء ما يسمى بالمحكمة الخفية وإقرار محكمة الإسرائيليين . وكسابقه ، لم يحط نفسه إلا باليهود الذين لا يستحون ولا يترددون أمام أي شيء . إن لنفوذهم ودهائم الماكر دوراً

(2) هو نفس لويس فليب قبل ان يتولى الملك .

كبيراً في تسيير بلدي المسكين : اغتصاب الأملاك وسفك الدماء ، والنهب والجرائم .. تلکم هي الأعمال التي تم في الجزائر ، يا له من دستور ، ويا لها من قوانين لا إنسانية تتعارض مع نظم المساواة والسلام ، يا له من ميثاق هذا الذي يسير شؤوننا !

إن النفي والاحتصاب يكونان منه المادة 57 . وينبغي أن نعتبر أنفسنا سعداء إذا لم تضاف مادة أخرى تقضي بإبادة الشعب الجزائري . وإذا كان مكتوباً (لأستعمل عبارة السيد الجنرال كلوزيل) فإنه يجب أن نستسلم للأمر الواقع ، ولكن من سيكون جلدنا !

إن إلغاء هذه المحكمة كما ذكرت ، خطأ لا يفتقر ، وهو مناف لترتيبات قوانيننا . وهناك مادة من معاهدة الاستسلام تنص على حصانة تلك القوانين . وعليه ، فإن إلغاء هذه المحكمة يتناقض مع مبادئ المعاهدة المبرمة بين الجزائر وفرنسا . فبمقتضى أي حتى وأي قانون قام السيد كلوزيل بإلغاء هذه المحكمة ؟ أليعارض الأمة العثمانية ؟ وبما أنه لا توجد أية عداوة بين فرنسا والإمبراطورية العثمانية فلماذا تحتقر قوانينها ويستهان بنظمها ؟ وبهذه المناسبة أورد بعض الفقرات من قرار 22 أكتوبر سنة 1830

المادة الأولى : ترفع جميع دعاوى المسلمين ، في الميدانين المدني والجنائي إلى القاضي العربي ، ينظر فيها بكل حرية وبدون استئناف ، وفقاً للقوانين وللعرف السائد في البلاد . وفي حالة ما إذا كان القاضي العربي (المالك) في حاجة إلى مساعدة المفتي أو القاضي التركي (الحنفي) فإن هذا الأخير لا يكون له إلا صوت استشاري ، لأن القرار من اختصاص القاضي العربي وحده .

المادة الثانية : ترفع جميع دعاوى الإسرائيليين ، في الميدانين المدني

والجنائي ، إلى محكمة تتكون من ثلاثة واربعة تنظر فيها بكل حرية وبدون استئناف ، وفقاً للعرف والتقاليد الإسرائيلية ، الخ . . .

وهكذا ، إذن ، نرى من خلال ما تقدم أن المحكمة الحنفية التي يسيرها قاض تركي قد ألغيت على الرغم من الاحتفاظ بالمحكمة الإسرائيلية . إن هذه التدابير الظالمة من شأنها أن تخلق كثيراً من الغموض في قوانين البلاد .

الفصل التاسع

عن مصطفى بومزراق ، وباي التيطري

عندما وصل بو مزراق مصطفى ، باي التيطري الذي سبق أن تكلمنا عنه ، إلى المدينة وضع مشروحاً جنوياً لإعلان نفسه باشا أو رئيساً مستقلاً للإيالة : فنظم ديوانه ، وعين من بين الأمراء خزناجياً وآخاه ، وسك العملة . وبعد ذلك ، قام بأعمال تصفية ، واختلاسات وجرائم مختلفة . وأرسل آخاه لإجبار القبائل المجاورة لمدينة الجزائر على أن تدفع له دراهمها وكل ما تملك بحجة أنها كانت تحمل المون لتغذية الفرنسيين في المدينة ، وكتب كذلك إلى باي وهران لينجده بالأموال والنخائر الحربية والقهوة ، وقد ثبت لي أن هذا الباي أرسل له كل ما طلب وأهدأ إياه بأنه سينضم إلى قضيته عندما يحين الأوان . وبعث باي التيطري نفس البيان إلى باي قسنطينة ، ولكن هذا الأخير رفض طلبه وأجابه قائلاً : « إننا متساويان ، ولا فضل لأحدنا على الآخر » . ثم حطره من أن يوجه إليه مثل هذه الطلبات في المستقبل ، وأخبره بأنه لن يستسلم له كما دعاه إلى الاهتمام بشؤونه الخاصة . وأراد مصطفى أن يجدد

الكرة ، فأرسل له ، في هذه المرة الثانية ، قفطاناً ومرسوم تعيينه على رأس البايك .

إن هذه الزقاقة المخزية لم ترد باي قسنطينة إلاّ غضباً حتى أنه لم يتفضل بإجابته . واغتاض باي التيطري بدوره من عدم اللياقة هذا ، مما أدى إلى اشتعال الحرب بينهما . ثم اتصل باي التيطري بإبراهيم ليكون إلى جانبه ، وكان إبراهيم هذا باياً على قسنطينة في عهد الأتراك ، وقد عزل لعجزه وسوء تدبيره ، وعندما كان في الحكم تزوج من بنت أحد شيوخ الصحراء اسمه فرحات (1) ولذلك حمل إبراهيم السلاح إلى جانب باي التيطري ، ولكن هذه المحاولة لم تنجح رغم تضافر المجهودات (2) .

وواصل مصطفى - باي التيطري - تصرفاته الجنونية التي لم يستفد منها إلاّ الجنرال كلوزيل . لقد أرسل لهذا الجنرال برقية مليئة بالمآخذ والتعابير العدوانية ، وأخيراً أعلن أمام الملأ أنه يتخلى عن المهمة التي كلفه بها بورمون . لقد ترجمت بنفسه هذه البرقية وكلفت بالرد عنها . وعلمت أن سكان المدينة اتصلوا سراً بالجنرال كلوزيل وطلبوا إليه أن يأتيهم . وبهذه المناسبة طلب الجنرال من أعيان الجزائر أن يقدموا له قائمة بأسماء أشخاص متوسطي العمر ينتسبون إلى أسر كريمة ، ليختار من بينهم واحداً يعينه باياً على التيطري . وكان يوجد ضمن القائمة الطويلة التي قدمت له اسم مصطفى بن عمر الذي قيل إنه ابن أخ حسين باشا داي الجزائر القديم ، وهذا خطأ لأنه لم يكن إلاّ ابن خال زوجة حسين باشا . وهكذا تم تعيين مصطفى بن عمر باياً على التيطري .

(1) هو فرحات بن سعيد شيخ العرب الذي تكلمنا عنه .

(2) حول هذه القضية انظر الفصل الثالث من مذكرات الباي أحمد .

الفصل العاشر

تابع لإدارة الجنرال كلوزيل ، وحملائه ضد المدينة والبلدة نسخة المأهلات

خرج القائد الأهل من الجزائر على رأس جيش ومعه آغا العرب (حمدان ابن أمين السكة) متوجهاً إلى المدينة . لقد كان سكان الإيالة ، إلى أن جاء الفرنسيون ، يرون في مدينة الجزائر حصناً منيعاً ، ولذلك ظنوا أن الأمة الفرنسية التي استولت عليها هي أمة عظيمة واعتقدوا أنه لا يوجد شعب يستطيع مقاومة جيوشها . ومن جهة أخرى ، فإن تعسفات مصطفى باي التيطري (بو مزراق) ، ومراسلات حمدان الآغا المذكور التي كتبها في صالح القضية الفرنسية ، كلها أفادت الفرنسيين وساعدت كثيراً على القيام بحملة المدينة . ويقال كذلك - لكنني أستبعده - أن الجنرال كلوزيل قد وزع الأموال سراً ، لتسهيل وصوله إلى المدينة .

وعندما دخل إلى هذه المدينة نشر بياناً يؤكد فيه تلك الوعود التي ضربها المارشال بورمون . وقد كتب هذا البيان في البلدة ، وهي مدينة أو

قرية تقع في سفح الجبل ، معظم سكانها من الجبليين الذين تحضروا لتحسين أوضاعهم .

وعندما اقرب الجيش الفرنسي لفروا إلى الجبال . وغادر الفرنسيون هذه المدينة بعد أن تركوا فيها حامية صغيرة تتكون من 600 شخص فقط . وقد استعد الجبليون بمساعدة بعض سكان البلدة لمهاجمة تلك الحامية ، ولولا أن الجنرال كلوزيل رجع بسرعة من المدينة لأبادوها هن آخرها . ولما علم الجبليون برجوع الجيش تفرقوا ولاذوا بالفرار . وعندما قام الجنود الفرنسيون بأعمال وحشية في هذه المدينة وأحدثوا مجزرة رهيبة ، لم ينج فيها رجال ولا نساء ولا أطفال . هناك من يذكر أنه تم تقطيع بعض الرضع على صدور أمهاتهم . ووقع النهب في كل مكان ، ولم يستثن حتى الجزائريون الذين فروا إلى هذه المدينة لينجوا من ظلم الحكومة الفرنسية ، وليجدوا وسائل تمكنهم من العيش (إنني أتكلم هنا بكل نزاهة ، ولا أروي وقائع الأحداث إلا كما جرت) . وهكذا ، فإن عدداً كبيراً ممن لم يكونوا يفكرون في خيانة الفرنسيين ، ولا حتى في معاداتهم ، قد وقع تقطيعهم في هذه الظروف ! هل من العدل أن يكون الاحتداد أو الغضب في سبب مثل هذه الأفعال ؟ وبهذه المناسبة أذكر الحادثة التالية :

لقد اضطر المسمى محمد بن سفة إلى المجيء إلى البايذة ليعيش فيها ، وكانت مهنته كإسكاني لا تكفي لتوفير وسائل عيشه ، وعيش امرأته وبناته الصغيرات الأربع . وقد كان يسكن داراً صغيرة ، دخل إليها في أثناء الهجوم وأغلق الباب . إنه لم يكن يملك أي نوع من أنواع السلاح ، ولم يكن معه سوى الأدوات التي يشتغل بها . وعندما دق الجنود الباب خرج إليهم صحبة زوجته ،

ولكن سرعان ما وجهت إليه طلقات عديدة أردته قتيلاً ، كما قتلت طفلة لها من العمر عامان ، أما زوجته فقد كسرت ذراعها ، ونهبت الدار كلها . ولما بقيت الزوجة المسكينة بدون مورد بعد أن كسرت ذراعها وأصبح عليها أن تعمل ثلاث بنات ، توجهت إلى القائد الأعلى ، ولكن شففته لم تزد على أنه أركبها بغلة دون أن يضمدها جرحها الذي ظل يدمي طفلة الطريق .

إنه ليؤلمنا كثيراً أن نذكر هذه التفاصيل ! لأن المؤرخ أيضاً ، إنسان ، وهو مجبر على أن يتوقف عن التفكير وعن الكتابة ليتحسر على بعض أفعال الناس . فجمع الأسف ، فما هو العلاج لكل هذه الشرور ؟ إن شياطين السوء تظهر في كل العصور ، تجر وراءها أنواعاً من الآفات . والملوك - في كل عهد - مجبرون على مشاهدة تلك المعارك ، يدوسون الجثث بأقدامهم ويسمعون صيحات الألم ... ويرون ، أخيراً ، جميع ويلات النهب والموت !!!

إن هذه المرأة قد أصبحت تتسول بعد هذا الحادث . وغيرها من السكان كثيرون . ولقد كنا فيما مضى ، نستطيع إعانتهم لأننا كنا نملك مؤسسات خيرية . أما الآن فإن تلك المؤسسات كلها أصبحت في أيدي السلطات الفرنسية التي توزع من حين لآخر بعض الصدقات ... فيعطى لكل فقير في كل أسبوع (سوردي) أو اثنين في بعض الأحيان .

يأتي هؤلاء البؤساء بالآلاف ، فيتنازعون ويتضاربون على تلك المعونة البسيطة . وفي أثناء التوزيع تندب الطرقات . إن مثل هذه المساعدة وهذا التوزيع القليل لا يحققان الهدف المنشود ، ولا يكفيان لسد حاجات مثل ذلك العدد من المعوزين . ولكن المدبر لا يستطيع أن يفعل أكثر من ذلك . ومن جهة أخرى ، فإن نصف المبالغ المخصصة لهذا النوع من الإعانات يهبط

لشخص لن أذكر اسمه ، ويوزع الربع الأول من النصف الباقي على المدير والموظفين والمعوزين أما الربع الأخير ، فإنه ، يحفظ لأملاك الدولة ولتنمية خزائن فرنسا

ولكي نعود إلى حوادث البلدة ، أقول ، أخيراً ، إنه كان يجدر بالجنرال ألا يترك أية حامية في المدينة بدلاً من أن يترك واحدة لا تستطيع أن تحمي نفسها من الجويلين الكثيري العدد ، وعندما يأتي المرء للحرب في هذه المقاطعة ، كان يجب عليه أن يتوقع جميع أنواع الانتقام خاصة من شعب تعصبى ساخط ، ثم إن هذا الغزو لا يشرف فرنسا لأن نتائجه تؤدي ، حتماً ، إلى إبادة جزء كبير من المخلوقات التي تكون الجنس البشري . وهل كان الفرنسيون يتصرفون بمثل هذه الطريقة لو أن الجزائريين كانوا يتدينون بدينهم ؟ وعلى الرغم من أنني لا أعتقد ، شخصياً ، بأن الفرنسيين قدموا إلى الجزائر بدافع ديني ، فإن تلك هي فكرة كثير من الأشخاص الآخرين الذين يدعمون رأيهم بوقائع لا تقبل المنازعة . ما هو الغرض من مساعدات قدمت لليونانيين ومقدارها سنون مليوناً ، ساهمت فيها فرنسا وحدها بعشرين دون أن يكون لها أي مقابل ، أليس الغرض من تقديم المساعدة هو بناء مجد فرنسا ، ولكي تتمكن تلك الأمة العظيمة من احتلال مكانة في سجلات التاريخ ؟ والمساعدات التي قدمت للبلجيكيين ، والبولونيين ، وتلك التي تقدم حالياً للبرتغاليين ، ألم تعط كلها لنفس الغرض لأن كل هذه الشعوب لا تقدم لفرنسا أي مقابل يتناسب مع مثل هذه التضحيات كلها ؟ وعندما نرى مثل هذه النوايا الحسنة كيف نصدق بأن نفس فرنسا هذه ترضى بأن يحكم الجزائريون التابعون لها بمثل تلك الطريقة الجائرة .

إن وقوع مثل هذا العدد الكبير من الأحداث الجائرة يمح على أن أعرف بها ليسجلها التاريخ ، ولنئين للأجيال القادمة كيف كانت تفهم الحضارة في القرن التاسع عشر . إننا نعلم ، في الجزائر ، وإذا أردنا أن نرفع أصواتنا ضد هذا النظام التعسفي ، فإننا ننفي . . . أستطيع الناس ، إذن ، أن يفرضوا السكوت ؟ ولماذا لا يحكمنا الفرنسيون حسب نظامهم القانوني ؟ لماذا لا يكونون معتدلين ، ولا يتصرفون وفقاً لقوانين العدالة إذا كانوا يريدون حكمنا بسلام ؟ وما من شك أنه كان يسرنا أكثر أن نتكلم بلغة أخرى ، فذكر محاسنهم ونوجه لهم عبارات الشكر والتقدير ، ولكننا ، مع الأسف ، عيرون على ذكر وقائع تنتصب لهم في شكل منهم . وإننا لا نذكر هنا ولا نعيد إلا رسم المشاهد المؤلمة لكل ما يجري ، مع العلم بأننا لا نستطيع نقلها كما ينبغي .

ولأتمم ما له علاقة بمحنة المدينة ، أقول : إن الجنرال كلوزيل لم يبق - صحبة آغا العرب وابن عمر باي التيطري - أية مقاومة في طريقه . لم يقم أي واحد بحمل السلاح ضد الحملة للأسباب التي ذكرناها ، وأن معظم من كان يمكن لهم أن يحاربوا الفرنسيين قد انسحبوا إلى جبالهم الوعرة حيث يستطيعون حماية أنفسهم من جميع الهجمات بالحجارة فقط .

لم يكن لمصطفى ، باي التيطري ، أنصار من بين البرابرة ، ولما تأكد من عجزه وفشل قضيته لجأ إلى أحد المرابطين . وهكذا ، إذن ، استسلمت المدينة لسلطان الفرنسيين ، وفي الحين شرعت السلطة في الاستيلاء على أملاك الأتراك وكل ما كان تابعا للحكومة القديمة . وبهذا الصدد نقلت إليّ الواقعة التالية ، ومع ذلك فإنني لا أستطيع تأكيد صحتها : قبل أن يسحب القائد الفرنسي جيوشه ترك بن عمر في المدينة بصفته بابا ، ولكنه لم يترك له أية حامية لتدعيم سلطته . وقد سمح له بأن يجمع الضرائب على الطريقة التي كانت

تجمع بها في عهد الأتراك ، وذلك بقطع النظر عن كون البيانات تؤكد إلغاء تلك الضرائب . وإن أمر ابن عمر يجمع الضرائب وحده كاف للتدليل على أن وعود الفرنسيين ليست إلاّ كلاماً فارغاً ، وحيلاً غريبة للوصول إلى الهدف الذي يصبون إليه . لقد كان أخذ الضرائب هو عمل الجور الذي تعير به الإدارة التركية ، ومع ذلك لم يكن هناك نفي ولا نهب ولا تقتيل . لقد كان الأتراك مستبدين ، ولكن في درجة أقل من استبداد الفرنسيين الذين حققوا تفكلاً كبيراً في هذا الميدان ! . ومن الواجب على الجنرال كلوزيل أن يعجب بجزء من هذا التأليف .

هناك من يؤكد بأن الحكومة الفرنسية قد أمرت بأن يعتقد المسلمون الديانة المسيحية . ويبدو أن « البريد الفرنسي » الصادر بتاريخ 20 جوان قد اكتشف السر ، ومع ذلك لم يصدر أي تكذيب في الجرائد الوزارية . من الممكن أن ثمة من يعتقد ، في أوروبا ، أن الجرائد لا تصل إلى البدو ، وأن هؤلاء الآخرين لا علم لهم بالسياسة الأوروبية . وهذا خطأ لأن البدو يعرفون كل ما يجري في أوروبا ، بينما لا يعرف الأوروبيون ماذا يصنع البدو في افريقيا ، ولكنهم يضحخون الوقائع . وأن معظم البرابر الموزعين في مدن الإيالة وفي مدينة الجزائر خاصة ما زالوا يحتفظون بعلاقاتهم مع أهاليهم الذين يسكنون الأرياف . وموضوع أحاديثهم بالطبع هو أحداث اليوم . وكل ما يجري في مجال السياسة . وتردد الأخبار من فم إلى أذن إلى أن تصل حدود الصحراء ، وكما يقول الشاعر العربي : إن الوقائع تتكلم بالنسبة لمن يريد أن ينفخ سيرته .

وعندما رجع من المدينة لم ينس الجنرال أن ينسب لنفسه مجد ونتائج هذه الحملة . ففزل حمدان آغا الذي لم تعد لنفوذته أية فائدة في إنجاح مثل هذه الحملات الداخلية ، وأعطيت الأوامر لكي يصحب برجلين من رجال

الدرك كلما أراد الخروج من داره (I). ويوجد حمدان آغا ، الآن في باريس ، وقد أعطاه الجنرال كلوزيل شهادة تثبت بأنه خلع القضية الفرنسية بإخلاص ونجاح.. فلماذا عزل إذن ؟ ولماذا كل ذلك التشكك العجيب في سيرته ؟ ولماذا استبدل بحاكم آخر ؟ وإن سلطات الحاكم الجديد لا تتعدى حدود النتيجة . فيا لها من إدارة طائشة ؟ ! يستعمل أحد أبناء البلد كل سمعته ونفوذه وثروته لخدمة القضية الفرنسية . وعندما يقدم خدمات جليلة يعزل ! يعلن عن إلغاء الضرائب ثم يكلف ابن عمر باي ويؤمر بجمع تلك الضرائب في المدينة على الطريقة التي كانت تجمع بها في عهد الأتراك ، وذلك بعد أن نشر الجنرال يوسف ، بأمر من الجنرال المذكور بياناً يؤكد إلغائها ، يا لها من تناقضات عجيبة ! ومع ذلك يبدو لي أن هذا الجنرال كان يجب أن يكون صادق الوعد لأنه يمثل ملك الفرنسيين في مملكة الجزائر .

وإذن ، فقد وجد ابن عمر نفسه في حيرة إزاء سكان المدينة ، فالذين كانوا خارج المدينة ، رفضوا أن يدفعوا ، ولم يكن يملك الوسائل لإرغامهم . إذ لم يترك له سوى مدفعين وقليل من البارود . ولقد كان من الممكن أن يذهب ابن عمر ضحية لو لم يساعده بعض المغتربين من مدينة الجزائر الذين هاجروا إلى المدينة . إنه لم يكن قادراً على الاعتماد على سكان المدينة الأخيرة التي لم تستسلم للفرنسيين إلا منذ مدة قصيرة ، ثم إن هؤلاء السكان كانوا يخشون البدو أكثر مما يخافون السلطة الفرنسية . إن هجوم هؤلاء البدو شديد ، ومن الصعب أن يقاوموا عندما يهيجون . لقد كانوا يهاجمون الجزائر من حين لآخر ، ولولا وجود الجيش الفرنسي ومدفعيته لقتل الجزائريون عن آخرهم ،

(I) أي أنه وضع تحت الإقامة الجبرية .

وسبب تلك الهجومات هو أن هؤلاء الأخيرين قد تبنوا قضية الجيش الفرنسي لقد كان من الواجب على الجنرال كلوزيل أن يترك لابن عمر قوات كافية ، وأن يبدي استعدادات حسنة ، واعتدالا ، وأن يوفي بعهوده وبالالتزامات التي أخذها على نفسه . بهذه الوسائل كان من الممكن ألا يظهر البدو أية عداوة ، وأن تعيش المنطقة في هدوء وأن يستغني ابن عمر عن استعمال القوة .

عندما قام الجنرال كلوزيل بحملته ضد المدينة كانت المواصلات بين هذه المدينة ومدينة الجزائر تكاد تكون مقطوعة . ولما رجع جاءه الأشرار وأخبروه بأن عدداً من السكان كانوا قد أشاعوا بأن الجنرال انهزم أمام القبائل وكنت واحداً من المتهمين بارتكاب هذا الذنب . وبهذه المناسبة كان السيد ، كادي دوفو ، قد جمع المجلس البلدي وكنت عضواً فيه لتهنئة الجنرال بالعودة سالماً . وعلى أثر الزيارة أخبرنا بالتقرير التي وصلته . وقال بأنه عملاً على راحته وللتدليل على الثقة للحكومة الفرنسية ، يجب أن نجمع له على الأقل 50 من أبناء الأعيان ، يبعثون إلى فرنسا كرهائن ، وليتعلموا اللغة ، الخ أيد شيخ البلدية هذا الطلب واقترح أن يشرع في تنفيذه ، وإلا إذا تعذر ذلك ، أن تشترط مبالغ مالية بدلاً من الأطفال ، ثم أضاف السيد كادي دوفو بأن رفض إرسال الأطفال إلى فرنسا سيعتبر خروجاً عن طاعة الفرنسيين ، والذي لا يريد الامتنال لهذا الإجراء يجب عليه أن يخرج من مدينة الجزائر . ومع ذلك ، فإنه لم يجرأ أحد على الخروج من الجزائر ، وعلى إرسال أبنائه إلى فرنسا .

1 - لأن الوالي لم يكن موثقاً به .

2 - لأن هذا الطلب جائر ، وحتى من كان يرغب في إرسال ولده ليتعلم في فرنسا ، فإنه أصبح يرفض الموافقة على هذا الطلب

التعسفي . وعليه ، فإن شيئاً لم يتم في هذا الميدان ، وضاعت القضية في عالم النسيان .

كان المجلس البلدي يتكون من سبعة أعضاء كانوا ، قبل تعيين السيد كادي في منصب شيخ البلدية ، يستطيعون التداول بحرية حول القضايا . غير أن السيد كادي لم يعد يعطي أي اهتمام لآرائهم ، وصار ، بتصرفاته كأنه يحتقر هذا المجلس . ونتيجة لذلك هاجر اثنان من أعضائه وهما : سيدي مصطفى السانجي ومحمد ولد إبراهيم رئيس .

نظراً لذلك التغيب شرع في العمل على استبدالهما . وهكذا دعاني ، الجنرال تولوزان ، لشغل إحدى الوظائف . فقبلت لأنه لم يكن بإمكانني أن أرفض . وقبل هذا العرض كنت متهماً ، نظراً لأنني كنت في خدمة الأتراك ، بأنني أرغب في عودتهم ، وبأنني لن أرضى بأية وظيفة في ظل الحكومة الفرنسية . ولذلك ، وعلى الرغم من أن وقتي يكاد يضيق عن مشاكل الخاصة ، فلأنني قبلت منصباً كان الجميع يرفضونه ، ومن جهة أخرى ، فلأننا لم نكن قادرين على التعبير عن آرائنا أثناء اجتماعات المجلس . فالمداولات كانت صامتة وشكلية فقط ، وبكلمة ، فإن مساهمتنا كانت غير مجدية .

كان أحد أعضاء هذا المجلس ، وهو المسمى بوضربة ، في نزاع معي . فلم أكن أرغب في لقائه ، وكان كل منا يشتكي بصاحبه إلى القائد الأعلى ، وقد انتهت هذه القضية بعزل أربعة منا واستبدالهم بآخرين .

كان هذا العزل مصدر سعادة لنا وتخلصاً من أحد الأعباء التي تثقل كواهلنا ذلك أنه على الرغم من أن السيد شيخ البلدية لم يكن يتبع سوى هواه ، فلأننا

كنا مسؤولين ، تجاه سكان الجزائر ، عن أعماله لأننا كنا نوافق عليها كما لو أنها كانت أعمالنا .

قبل أن أنخل عن وظيفتي كان الجنرال كلوزيل قد طلب من البلدية أن تسلمه مسجد العاصمة الكائن بناحية ميناء السمكة ليحول إلى مسرح ، وأكد بأن حكومته أذنت له بأن يقدم مثل هذا الطلب فقلنا له : إننا لا نستطيع الموافقة على هذا الإجراء ، وحتى لو أردنا أن نفعل ذلك ، فإننا لا نستطيع ، لأنه ليس من اختصاصنا ، واكتفينا ، بأن قلنا له : إذا كان المرغوب هو إقامة مسرح ، فإنه يمكن استعمال مسكن الداي القديم الذي هو واسع ، كما أنه يمكن استعمال الأراضي المحيطة به لبناء مسرح جديد إذا اقتضى الأمر ذلك . وهكذا ظل الطلب غير محاب ولم يبن المسرح .

كان من بين اليهود المقررين إلى الجنرال واحد اسمه ب ، وهو رجل لئيم لكنه يجيد التأمر ، وتوجد لديه جميع الوسائل الضرورية للتشرب إلى المجتمع يدبر المكائد ويقوم بالأعمال اللديمة .

وهكذا أرسل حظي هذا الجنرال إلى وهران ، في مهمة لدى الباي ، يستخرج منه الفوائد ويجعل منه بقرة حلوبا . ومقابل هذه الخدمات وتلك المحاباة أعطي للسيد ب . . . (1) وسام جوقة الشرف . وعندما قدم رُسل تونس إلى الجزائر قلموا إلى السيد ك (2) هدايا رائعة ، أجهل نوعها . كانت مهمة هؤلاء الرسل إفضاء عقد خاص ببيع مقاطعتي قسنطينة ووهران .

كانت المفاوضات حول هذا الموضوع قد ابتدئت من طرف السيدين د (3) و (4) اللذين أرسلهما الجنرال بورمون خاصة لتوزيع

(1) و2 و3 و4) نعتقد أن ب هو بكري وك هو كلوزيل ود دوبينيوسك صاحب الشرطة . أما ج . . فلم يتمكن من اكتشافه ولكن يحتمل أن يكون السيد جبراردين .

البيانات التي تدعو الشعب إلى عدم الاعتداء على الجيش . وقد رأيت بنفسى أثناء سفري إلى قسنطينة ، تلك البيانات المختلفة التي يكاد يكون معناها واحداً ، فهي تدعو العرب والقبائل إلى مصادقة الفرنسيين ، وتعدهم وعداً قاطعاً بأنه لم يعد يشترط منهم تلك الضرائب التي تعودوا دفعها للأتراك ، وبأن جميع أنواع الظلم والإهانات ستتوقف ، وبأنهم سيتمتعون بالعدالة والحرية ، وتضمن لهم حرية العبادة ، الخ . . .

عندما وصل مبعوثا الفرنسيين السيدان د وج ، إلى تونس ، انصلا بالباي عن طريق قنصل فرنسا . عندها ظهر مشروع بيع المقاطعتين ، وبمقتضى هذا المشروع تسلم قسنطينة ووهران إلى باي تونس مقابل مورد سنوي قدره مليون من الفرنكات يدفعه لفرنسا عن كل مقاطعة . ويقال إنه كان يتوقع أن ينال المبعوثان الفرنسيان مكافأة هامة ، ولكن التغير المفاجئ في الحكومة الفرنسية ، وعزل المارشال بورمون بعد ذلك ، منعا من إدخال المعاهدة في حيز التنفيذ .

ولما وجد الجنرال كلوزيل مشروع البيع هذا في وثائق سابقه ، أمر بإحيائه من جديد وتم التوقيع عليه من الأطراف المعنية . ويقال لنا بهذا الصدد ، وإن كنا لا نجزم القول ، إنه بالإضافة إلى المليون السنوي تم الاتفاق على أن يعطى مليون آخر لشخصية لا أريد ذكرها هنا ، ومائة ألف فرنك لشخصية أخرى لما مرتبة أدنى . ويقال إن هذا المبلغ الأخير قد وقع تحويله وأنه يوجد عند أحد رجال البنوك بباريس ، وإن الصيرفي قد دفع عربوناً قدره بضعة آلاف من الفرنكات .

وحسب ما أعرفه ، فإن الحكومة التركية ، لم تكن تستخرج من كل

مقاطعة، في ميدان الضرائب ، إلا ثلاثمائة ألف فرنك على أكثر تقدير (5)

وهكذا ، إذن ، فإن تلك البيانات التي تؤكد إلغاء الضرائب تتعارض مع معاهدات الجنرال كلوزيل التي تجعل الشاري ، باي تونس ، مجبراً على أن يستخرج من السكان أكثر من ثلاثة أضعاف الضرائب العادية التي كانت تدفع للأتراك ، كل ذلك بقطع النظر عما كان يمكن أن يطلبه ذلك الجنرال من منافع أخرى . وبهذه الكيفية ، فإن من كان يدفع عشر فرنكات يصبح مطالباً بأربعين على الأقل ، هذا ما أدركه العرب والقبائل أنفسهم . وإن هذه التصرفات ، كما نرى لا تحتاج إلى تعليق .

كل هذه الظروف قد أثبت العرب والقبائل في حالة عداة دائم ضد الفرنسيين ، وساهمت كثيراً في تقريبهم من باي قسنطينة .

ومن حقنا أن نصرح هنا بأن فرنسا ، عندما أبرمت مثل هذه المعاهدات ، قد تصرف في الإيالة بكيفية لا يمكن أن تضاهيها كيفية من حيث الجور والتعسف (6) ، وما من شك في أن هذه الأعمال كانت ستدان من طرف الدول الأوروبية التي تهتم بتحرير الشعوب وعق الرقيق (7) .

بمثل هذه « النوايا الحسنة » كيف لا تريدون أن يرغب العرب والقبائل

(5) هذا خطأ لأن الدنوش وحده كان يقدر بحوالي مليونين ونصف من الفرنكات بالنسبة للمقاطعات الثلاث . مع العلم بأن بابلوك التيطري هو أفقرها . وبالإضافة إلى الدنوش هناك أنواع مختلفة من الإتاوات والضرائب المفروضة على الواردات والصادرات الخ . . .
(6) من الثابت أنه تم التوقيع على المعاهدتين الخاصتين ببيع مقاطعتي وهران وقسنطينة ، ولكنهما الغيتا من طرف الحكومة الفرنسية . انظر نسخة من كل منهما في آخر هذا الفصل .
(7) يظهر أن حمدان كان يؤمن كثيراً بحقوق الإنسان .

في أن يعود إليهم السيد المارشال كلوزيل ؟ وما من شك أن سلوكه هذا هو الذي جعل الجرائد تكتب يومياً ، بأن هذه الشخصية محل عبادة في إفريقيا . ولقد كنت أود ، عندما سافرت إلى قسنطينة ، لو صاحني بعض الشهود ليسجلوا « الثناء » الذي كان يوجه لهذا القائد الفرنسي طوال الطريق ، من الجزائر إلى قسنطينة .

كان المفتي سيدي محمد العنابي رجلاً نزيهاً وفاضلاً . ذنبه الوحيد أنه كان يكتب دائماً إلى الجنرال كلوزيل يأومه على تصرفاته التي كانت تبدو له مخالفة لوثيقة الاستسلام ، للقوانين الفرنسية ولحقوق الإنسان . ولكن الوالي كان عنيداً ، وعليه قبض رجال الدرك على المفتي وقادوه إلى السجن ، وتعرضت أسرته لجميع الإهانات بحجة أنها كانت تدبر مؤامرة . يا ترى ، ما هي الجناية التي يمكن إسنادها للنساء والأطفال ؟

وعندما تقدمت إلى الجنرال كلوزيل أسأله عن سبب هذا الاعتقال أجنبي بأنه كان يتفاهم مع القبائل لإثارتهم ضد الفرنسيين . ثم توجهت إلى المفتي فحدثته عن هذا الاتهام وسألته عن الأسباب التي يمكن أن تكون في أصل تلك الادعاءات ، فاحتج أشد الاحتجاج ضد هذه التهم ، وقال إنها كاذبة ، وما عليهم إلا أن يأتوا بالبراهين .

وبعد التمهيص فيما يمكن أن يكون السبب أو الأصل في الاتهام ، وجدت أنهم إنما استعملوا تلك الحجة لإبعاد المفتي عن الجزائر حتى لا يقال أنهم نقضوا المعاهدة فجأة .

وبعد ذلك علمت من المفتي نفسه كيف وقع اعتقاله ، وأرى من

الواجب عليّ ، لفائدته ، أن أقدم لقرائي تفاصيل الحادث (8) .

لقد جاءه ترجمان الجيش وأخبره بأن الجنرال ينوي إخلاء مدينة الجزائر ، قال له : « إنه يريد أن يسلمك الحكم ، هل في استطاعتك أن تنظم جيشاً وقوة كافية ، لتهدئة البلاد والدفاع عن نفسك ؟ » .

أجاب المفتي بأنه « عندما يحين الأوان ، سأبذل كل ما في وسعي للقيام بإعادة التنظيم » .

— هل ستحصلون على الجنود من الداخل ، أم هل لكم الكفاية في مدينة الجزائر ؟

— في المدن وفي كامل أنحاء الإيالة ، وعندما يقتضي الأمر ، فإنني أستطيع الحصول على ثلاثين ألف جندي يكونون تحت تصرفي .

ويقال إن الترجمان كان قد أخفى شخصين ليكونا شاهدين على هذه المحادثة ، ولاستعمالهما ، عند الحاجة ، ضد المفتي .

هذه على ما يبدو هي الوسائل التي استعملت للتخلص من المفتي . وتلك هي المبادئ التي كان يطبقها السيد الوالي ! فعندما يريد هذا المسؤول أن يقوم بعمل تعسفي أو أن ينفي هذا ، ويبتز أملاك ذاك ، فإن جميع الوسائل « تبدو له صالحة » . والذي ينفي أو يفقد أملاكه يجب أن يعتبر نفسه سعيداً لأن هناك من يقدم للمحكمة العسكرية . وعلى هذا الأساس ، فلذا أراد الوالي أن يتبرأ من نفي هذا المفتي ، فما عليه إلا أن يدلنا على القانون الذي خول له القيام بإجراءات ضده !

(8) قال : لفائدته ، لأنه كان قد وعد بأنه لن يغشي السر لأحد .

عندما أخبر المفتي بالنفي توجهت من جديد للقائد الأعلى ، أنوسل إليه أن يسمح له ، على الأكل ، بتسوية شؤونه وبيع أملاكه وأثاثه وعقاراته . وبعد كثير من الصعوبات حصلت له ، تحت كفالتي ، على أجل مهلته عشرون يوماً سوى خلالها حساباته . وعند انتهاء الأجل رحل إلى الاسكندرية .

إن هذا العمل الجائر قد جعل الناس كلهم يرتابون ، وخاصة السلطة التشريعية والقاضي والمفتي . فلم يعد أي واحد منهم يجرؤ على الكلام عن وثيقة الاستسلام خشية أن ينال مصير المفتي المذكور .

وأمر المكلف بإدارة أملاك مكة والمدينة بأن يدفع إلى صندوق أملاك الدولة كل ما كان يحتفظ به من أموال ، وأن يسلم في نفس الوقت جميع الدفاتر . لقد امتثل ذلك المدير إلى تلك التدابير وعلمت أن المبالغ المسلمة كان قدرها 140 ألف فرنك . غير أنه أذن لهذا الشخص أن يواصل اقتضاء مقادير الكراءات حسب العادة ، ولكنه تلقى تعليمات جديدة بتغيير قوانين المؤسساتين تغييراً كلياً . لقد كان المدفوع من هذه القوانين هو مساعدة الطبقة الفقيرة ، كما سبق أن أشرنا إلى ذلك ، وتوزيع جميع الواردات عليها ، أما الآن فإنه لم يعد يوزع عليهم أسبوعياً ، إلا حوالي 800 فرنك .

١٠ هي الوسائل التي استعملت لجعل الحكومة الفرنسية توافق على هذه التدابير ؟ فيا لبني كنت أستطيع أن أرى مراسلات هذا الوالي إبان حكمه لكي أعرف على ما الذي أيد آراءه في مثل ذلك التناقص مع نوايا الحكومة الفرنسية ، خاصة فيما يتعلق بالطبقة الفقيرة المحتاجة .

لقد كان الجنرال بارتوزين ، خلال المدة التي حكم فيها الجزائر ، ينوي إعادة أملاك مكة والمدينة لأصحابها . وكان للسيد يشو والدوق دوروفيكو

نفس التفكير ، ولكن واحداً من هؤلاء لم يطبق تلك الإجراءات الحسنة .
ولأبرهن لقرائي على أنني لست إلاّ "مردداً لآراء مواطني" ، فإنني أحيلهم
على كتاب السيد بيشون الصفحة 442 للاطلاع على وثيقة كان أحد قادة
العرب قد وجهها للملك الوالي . وبدلاً من أن يصلح الأضرار ويعوضنا ، فإن
السيد جان تي دوبيسي ، قد فعل أحسن من ذلك : أنه صرح بأن جميع المساجد
والمؤسسات الخيرية والأوقاف ملك للدولة .

وهكذا ، تم الاستحواذ على جزء كبير من المساجد ، اكتري بعضها
لتجار حولوها إلى محلات ، وخصص بعضها الآخر لإسكان جيوش الحملة (9) .

لقد سبقني سيدي إبراهيم بن مصطفى ، الذي غادر باريس منذ مدة
وجيزة ، إلى تقديم جميع هذه الاعتراضات إلى الحكومة الفرنسية . وأجيب
بأن تعليمات ستوجه إلى السيد جانتي دوبيسي لإصلاح الأخطاء ولتكون إدارته
مطابقة للعادلة (10) .

غير أن الرسائل التي ترد علينا من الجزائر ، تخبرنا بأن نفس النظام ما
يزال سائداً ، وأن السيد جانتي ما زال يتصرف بنفس العنف إلى درجة أنه
أجبر عدداً من مستأجري بعض العمارات التابعة لأملاك مكة والمدينة على
إخلائها قبل انتهاء العقد .

(9) لقد وجهت إلى معالي وزير الحرب مذكرة فيها جميع اعتراضات سكان
مدينة الجزائر . كما أنني توجهت إلى الملك في نفس هذا الموضوع (انظر آخر هذا الجزء
نسخة المطالبات) .

(10) انظر في آخر هذا الجزء تحليل المذكرات والكلمات التي وجهها سيد إبراهيم بن
مصطفى باشا ، وجواب الوزير في هذا الموضوع .

وفي رسالة وزير الحربية ، بتاريخ 18 جويلت 1833 ، التي يلاحظ فيها بأنه يجب أن أكون راضياً وردت الفقرة التالية : « لقد أمرت بأن يسمح لكم بتقديم اعتراضاتكم . ولقد استقبلتم من طرف الشخص الذي كلفته بشؤون الجزائر » . هذا الشخص هو السيد مارتينو . وها هو ما قاله لي عندما مثلت بين يديه : « فكروا في كل ما تقدمونه للحكومة من كلام ، ولا تكونوا متحيزين ولا مباليين » .

إنني لا أعرف كيف أفسر مثل هذه الإجابة . إنني أعترف بأنني لست فرنسياً ، ولا أعرف جميع دقائق هذه اللغة . وإنني عرضت الوقائع ، في مذكرة المطالبات ، بكيفية صريحة ولا يعترها غموض ، ولكنني لا أعتقد ، ولا يمكن أن أتصور أن تلك طريقة مباشرة للإجابة .

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحاكم المريد لكل شيء .

« إن الموقعين أسفله ، بارون فولان ، رئيس مقتصدي الجيش الفرنسي في إفريقيا ومقتصد مملكة الجزائر ، المفوض من طرف الجنرال كلوزيل القائد الأعلى لجيش افريقيا ، وسيدي خير الدين آغا الممثل لجلالة باي تونس ، وأحمد باي وهران ، المجتمعين للاتفاق على ضبط الشروط التي يتولى بها أحمد باي إدارة بايلك وهران ، قد اتفقوا على ما يلي :

المادة الأولى : إن أحمد باي ، أمير البيت المالك في تونس ، الذي عين باياً بقرار من القائد الأعلى للجيش بتاريخ 4 فيفري الحالي ، سيتولى حيناً ولاية

البابلك المذكور بجميع ملحقاته ما عدا حصن المرسى الكبير الذي تحتفظ به الحكومة الفرنسية لنفسها .

المادة الثانية : سيبقى إزاء الاحتلال الفرنسي ، الذي يوجد مقره بالجزائر في نفس وضع التبعية التي كان عليها سابقوه من البايات إزاء إياالة الجزائر . وبديهي أن هذه المادة لا تتعلق إلاّ بالملكات التي حصلت عليها فرنسا بواسطة الغزو .

المادة الثالثة : لا تؤخذ عن البضائع والسلع القادمة من فرنسا إلى موانئ البابلك غير الرسوم التي تفرض على مثيلاتها عندما تدخل ميناء الجزائر . وعليه فإن تعاريف الجمارك المسنونة أو التي ستسن في الجزائر هي التي تطبق دائماً .

المادة الرابعة : يحظى الفرنسيون والأوروبيون بحماية خاصة في كامل أنحاء البابلك . ومن يأتي منهم لفلاحة الأرض تعفى متوجاته من جميع الرسوم والضرائب خلال السنتين الأولى والثانية .

المادة الخامسة : إن الباي هو الذي يتقاضى جميع موارد البابلك مهما كان نوعها وبدون أي استثناء . ويدفع الباي بدوره إلى حكومة الجزائر ، في صيغة إتاوة مبلغاً سنوياً قدره مليون من الفرنكات ، ولا يشترط منه شيء آخر مهما كان نوعه .

المادة السادسة : يدفع هذا المبلغ إلى خزينة الجزائر فصلياً بالتساوي ، وذلك ابتداء من اليوم الذي يتولى فيه الباي منصبه الجديد . وقد تم الاتفاق على أن تخفض الإتاوة في السنة الأولى إلى ثمانمائة ألف فرنك ، وإن أجل الدفعة الأولى يؤخر إلى فاتح سبتمبر القادم .

المادة السابعة : يتعهد الباي بأنه سيستعمل ، بمعدل واعتدال ، السلطة التي سيمارسها على هؤلاء السكان ، وبأنه يعمل على حمايتهم من اعتداءات الخارج ، وعلى بذل كل ما في وسعه للحفاظ على السلام والهدوء في الداخل .

المادة الثامنة : يستطيع جلالة باي تونس ، بصفته رئيساً للبيت المالك ، أن يعطي ولاية بايلك وهران إلى أمير آخر من بيته . ولكنه لا يستطيع أن يفعل ذلك إلاّ بعد الحصول على موافقة الحكومة الفرنسية أو القائد الأعلى الذي يمثلها .

المادة التاسعة : لا يمكن للحكومة الفرنسية أن تعزل الباي إلاّ عندما يخل بالالتزامات الواردة في هذه الاتفاقية .

المادة العاشرة : في حالة ما إذا تبين من خلال مرور الزمن والتجربة والظروف أنه لا بد من تغيير أو تعديل هذه الوثيقة ، فإنه لا يمكن أن تتم تلك التغييرات أو التعديلات إلاّ بموافقة جميع الأطراف المتعاقدة .

المادة الحادية عشرة : إن جلالة باي تونس هو الضامن والمسؤول فيما يخص الالتزامات التي يتعهد بها باي وهران في هذه الاتفاقية التي تقدم له للمصادقة عليها .

المادة الثانية عشرة : لقد تم التوقيع على هذه الاتفاقية المصوغة باللغتين من طرف المفوضين ، كل حسب صفته المذكورة أعلاه ، وأرسلت في نسختين أصليتين ليصادق عليهما الطرفان المتعاقدان ، وسيم تبادل الوثائق في أقرب وقت ممكن .

إمضاء : بارون فولان ، في أصلية العقد 5 ، وختم سيدي خير الدين آغا .

شهد على أنها نسخة طبق الأصل : الجنرال ، القائد الأعلى لجيش افريقيا :
كلوزيل

إن الجنرال ، القائد الأعلى للجيش الفرنسي في افريقيا ، بمقتضى السلطات
التي خولها له ملك الفرنسيين ، وبصفته قائداً أعلى ، وسيدي مصطفى المفوض
المطلق لجلالة باي تونس ، ولأخيه سيدي مصطفى ، والذي ستبقى نسخة
من تفويضه ملحقة بأحد هذه الأصول ، قد اتفقا على ما يلي :

المادة الأولى : بما أن القائد الأعلى قد عين بمقتضى السلطات المذكورة
أعلاه باباً على قسنطينة ، سيدي مصطفى الذي اختاره جلالة باي تونس ،
أخوه ، وبما أن سيدي مصطفى الباي المعين قد فوض ذلك التفويض المطلق
المذكور أعلاه ، سيدي مصطفى الوزير وحافظ الاختتام على أن يضمن باسم
جلالة باي تونس وبإسم الباي المعين ، تنفيذ الشروط التي تم الاتفاق عايتها
بين الطرفين المتعاقدين ، فإنه قد تم الاتفاق على صياغة تلك الشروط في هذه
الاتفاقية ، على أن تكون الكتابة باللغتين ، وأن يكون التوقيع على الوثيقة من
الطرفين كل حسب صفاته المذكورة في المقدمة .

هذه الشروط هي كالتالي :

I — يضمن جلالة باي تونس ، ويتعهد شخصياً بأن يدفع في تونس ،
كضريبة عن مقاطعة قسنطينة ، مبلغاً قدره ثمانمائة ألف فرنك بالنسبة لسنة
1831 . وتكون الدفعة الأولى ، وهي الربع ، في خلال شهر جويليت القادم ،
ثم تأتي الدفعات الأخرى في أوقات لاحقة بحيث تكون الأخيرة في نهاية ديسمبر
1831 ، ولتسوية الحساب ، فإن سيدي مصطفى حافظ الاختتام ، وأحد

الأطراف المتعاقدة يقدم ، باسم باي تونس ولصالح الخزينة في الجزائر ، أربع سندات تقدر الواحدة بمائتي ألف فرنك .

2 - وبالنسبة للسنوات المقبلة ، فإن الدفع يكون بالربع أو فصلياً . ويرفع المبلغ إلى مليون من الفرنكات يقسم على أربع دفعات . هذا بقطع النظر عن الاتفاقات التي قد تمحدث عندما تم تهدة مقاطعة قسنطينة .

3 - تسمح الحكومة التونسية بإرساء السفن الفرنسية ، مجاناً ، في جزيرة طبرقة كما تسمح لها بصيد المرجان وغيره .

4 - لا يدفع الفرنسيون في موانئ عنابة وستورة وبجاية وغيرها من مراسي مقاطعة قسنطينة إلا نصف الرسوم التي تفرض على الأمم الأخرى (II) .

5 - إن الباي هو الذي يتقاضى موارد مقاطعة قسنطينة مهما كان نوعها .

6 - تقدم جميع أنواع الحماية للفرنسيين والأوروبيين الذين يأثون للاستقرار في مقاطعة قسنطينة كحجار أو كفلاحين .

7 - لن تنصب أية حامية فرنسية في موانئ البابلوك أو في مدنه ، ما لم يتم إخضاع المقاطعة كلها ، وعلى أية حال سيقع الاتفاق فيما يخص اتخاذ التدابير الرامية لحفظ الأمن لصالح الطرفين .

8 - وإذا استدعى جلالة باي تونس ، باي قسنطينة ، أخاه ، فإنه سيتم تعيين أمير آخر تتوفر فيه الصفات الضرورية . وبعد موافقة القائد يعهد له بتسيير بابلوك قسنطينة .

(II) من المعلوم أن تلك الرسوم كانت تقدر بنسبة 5٪ من الواردات أو الصادرات .

المادة الثانية : لقد وقع على هذا العقد المكتوب باللغتين ، القائد الأعلى
وسيدي مصطفى ، كل حسب صفاته المذكورة أعلاه وكان ذلك في نسختين
بقيت إحداهما عند القائد الأعلى والثانية عند سيدي مصطفى .

الجزائر ، يوم 18 أكتوبر سنة 1830

إمضاء : كومت كلوزيل

سيدي مصطفى

شهد على أنها نسخة مطابقة للأصل الباقي عند القائد الأعلى

أمين عام الحكومة

إمضاء : ف . كاز .

الفصل الحادي عشر

عَنِ الْأَوْقَافِ ، وَالنَّغِيرَاتِ الَّتِي تَعَرَّضَتْ لَهَا
نِلْكَ الْمُؤَسَّسَاتُ وَالْحَاكِمِ الَّتِي نَنْظُرُ فِي شُؤْنِهَا
أَنْشَاءَ وَلايَةِ الْجَزَالِ كُلْزِيلِ

لقد أنشئت ، حسب قوانيننا ، مؤسسات خيرية وأوقاف تهدف كما ذكرنا إلى تحسين أوضاع الفقراء والتخفيف من مصائبهم . وهناك طرق متعددة للتصرف في هذه الأملاك . فوفقاً لمبادئ القضاء المالكي ، ان الذي يهب ملكاً ما يتعهد بأن يسمح للمؤسسة المهدى لها أن تشرع حيناً بالتمتع بذلك الملك . وحسب مبادئ القضاء الحنفي ، فان إرادة الواهب تصبح بدورها قانوناً. غير أن الذي يوقف أملاكه على فقراء من غير مدينته أو قريته ، فان إرادته لا تنفذ إلا بعد النظر فيما إذا لم يكن فقراء البلدة التي توجد فيها الأملاك أكثر احتياجاً من غيرهم . في هاته الحالة يفضل الفقراء الأكثر احتياجاً ، وكذلك إذا كان الواهب يرغب في أن يعطي حق استثمار أملاكه للفقراء مدة عشر أو خمسة عشر عاماً ، وبعد انقضاء الفترة المحددة تعاد له أملاكه كاملة ، فان ذلك لن يكون شرعياً ، ولا يستطيع الواهب أو ورثته أن يتصرفوا

فيه بعد تلك المدة، ويصبح حق الانتفاع هبة أبدية . وبمقتضى هذه القوانين المختلفة ، أجمع الفقهاء على أن يطبق المذهب الحنفي على كل الهبات المشروطة ، وذلك لرفع الموارد الخاصة بالطبقة المعوزة . وعلى العكس، فلو تطبق مبادئ القضاء المالكي ، فإن الأوقاف تقل بكثير عما هي عليه .

وإذا كنت قد دخلت في هذه التفاصيل الخاصة بالوقف ، فلأنني متأكد من أن الأوروبيين سيقروا هذه التفسيرات بكل اهتمام حتى يتحققوا من أن شريعنا تعتمد أساساً على مبادئ حضارية وأخلاقية . وحسب هذه المبادئ نفسها ، فإن جميع الممتلكات في الأرض لله ، ولنا في هذه الدنيا إلا عابري سبيل ، وما تتمتعنا فيها إلا وفتي . هكذا تأسست قوانيننا ، وهكذا أصبحت تلك الأعمال مفيدة للسكان المعوزين ، ووافق عليها أهل العصر .

إن كل من يهب ملكية ما إلى مؤسسة من هذا النوع ، لا يستطيع ، أن يرجع في هبته أو أن يراجع في أعماله ، ويعتبر عقد الهبة أحسن وثيقة ، ولا يختلف عن أي نوع من أنواع عقود البيع بشرط أن تتم الهبة لصالح مؤسسة تتوافر فيها جميع الصفات المطلوبة لهذا الغرض . وهكذا ، فإنه يحق لجميع الفقراء أن يطالبوا بالإجراءات التي تقع لصالحهم ، أي الإعانات ، ولكنه لا يسمح بأن يتصرفوا في ملكية معينة .

وحسب القضاء المالكي ، فإن الهبة لا تقبل إلا إذا كانت في حينها وبدون أي تقييد . فالذي لا يريد أن يهب ملكه لمسجد ما أو لمؤسسة أخرى إلا بعد وفاته ، فإن هبته لا تقبل إلا بالنسبة للقضاء الحنفي ، ووفقاً لقول نيينا : نوايا المرء الحسنة أبلغ من أفعاله — العوائد المتداولة تتحول إلى قانون — لا تحابوا واحداً على الآخر ، بل يجب أن تكون المنافع مشتركة — حاولوا أن

تقطعوا جنود الشر قبل البحث عن الخير. — (أو كما قال) مثلاً: هناك رجل يملك داراً يسكنها ثم يريد أن يقوم بعمل خيري . حسب المذهب الحنفي فانه يواصل التمتع بمسكنه طيلة حياته وبعد ذلك تنتقل الدار الى إحدى المؤسسات الخيرية . وأما المذهب المالكي ، فانه يعتبر العمل باطلاً .

وبالإضافة إلى ذلك ، تفرق قوانيننا شروطاً وشكليات ضرورية . فالمدير أو الوكيل على المؤسسات الخيرية يجب أن يكون مسلماً ، يقوم بتعيينه الحاكم الذي هو أيضاً من المسلمين . وتساعد هذا الوكيل جماعة من الحجابة والموثقين لجمع حقوق الإنتفاع وتوزيعها وفقاً للتراتب القانوني . ويتقاضى هؤلاء العمال أجوراً عن متاعبهم وأشغالهم . وعلى الرغم من أن القوانين لا تنص على هذه الخصائص ، فان العمل قد جرى بها وفقاً للمبادئ المشروحة أعلاه والمناقلة : ان العوائد المتداولة تتحول الى قانون . يجب أن تتوفر في وكيل أملاك مكة والمدينة نفس الخصال التي تشترط في من يوكل على أملاك المؤسسات الخيرية الأخرى ، ويتحتم عليه أن يعمل حسب العرف والعادات الجاري بها العمل منذ تكوين تلك المؤسسات . مثلاً ، فان مساكن هذه المؤسسات كانت تكتري بأجور معتدلة على شرط أن يقوم المستأجرون بالإصلاحات الضرورية ، ولكن هذه التأجيرات لم يكن يسمح بها إلا لبعض الأشخاص الذين كانوا يحصلون على الإمتياز نتيجة أوضاعهم الإجتماعية ، ويعتبرون تلك المساكن كأملك لهم .

وحسب الإجراءات الجديدة التي سنتها السلطات الفرنسية ، فان الفقراء لا يحصلون إلا على جزء من موارد هذه المؤسسات ، أما الباقي فيدفع الى صندوق أملاك الدولة . وتلك لم تكن هي نية المؤسسين . وبمثل ذلك الإجراءات

وقع تغيير وجهة تلك الأوقاف ، وحصل انتهاك حقوق الإنسان . ان هذه الإجراءات لظالمة ، ولا أخلاقية . إنها تدخل اليأس على سكان الايالة ، وتجعلهم يكرهون سائر الأوروبيين بوجه عام ، ويعتبرون كل من يحمل يحمل قبة مسيحياً ، وبالتالي عدواً لشعوب أفريقيا .

أعود إلى ملاحظاتي عن المؤسسات الخيرية فأقول : ان من كان يريد أن يهب شيئاً بعد وفاته ، يتوجه الى ما يسمى بالمحكمة الخفية ، غير أن هذه المحكمة قد ألغيت من طرف الجنرال كلوزيل . والمالكيون أنفسهم ، فانهم كانوا يحملون عقودهم على تلك المحكمة لتشجيع الواهين ومساعدتهم ، ولضاعفة موارد الطبقة المعوزة . هذه هي الأسباب التي أدت الى ضرورة إبقاء محكمتين وقاضيين ، وكل محكمة لا تقرر إلا بعد أن يبحث الفقهاء شروط العقد . ويكون هؤلاء الفقهاء من المدرسة التي ينتمي إليها القاضي ، وذلك لكي لا يقع غموض عند الناس .

غير أن هناك حالات يتحتم فيها على المحكمتين ، المالكية والخفية ، أن تتفقا وتقررا في اتجاه المبدأ الأساسي .

وإذا كان رب أسرة قد قدم هبة ، تنتقل ، بعد وفاته ، حسب المذهب الحنفي ، الى إحدى المؤسسات الخيرية ، وكانت أسرته نفسها معوزة ، فان الهبة تلغى وينظر اليها بحسب المبادئ المشروحة أعلاه والتي تقول : حاولوا أن تقطعوا جنود الشر قبل البحث عن الخير . . وليس من العدل في شيء أن تساعد الأجانب على حساب أفراد الأسرة المحتاجة .

وإذا كان الواهب غنياً ، ثم هلك ولم يترك وارثاً ، فان تركته تعود

إلى بيت المال . وإذا كان قد أوصى بشيء لبعضهم ، فإنهم ينظرون أولاً ، إلى الوضع الذي يكون عليه صندوق بيت المال ، وتلقى وصية الواهب إذا كان ذلك الصندوق فارغاً .

وإذا أراد أحد المسيحيين أن يهب أملاكه لكنيسة أو لفقراء من المسيحيين ، فإن القاضي يثبت العقد الذي يعتبر شرعياً ، ويكون للهبة نفس مفعول هباتنا نحن . وعلى العكس ، فإذا أوصى ذلك المسيحي بنفس الهبة لمساجدنا أو لفقراء من المسلمين ، فإن القاضي لا يستطيع أن يثبت بنفسه ذلك العقد الذي يعتبر غير شرعي* والذي لا يعترف القانون بصحته مهما كانت الصفة التي يقدم بها . ويظل المالك حائزاً على أملاكه يتصرف فيها كيفما شاء . والسبب في ذلك هو أن ذلك المسيحي لم يقدم ذلك العمل الخيري إلا بحيلة أو بدوافع لها ارتباطات بالسياسة . وهكذا ، إذن ، فإن الهبة تكون صحيحة ما دامت نية لم تتغير ، وإذا أراد إلغاؤها بسبب من الأسباب ، فإنه يترك شأنه دون تجديد العقد أو إعادة غيره .

تكون الهبة بتصريح أمام شهود أو بتخصيص الغاية للأشياء . مثلاً :
يقم رجل بناية لا يمكن بطبيعتها ، أن تعود عليه بأية فائدة ، كسجد يشيده في أرضه ويسمح فيه للعموم بأن يجتمعوا لأداء الصلوات . فبدون أن يقال بأن تلك البناية مخصصة لكذا أو كذا ، وبدون أن تفصل عن الملكية الأساسية ، فإن المالك يكون قد قدم هبة صحيحة تتوفر فيها جميع الشروط حسب المبدأ القائل : (ان العمل صريح كالقول ، والعرف هو أحسن القضاة) ان شكل هذه البناية نفسه يدل في العادة ، على أنه لا يكثرى . وإذا وقع ، بدلاً من ذلك ، بناء قاعة كبيرة في دار المالك للإجتماع فيها وللقيام بالشعائر

الدينية ، مرة أو عدة مرات ، فان المكان لن يصبح هبة : أولاً إنه لن يعتبر كمسجد لأن شكله يختلف عن شكل المسجد ، وثانياً لأنه لن يكون مفصلاً عن الملكية .

ان التفاصيل الخاصة بشكل وطريقة تسيير تلك المؤسسات الخيرية كثيرة جداً ، تؤلف وحدها كتاباً كاملاً ، ومن الصعب جداً أن نتمكن ، في لمحة ، من تحديددها كما ينبغي ، وإشباع فضول قرائنا ، ومع ذلك ، فلأنني سأذكر المبادئ الأولية في الجزء الخاص بالتشريع .

ان مثل هذه المؤسسات لا يمكن إلا أن تحظى بتأييد الرجال الطيبين والمشرعين في جميع البلدان وسائر الأزمان ، لأن هدفها الإنساني لا يزمي إلا للتخفيف من آلام أمثالنا ، وللمساهمة في إسعاد ذلك المجتمع الكبير الذي تربطنا به روابط لا تقصم .

وهناك سبب آخر سياسي وهو العمل على تخفيض أسباب الجرح ، لأن البؤس كثيراً ما يؤدي إلى القيام بأعمال شريفة ويدفع إليها ذلك الذي ، لولا الضيق والحاجة ، لما جنح وارتركب ، جريمة يبدو أن وضع أسرته البائس قد جعلها شرعية في نظره . ومن ثمة فكيف أقدم الجنرال كلوزيل على تهديم قواعد تلك المؤسسات واستمع إلى نصائح السيد فوجرو وفولان فاستولى ، باسم الحكومة الفرنسية ، على ذلك الصندوق المتواضع وصده عن الهدف الذي أنشئ من أجله ، وهو هدف ، يبدو لي ، شريف وجدير بالمدح ؟

وعندما نقارن ثروة فرنسا بثروة هذا الجزء من إفريقيا ، ومواردها المتعددة وتأثيرها وعظمتها بموارد وتأثير وعظمة إالة الجزائر ، فإن المقارنة

تمحط من قيمة تلك الأمة في نظر الإفريقيين ، وفي أذهان أصدقاء الإنسانية والحضارة الذين يعملون على التوفيق بين الشعوب وتوحيدها ، وعلى تدعيم علاقاتها الاجتماعية والتجارية والسياسية .

في عهد ولاية السيد بورمون ، كان السيد دوينيوز هو الرئيس المكلف بقسم الشرطة وكان يدرك مصالح البلاد إدراكاً تاماً ، يضاهي إدراكه لمصالح فرنسا . وأثناء إقامته القصيرة في مدينة الجزائر ، جاعلي ذات ليلة يريد الاجتماع في لنبعث عما يمكن استعماله من وسائل لإعانة الطبقة المحتاجة . كان أثرياء المدينة يهاجرون منها ، وكانت الصناعة قد أصبحت أثراً بعد عين ، وكان البؤس قد انتشر ، وأذكر أنني أثناء حديثنا حول هذا الموضوع ، قد قلت له : بما أن المؤسسات الخيرية ، المخصصة أساساً لمساعدة هذه الطبقة توجد تحت تصرف السلطة الفرنسية ، فانه يجب أن يكون كل حق الانتفاع ، الناتج عن تلك المؤسسات ، لفائدة أولئك المحرومين . عندها طلب مني السيد دوينيوز أن أقدم له قائمة بأسماء أهم الأعيان لتكوين لجنة تشرف على الأوقاف . فقلت له القائمة ، ولكن الأمر بقي عند ذلك الحد ، إذ لم يعمل بالآراء التي أبديتها ، واحتفظت الساطة بتلك المؤسسات الخيرية . ومن سوء حظ سكان مدينة الجزائر أن السيد دوينيوز استبدل في مهامه ، لأن ذلك الرجل الموقر كان يفهم الأوضاع ويعمل ، بقدر الإمكان ، على إصلاح مفاسدها .

أعتقد أنني عثرت على السبب الذي جعل الموظفين الفرنسيين يشيرون على الحكومة الفرنسية بالاستيلاء على تلك المؤسسات : لأنهم فعلوا ذلك ، أولاً للحصول على وسيلة يكسبون بها ثروة طائلة ، في أسرع وقت ممكن ، ولو على حساب

الإنسانية وشرف الأمة . وثانياً ، لافتتان الأنفس ، وترغيب فرنسا في الإحتفاظ بالايالة لنفسها عندما يظهرون لها ان المدخول معتبر ، غير مبالغين بشرعية أو عدم شرعية تلك الحقوق .

إنكم تعطون الملايين الليونانيين والبولونيين : 11 .. وتنجدون تلك الشعوب بأموال الجزائريين 11 إنكم تستغلون هذا البلد المسكين ، ومع ذلك ، فان الجزائريين ، أيضاً ، أناس 11 ... ما هي الذنوب التي اقترفوها لتسلط عليهم مثل هذه العقوبات ؟؟ .. وبالتالي ، ما هو ، في هذه الظروف ، موقف الحكومة الفرنسية ؟ . لقد كان من الأفضل أن تحجم الحكومة عن تقديم تلك المساعدات ما دامت تتسبب في شقاء مواطنيها . وكيف يمكن أن نفترض بأنه لم يتفطن أحد لهذه الوقائع ؟ لا بكل تأكيد ، وان التاريخ سيسجل كل هذه الأعمال الشريرة 11 أيجب أن نعتقد بأن الناس لا يصلحون ؟ ، إن انحطاط القرن السادس عشر ، وزلات المستبدين تتكرر في أيامنا هذه . لماذا ؟ . لأن الناس احتفظوا بأهوائهم الذميمة التي ورثوها عن آبائهم ، وعلى الرغم من أن الإمبراطوريات أصبحت تحكم بكيفيات مختلفة ، فان النتائج ما تزال واحدة .. فالجريمة المسموح بها تبقى جريمة ، وعند الملوك حل الضعف محل الطغيان .

وهكذا ، إذن ، إذا كان وكيل الأمة يقوم بأعمال تثير الظنون ، وإذا كان سلوكه مشبوه ومطبوع بضعف مخزٍ ، فما هي الطريقة التي نقدمه بها ليمكن المعاصرون من تقييمه ؟ .

ان المجتمع ، في بداية الأمر ، قد سنّ القوانين لتسييره . ثم تزايدت الحاجات على التوالي ، فنشأت تلك الأوضاع والمهن المختلفة ، وبدت

ضرورة تكوين حكومة وتعيين رئيس يقودها ، من هنا يبدأ كل شيء .
وسواء أكان الرئيس سلطاناً ، ملكاً أو والياً ، أو غير ذلك ، فإنه يقود
ويعطي المثال . وإن أعماله الجائرة توهن عزيمة شعب بأكمله .

لقد أمر السيد الجنرال كلوزيل بتهديم محلات تدعى القيصرية كانت
تبيع الكتب التي هي أدوات الحضارة ، والتي تنير طريق الإنسان المثقف .
وفيها كان يوجد الناسخون ، لأن المطابع معدومة في أفريقيا . وبما أن
الفرنسيين كانوا ينوون إدخال الحضارة الى إفريقيا ، فلماذا وقع تهديم هذا
المصدر الذي كان يعطي العلم والمعرفة في جميع الميادين ؟ ، ان هذا السلوك
يدل على أن هذا الجنرال ، بدلاً من أن يعمل على تزويدنا بنور العلم
والحضارة ، كان ينوي لإغراقنا في الظلمات والجهل .

وهدم الجنرال كلوزيل ، كذلك ، محلات كانت تدعى سوق المقاييس ، تصنع
فيها الأساور من قرون الجواميس وهي أساور جرت العادة أن تزين بها نساء
العرب والقبائل أذرعتهن . وكانت تشكل فرعاً رئيسياً من فروع الصناعة في مدينة
الجزائر ، وتصدر إلى تونس وطرابلس وحتى إلى مصر . وكانت المادة الأولية ،
التي هي قرون الجواميس تشتري بحمولات بأكملها وكان لأصحاب
المصانع مندوبون مكلفون بشراء تلك المادة الأولية وتوزيعها على كل
مصنعي حسب أهمية المؤسسة ورؤوس أموال قليلة ، كانوا يقومون بتجارة
واسعة ، وكان هذا الفرع من الصناعة يشغل عدداً كبيراً من السواعد .
وبعد تهديم هذه المحلات أصبح كل هؤلاء العمال بدون مورد واضطروا
إلى التسول .

وهدم نفس الجنرال محلات تسمى سوق الصباغين ، كان العرب
والبدو يتعمدون المحيء إلى مدينة الجزائر ليصبغوا فيها كل ما لديهم من

قماش . وكانت هذه الصناعة هامة ، تستهلك كمية كبيرة من القرمز والنيلة والقوة وغيرها من التوابل الصالحة للتلوين

عندما تهلمت هذه المحلات الثلاث ، قضى على جزء كبير من الصناعة.

ووقع تهديم محلات أخرى تسمى الفرارية ، وهي خاصة بجميع أنواع الأدوات الحديدية المصقولة مثل الأقفال وصفائحها وأنابيب البنادق الخ... الخ... ولم يترك إلا حوالي ثمانية حوانيت معزولة .

ووقع كذلك تهديم ثلاثة مساجد كانت خاصة بسكان تلك المحلات الثلاث . وهدمت أيضاً ، مصانع الحرير . وكانت صناعة الحرير من أهم الصناعات في مدينة الجزائر . لقد كانت حمولات المراكب من الحرير تأتي من بيروت أو إزمير فتصنع منها الأقمشة وغيرها من المواد الأخرى ، ثم تصدر إلى مملكة المغرب وتونس وطرابلس وتركيا ومصر ، وحتى إلى سوريا .

وهناك محلات أخرى تسمى السوق الكبير كان يباع فيها الكتان ، والملابس المنسوجة وتصنع فيها الحبال الحريرية والقنائل والأزرار . لقد قام الجنرال كلوزيل بتهديم جزء من هذه المحلات ، وما تبقى أكمله الدوق دوروفيكو .

ولم تنج المراحض الضرورية لسلامة المدينة وراحة السكان ، ووقع تهديم المحلات المخصصة لصائدي الأسماك .

ان الأماكن التي خصصت لبناء ساحة الجزائر ، لا تتناسب مع مساحة

المدينة ولا تتلائم مع هندستها المعمارية ، وذلك أن ساحة الجزائر لا تقل سعة عن ساحة الفاندوم في باريس ودائرة المدينة لا تزيد عن دائرة حديقة التويلري ، وعليه فإن هذه المساحة بالنسبة للمدينة كقلنسوة البلندي بالنسبة لرأس طفل يتراوح عمره ما بين 5 و 6 سنوات .

كان يحيط بالجنرال كلوزيل عدد كاف من اليهود الذين كانوا يوحون اليه بأخلاقهم الخاصة ، تلك الأخلاق التي وصفها كما ينبغي فانتل وكروتيوس . ويقول تاسيت في حديثه عنهم : إن اليهود ، بسبب تعصبهم ، يحملون حقداً شديداً للأمم الأخرى . وكان المرووسون ، كذلك محاطون بأناس من نفس الجنس يسرونهم حسب أهوائهم .

وعندما أطلع هؤلاء اليهود على نقطة الضعف عند الجنرال ، أي على طمعه في الثروة ، جعلوه يلعب أكبر دور مثير للسخرية ، فأوهموه بأن المسجد المسمى : جامع السيدة ، يحتوي على كنوز الداي . ولذلك صار هذا الجنرال يزور في خشوع ، ذلك المكان التعبدية ويقصده مراراً ، « للصلاة فيه وللدعاء » ثم قرر « بكل عفة » أنه يستولي عليه وعلى الزرابي والثريات والمشاعل وعلى منبر رخامي كان هناك .

وهكذا امر الجنرال كلوزيل بفتح أبواب المسجد ، وأدخل اليه ، ليلاً جماعة من العمال للبحث عن الكنز المزعوم . وظل الأمر كذلك إلى أن استنفذت جميع وسائل البحث وضاع كل أمل . ولتغطية هذه الفضيحة شرع حيناً في تهدم ذلك المسجد الذي كان يشتمل على أعمدة من الرخام الزادرو على أبواب ضخمة قيل إنها بيعت فكيف يمكن بيع أشياء هي من ملك المسلمين وحدهم؟

ومن هم الذين اشتروا؟ يقال إن تلك الأشياء نقلت إلى تولوز (١) وقد كانت حيطان ذلك المسجد مغطاة بمربعات الخزف الصيني التي استوردت من اسبانيا. وكانت في المسجد أيضاً عارضات كبرى من خشب الكرسة النادر الذي يستورد من فاس بإذن ، لأن امبراطور المغرب لا يوافق على تصديرها إلا بصعوبة . وقبل الإنتهاء من تهديم هذا المسجد الذي لم يحصل إلا للبحث عن الكنز الموهوم وقع الإستيلاء على جميع الأشياء المذكورة أعلاه ، وأهملت عملية مواصلة الهدم، واعتقد ان مصاريف ذلك الهدم لا تتجاوز مبلغ ١٥٠ ٠٠٠ فرنك .

إن نفس الجنرال كلوزيل الذي يزعم أن الأفريقيين يرغبون بشدة في عودته ، قد أوجب على المفتي أن يسلمه المساجد الواقعة أمام الأبواب التي يدخل منها البدو المتزمتون الذين يمتنون مدينة الجزائر. لقد طلب هذه المساجد لجعل منها مستشفيات لجيوشه، وتعهد للمفتي أنه لن يستعملها أكثر من شهرين واضطر المفتي إلى تنفيذ ذلك الأمر السامي.

وهناك أفعال أخرى كثيرة أستطيع أن أقول بأنها منافية لتقاليدنا، وهي التي تنفر السكان من السلطة. هذه هي الأسباب التي جعلت الجزائر غير قابلة للاستعمار، وبإمكاننا القول بأن السيد كلوزيل هو الذي كان أصلاً في وجودها.

وعندما كنت عضواً في مجلس البلدية ، في عهد بورمون ، طلب منا شيخ البلدية أن نسمح له بتحويل عدد من المساجد إلى مستشفيات للجيش ، ذلك الذي قال عنه بأنه لا يملك مسكناً يأوي اليه في الشتاء ، فأجبناه بأن تلك الأماكن

(١) مدينة كبيرة في الجنوب الغربي من فرنسا .

معدة لأمر لا نستطيع تغييرها وعليه لن نوافق لمحض إرادتنا ، ولكنه إذا^٩ استعمال القوة للاستيلاء عليها فأننا نكون عاجزين عن منعه . وبعد قليل من المحادثات ، رفضت ملاحظتنا ووقع الاستيلاء ، ظله أ على المساجد .

إن الحكومة الفرنسية باستعمالها العنف ، تنفر السكان وتثيرهم ضدها كما أنها تتصرف ضد المعاهدات والالتزامات التي كانت قد وقعت عليها .

وحسب شريعتنا ، فإن المساجد ملك للجميع وهي مخصصة ، فقط لعبادات المسلمين . والقاضي نفسه لا يستطيع تغيير هذه الوجهة ، والمسجد مكان مقدس لا يحق انتهاكه بالنسبة لجميع المسلمين ، سواء منهم سكان فارس والمغرب أو الصين . وبما أن وثيقة الاستسلام تعترف باحترام المساجد وتتعهد بضمان ذلك (2) ، فإن سكان مدينة الجزائر ان يتوقفوا عن الإحتجاج ضد هذه الإنتهاكات .

وبقطع النظر عن هذه الملاحظات ، فإن السيد جاتي دويبي قد صرح أمام الملأ بأن كل المساجد والمؤسسات الخيرية تابعة لأملاك الدولة ، والإدارة العامة هي التي تتصرف فيها وتستغلها كيفما شاءت تكثرها كمحلات أو تستعملها لأشياء أخرى

والذي يدهشنا في هذا الموضوع هو إذن رئيس الوزراء لأننا نفهم من

(2) جاء في المادة الخامسة من وثيقة الاستسلام : أن الدين المحمدي سيبقى معمولاً به كما كان سابقاً . إنه سيبقى على ما هو عليه . ان حرية أهل البلاد ، مهما كانت طبقتهم ستبقى محترمة ، وأن دين هذا الشعب وممتلكاته وتجارته وصناعاته بالإضافة إلى نسله ستبقى محترمة .

خلال ملاحظات السيد يشون ، بهذا الصدد ، في تاريخ II ماي 1832 ، أنه أعطى أوامر فيما يخص ذلك . وفيما يلي فقرة السيد يشون :

« لقد درست قضية المحلات التابعة للدين الإسلامي . وإنني ، منذ أن وصلت وأحطت علماً بوجود لجنة تدعى « لجنة المحلات العسكرية » لم أسمع إلا صيحات متوالية فيما يخص المساجد وضرورة استزادة خمسة أو ستة منها بالانصاف إلى الستة أو السبعة التي توجد في حوزتنا . إن بعض الأشخاص الذين يعتبرون أنفسهم كمبشرين للديانة الإسلامية ولل سكان الذين يتدينون بها ، لا يهتمون أن يعرفوا إذا كان ذلك يتفق مع وجهة نظر الحكومة ونواياها أم لا . إن هؤلاء الأشخاص كانوا يتقدمون إلي بنوع من الابتهاج والسخرية ليشكروني على عدم تمكيني من إنقاذهم .

كل هذه الوقايات لم تؤثر في . ومن حسن الحظ أن هناك من يقدّر أعمالي غير هؤلاء الجبهة المجانين . ومن ثمة ، فإنني انتظرت إلى أن جاءني اشغال اللجنة .

إنكم تدركون جيداً . سيدي الرئيس بأنه لا يمكن أن اتردد لحظة واحدة للمساهمة في اخذ جميع المساجد لو كنا في حاجة إليها ، ذلك لأن سلامة الجيش هي الهدف الأسمى بالنسبة لي . ولكن القضية قضية ذوق وهوى بالنسبة للأشخاص الذين ذكرتهم . فالمسألة إذن ليست مسألة حاجة وضرورة الخ...

عندما نرى مثل هذه الأعمال ، يمكن لنا أن نتوقع الكثير من نوعها . وهكذا فمن الممكن أن يكون مشروع تمسيح الجزائر قد وجد في أذهان ولاتنا كما أشار إلى ذلك « البريد الفرنسي الصادر بتاريخ 20 جوان سنة 1833 ، مستعملاً » المبارات التالية : إن الذي لن يفاجأ به الجمهور هو أن رئيس مجلس الوزراء الحقيقي منذ ثورة جوليت وإلى عهد قريب جداً كان قد كتب إلى المقتصد

المنفي في الجزائر يوصيه بتسريح الإيالة . وسكوت الجرائد الوزارية عن هذا الموضوع لا يدل أبداً على أن في الأمر خيراً .

وعلى الرغم من أنني لا أعتقد أن من الضروري تمسيح افريقيا لادخال الحضارة والحرية إليها ، وبما أننا لا نعرف نية السادة الوزراء الرسمية فلاننا نكتفي بالإشارة إلى أن هذا المشروع يبدو لنا صعب التنفيذ .

وأكرر أن العدد الكبير من البناءات التي هدمت في مدينة الجزائر يستوجب مبالغ هامة للتعويض إذا لم تكن الوعود ، في هذه المرة أيضاً ، حبراً على ورق . ومع ذلك فلاننا علمنا بأن عدداً كبيراً من تلك التهديمات لم يقيد . ولكي يكون هناك تعويض من الضروري أن يقع قبل الهدم ، تقييد كل ما يمكن أن يكون محل مطالبة .

إن كل ما يمكن تصوره من الشرور يمكن في عهد الظلم والظلمانيان . وبمجرد الاتفاق على مبدأ التعويض انشئت لجنة مكونة من موثقين صومبيين لدى المحكمة ، ومن سيدي محمد بن إبراهيم ريس ، وسيدي الحاج العربي ابن الرايس وكلاهما من أعضاء المجلس البلدي ، ومنى انا حمدان .

ووقع الاتفاق على أن تقيم الأملاك حسب أجور الكراء أي 5٪ بالنسبة للمساكن و 2,5٪ بالنسبة للمحلات والحوانيت . وهكذا فإن الدار التي تكثرى بألف فرنك تقدر قيمتها بعشرين ألف . والمحل التجاري الذي يكثرى بمائة فرنك تقدر قيمته بأربعة آلاف . تلك هي على الأقل الطريقة التي اتبعناها لتحديد قيم المباني المهملة . وقد حددت الأجور حسب ما كانت عليه في العهد التركي ، لا وفقاً لما أصبحت عليه منذ احتلال الجيش الفرنسي . وفي هذا الصدد نشر الجنرال كلوزيل قراراً . أنقل ، بكل أمانة ، نصه فيما يلي :

« إن الجزائر ، القائد الأعلى ، بعد الإطلاع على تقرير مقتصد مملكة الجزائر ، والاستماع إلى اللجنة المكلفة بمصلحة الطرقات ، يقرر ما يلي :

المادة الأولى : إن سكان مدينة الجزائر الذين شملت مساكنهم وحوالياتهم ومحلاتهم التجارية ، أو شتملها ، في المستقبل ، تلك التهديمات التي أمر بها لفائدة المصلحة العامة ، وتوسيع الطرقات وتجميل المدينة وصيانتها ، إن هؤلاء السكان سيعوضون على أساس أجور الديار والحواليات والمحلات التجارية التي تهدم أو التي تصبح غير قابلة للاستعمال .

المادة الثانية : إن العمارات التي دخلت في أملاك الدولة هي التي ستخصص لتلك التعويضات وذلك بمجرد أن يبين الإحصاء الجاري ما هي البنايات التي يمكن للحكومة الفرنسية أن تتصرف فيها .

المادة الثالثة : إن اللجنة التي سبق أن أنشئت ، ستواصل تسجيل الاعتراضات لينظر فيها عندما يحين الأوان .

المادة الرابعة : إن مقتصد مملكة الجزائر ، مكلف بتنفيذ هذا القرار .

في مقر القيادة بالجزائر ، يوم 29 أكتوبر 1830 .

إمضاء : كومت كلوزيل

عن نسخة ثانية من الأصل ، أمين عام الحكومة .

إمضاء : ف . دوكانز .

غير أن هناك فارقاً بسيطاً بين النص الفرنسي والنص العربي (لأن هذا البيان نشر باللغتين) . ولا نستطيع أن نفسر كيف وقع ذلك : أجبلة من المترجم أم عن عجز . مثلاً ، ففي النص العربي ، المادة الأولى ، بدلاً من أن يقال : سيعوضون على أساس أجور الديار الخ... جاء ما يلي : سيقاضى المالكون حوالى قيمة كراء الديار أو غيرها ، ويعطى لمن حرّموا من التمتع بأملكهم الخ... وعلى الرغم من أننا استطعنا أن نقرأ ونفهم بأن التعويض سيكون كراء دائماً - حسب الوثيقة العربية ، وإن كان الاعتبار كنص شرعي هو ذلك الذي كتب بالفرنسية وأضاه الجنرال باسم الحكومة الفرنسية - فإن الحكومة الفرنسية أصبحت ، بمقتضى هذا القرار مسؤولة أمام الجزائريين عن قيمة أجور ممتلكاتهم المهتمة لا تنفعها في ذلك حجة . وإذا أرادت أن تنهرب من تلك المسؤولية فإنها ستتهم ، عن جدارة ، بسوء النية .

وبمقتضى هذا البيان ، حضر جميع المالكين الذين كانوا موجودين في مدينة الجزائر وجاؤوا معهم بالعقود .

وقدّمت قائمة القيم المثبتة إلى القاضي باللغة العربية ، وقدمت نسخة عنها بالفرنسية إلى شيخ البلدية .

وعندما تقدم بعض السكان إلى مدير أملاك الدولة للمطالبة بالأجور حسب ما فهم من النص العربي ، أمرهم بأن يذهبوا إلى القاضي المالكى لكي يثبت صحة تلك العقود . ولقيام بذلك ، أخذ القاضي المذكور خمسة فرنكات عن كل شهادة ، وبعد ذلك فإن بعض الأشخاص فقط قد حصلوا . ، ولكن بشق الأنفس على قيمة ستة أشهر من الكراء من صندوق أملاك الدولة وأجل الآخرون

إلى وقت لاحق ، غير أنهم اليوم قد يشوا بعد مطالبات كثيرة قدموها بدون جدوى .

لقد دامت عملية التهديم طوال المدة التي تولى فيها الجنرال كلوزيل على الجزائر ويقال ، بهذه المناسبة ، إن أعوان الوالي قد ارتكبوا مخالفات كثيرة ، لأنهم كانوا يبقون على كثير من الديار «قابل تعويض ، حتى ولو كان الأمر قد صدر بتهديمها . وهناك أشخاص آخرون من المشتغين في الهندسة العسكرية ، قد دفعتهم خيانتهم إلى أن يكتروا لحسابهم بأثمان بخسة وان تشتروا «قابل ريع دائم . ومن ثمة ، فإن عمليات التهديم كانت هامة ، ولكن المسؤولين في ذلك الحين كانوا على الأقل يسجلون عدد البنايات التي تهدم . أما بعد تعيين السيد جانتى دويبي ، فإن المسؤولين لم يعودوا يتعبون أنفسهم بالتسجيل ، لأنهم كانوا يعتقدون بأن تصرفاتهم شرعية ١١ ولقد صرح السيد جانتى دويبي لأحد أعضاء البلدية بقوله : إننا أخذنا الجزائر ، فنحن أصحابها بلا منازع ، وسنعمل فيها كل ما يحلو لنا سواء من ناحية الهدم أو غيره .

عندما وصلت إلى باريس عرضت على معالي وزير الحرب عدداً كبيراً من الاعتراضات من جملتها هذا العمل التعسفي (I) ، ولما لم ألق من هذا الوزير إلا جواباً لم أكن أنتظره في الواقع رأيت من واجبي أن أتوجه للملك نفسه بشكوى متواضعة يوجد مضمونها في آخر هذا المجلد .

لم احصل على أية نتيجة من تلك المساعي الجديدة ومع ذلك ، فإن وثيقة

(I) انظر الوثيقة رقم واحد .

الاستسلام تضمن ملكياتنا ، وإن البيانات التي نشرها كل من المارشال بورمون والجنرال كلوزيل لتؤكد ذلك . هل ينبغي أن نؤمن بأن مزايا المعاهدات ، لا تنالها إلا الشعوب القوية على حساب الشعوب الضعيفة ؟ وعندها ماذا يكون مصير المبادئ الأخلاقية التي نرتكز عليها؟ لماذا يدرس علم القانون العام في أوروبا وفي فرنسا ؟ لماذا وجدت مدارس الحضارة والحرية؟ هناك تعارض مع مبادئ المسيحية التي يؤمن بها الأوروبيون. ومن ثمة فماذا يكون مصير أخلاق المسيح أو أخلاق نبينا ؟ قال محمد : « إن شريعة خلفائي وأخلاقهم هي تعاليجي » .

ولأعود إلى حججي ، فلو كان بإمكانني أن أعرض للجميع ما أستطيع ذكره دون أن اضطهد لقدمت أشياء كثيرة ! ولكنني في عالم مجهول ولا أدري أين توجد المصائب. إنني أخشى أن اتال مصير عدد من مواطني: أن أسجن. ما بقي لي من أيام أو أن أبعد عن أسرتي وبلادي. من يدري لعلي أنهم بالتآمر مع القبائل . وأني لي أن أعرف التهمة لأدافع عن نفسي .

وعلى الرغم من أنني لا اتفاهم مع أبي ضربة ، فلأنني انصفه عندما أقول بأن الاتهامات الموجهة له خاطئة . إنه لم يكن أبداً إلى جانب العرب والقبائل ضد الفرنسيين . إنه لمن المدهش أن يصدق السادة الولاة الأكاذيب ، وأكثر من ذلك دهشة أن يطالب أبو ضربة بالعدالة ولا يحصل عليها في بلد كفرنسا .

لقد تم الاستيلاء على المعابد وتحويلها إلى مساكن في زمن ولاية السيد كلوزيل على إفريقيا. ولقد سبق أن شرحت كيف كان يتوجب احترام مثل هذه النباتات التي تجد سنداً قوياً في تقاليد وتمصّب الطبقة الفقيرة . وفي عهد الأتراك ، أدرك المسؤولون ضرورة مسايرة تلك الأوضاع لأسر القلوب

ولاذن ، فإن الحكومة الفرنسية قد استولت على تلك المعابد ووضعتها تحت تصرف إدارة أملاك الدولة ، كما أنها اكدت بعضها لعدد من التجار فيمقتضى أي قانون تستولي تلك الادارة على تلك البنايات ؟ ألتنفر قلوب الأفريقيين ؟ أو لتجدد التعصب وتضاعف الإهانات ، وتجعل البلاد غير قابلة للاستعمار؟ أم هل تستعمل هذه الوسائل لإثراء فرنسا ومضاعفة كنوزها؟ لا إن الهدف هو أن يجعل من الاسم الفرنسي أو الاسم الأوروبي اسماً بفيضاً في هذه القارة التي يميز فيها الإنسان بالقبعة والشاش .

إننا لا ندرك بحق، الأسباب التي جعلت حكومة متنورة تسمح لموظفيها أن يثروا أنفسهم بواسطة النهب والمخالفات وعلى حساب فرنسا وشرفها .

وكذلك فإن سيدي إبراهيم بن مصطفى باشا قد عرض على الحكومة الفرنسية جزءاً من الأعمال الشائعة التي وقعت بعنف ضد مواطنيها . وكانت إجابة الحكومة أنها ستكتب إلى الجزائر لمنع مثل تلك الأعمال التعسفية . ولكن على الرغم من هذه التأكيدات ، فإن جميع الأخبار التي تردنا من الجزائر تعلمنا بأن الاستبداد ما يزال مستمراً وأنه يتطور إذا صح استعمال هذه العبارة وإنه وقع الاستيلاء أيضاً على معبد المرباط المسمى سيدي الجودي للاستفادة من أجره المتواضع الذي يقدر بمائة فرنك . هل صحيح ان الحكومة كتبت في هذا الموضوع ؟ هل يمكن أن تعارض أوامرها ؟ إنه للغر بالنسبة لي .

ودائماً في زمن ولاية السيد كلوزيل ، وقبل أن استقبل من عضوية المجلس البلدي ، دخلت ذات يوم إلى بيت نخالي الحاج محمد ، أمين السكة ، فوجدت عنده السادة : فوجرو المفتش العام للمالية وجبردين مدير أملاك الدولة ، ودوقال رئيس المحكمة . كان الأمر يتعلق بدین في ذمته زعموا أنهم عثروا عليه في سجلات الإيالة ،

وكان الغرض من زيارة هؤلاء السادة هو أن يحملوه على التفاعم معهم ، وعلى أن يدفع لهم مبلغاً هاماً من المال . ويستطيع قرائي أن يروا في نهاية الجزء ، جميع التفاصيل حول هذه القضية التي كانت قد رفعت إلى مجلس الدولة .

وهناك مكيدة أخرى استهدفت باي وهران بعد الاستسلام مباشرة ودخول الفرنسيين إلى الجزائر ، كان هذا الباي كما سبق أن ذكرنا ، قد أعلن عن طاعته للقائد الأعلى مبدئياً له رغبته الشديدة بإخلاء المدينة لقائدة الجيش الفرنسي . وكان الجنرال عندئذٍ مشغولاً يمنع كنوز الداوي فاكتفى بأن طلب منه أن يحتفظ بوهران و ينتظر أوامره ولكن بعد حوادث جوليت مرض الباي فتوجه الى الجزائر صحبة أسرته وحاشيته . ولتفادي أطماع بعض الأشخاص احضر معه عدداً من الهدايا ، ولم يقتصر على السيد ك... وأسرته ، وإنما قدم لكل من كان محيطاً به كثيراً من الحلوى والسيوف الذهبية وغيرها من أسلحة الزينة المحلاة بالحجارة الكريمة . أما الأموال ، فإنه لم يعط منها إلا إلى السيد ك... حدثني حسن ، باي وهران ، نفسه بأنه أرسل لتلك الجنرال ، أولاً 2000 ربايعي من الذهب (170,000 ف) . وعندما تجدد طلب هذا الأخير أرسل له مرة أخرى 10,000 سلطاني ذهبي (90,000 ف) .

بودنا لو نعرف إذا كان ذلك الجنرال يستلطف بالقوة لحساب حكومته ، أم هل كان يتوجه إلى باي وهران ليقرضه شخصياً فقط ؟ وفي هذه الحالة الأخيرة ، وبما أن الاستدانة كانت عن ثقة ، وإن الكتابة عند الأشراف غير ضرورية لإثبات الدين ، فلنا نعتقد بأن شخصية كيرة مثل السيد الجنرال ك... لا تنتظر إلا وقتاً مناسباً لإرجاع القرض هذا ، أكرر مرة أخرى ، إذا كانت الاستدانة لحسابه الخاص

حسن باي هو أحد اصدقائي القدماء ، أعرفه إنساناً ، فاضلاً ومن واجبي

أن اقرله بهذه الحقيقة أمام الملا . وعندما جاء إلى مدينة الجزائر لم ار مانعا من أن اكون معه خاصة وأنه كان يعمل لصالح الفرنسيين . ونظراً إلى أنه حكم وهران سبعة أشهر لحساب الفرنسيين فإنه كان ينتظر نوعاً من الاحترام والتقدير من السلطة وهو اهل لان يحظى بالعناية. ولكنه في الواقع لم يحظ الا ببعض الزيارات الهادفة. قال بنفسه وهو يتحسر على وضعه: إن السيدين ف... (2) وف... (3) وغيرهما من اعوان الجنرال، لم ينقطعوا عن زيارتي للحصول على مختلف المنافع. إن المقربين اليهم من اليهود كانوا يقولون لهم بأن هذا الباي كان اغنى من حسين باشا ، داي الجزائر ، وإنه كان عندما يأتي إلى الجزائر قد تعود أن يقدم كثيراً من الهدايا لجميع افراد حاشية الداي ، وعليه فمن حقهم أن ينتظروا منه ، أو أن يجبروه على تقديم نفس المزايا. عجيب أمر هؤلاء المستشارين وهل كان ينبغي اتباع نصائحهم؟ ففي تلك الأثناء أمر الجنرال ك بالعودة إلى فرنسا، وكان حسن باي يفكر في الاعتماد عن الجزائر بعد أن اعياء نهب اصدقائه الجدد، وصار يخشى العقاب ان مورفرض اطعام أناس لا يشبعون ولذلك اقترح عليه الجنرال ك أن يذهب معه إلى فرنسا على متن سفينة تابعة للدولة .

استشارني حسن باي في هذا الموضوع فأجبتة صادقاً بقولي: «تستطيعون البقاء هنا في أمان سيعاملكم الفرنسيون كما ينبغي لانكم تستحقون ذلك منهم». ولاحظت له كذلك بأن باي التيطري أجبر الفرنسيين عندما حمل السلاح ضدهم على أن يتصرفوا معه بكل شدة، وان زميله باي قسطنطين لم يعطاي اهتمام لهؤلاء الفرنسيين. وعليه فنظراً لموقفكم الودي ، لا اعتقد أنكم ستمسون بسوء بل على العكس انكم ستجازون، ومن الممكن انهم سيسندون لكم قيادة العرب

(2 و 3) فرجرو وقالوا اللذان سبق أن تكلم عنهما حمدان.

فتكونون جنرالا ، وأضفت حسب رأيي بأن : « جميع العرب سيخضعون لكم بكل سهولة نظراً لثروتكم الشخصية الطائلة ، لأنهم لن يخشوا منكم أن تفرضوا عليهم ضرائب مفرطة » . لأنني كنت أرغب في أن تبقى هذه الشخصية في الجزائر لتساهم في تخفيف آلام الطبقة المحتاجة ، لأن كل الأثرياء والأغنياء قد غادروا البلاد . وكنا قد بدأنا نشعر بالبوُس الشديد . انه لم يبق في المدينة إلا الشيوخ الأتراك والمقعدون الذين كانوا في السابق ، يتماضون أجراً أو منحة من الدولة ، وكذلك العمال في مختلف الميادين ، وكل هؤلاء لم تكن لهم ثروة ويكادون يكونون معدمين . وأخيراً ، استجاب ذلك الرجل الفاضل الى رغبتني الملحة . ولقد كان الجنرال ك..... أكثر مني تبصراً ، إذ من الممكن أنه كان يحس بأن بعض الأشخاص في الجزائر لم يكونوا ذوي نية حسنة وشريفة ، إزاء حسن باي ولأجل ذلك كان قد اقترح عليه أن يأخذه معه إلى فرنسا !

وبعد رحيل الجنرال ك..... بدأت الاضطهادات تسلط على حسن باشا : سأذكر كل هذه التفاصيل في الفصل الذي يتعلق بالجنرال بارتوزين وولايته على الجزائر . غير أنني أقول بأن تلك الاضطهادات كانت قاسية إلى درجة أنها أجبرته على الهجرة إلى الاسكندرية ، منهاجاً لإيادي بأنني خدعته فيما يخص تقديري للفرنسيين . ومن الاسكندرية توجه إلى مكة حيث مات ، وترك فيها كنوزه . ولو انه عومل كما كان يستحق ذلك لبقيت ملايينه في الجزائر ولورثت منها الحكومة ما في ذلك شك ، ولكن هناك كثيراً من الأشخاص لا يستشيرون إلا مصلحتهم الخاصة ، ولإرضائها ينسون مصالح أمة بأكملها .

أذكر أن السيد الجنرال كلوزيل دعاني مرة لأتناول طعام العشاء مع أعضاء البلدية ، وفي ذلك اليوم نفسه أعلمنا بأننا عزلنا لأننا لم نكن متفقين فيما بيننا ! وبعد ذلك دخل الترجمان زاكروبدأ يسخر من اجتماعنا عند الجنرال ، موجهاً كلامه المازح إلى هذا الأخير قائلاً : « أتوسل إليكم ، أيها الجنرال ، فلا تقطعوا رؤوس هؤلاء الأفاضل ، أنهم أرباب أسر » . وإذا كنت فيما يخصني ، لم أهتم بهذا المزاح فهناك ، من بيننا ، من استاء له . وبعد أن انتعشت المحادثة تكلمنا عن سيرة باي وهران . فلاحظ بعضهم بأن هذا الباي ، لو كان عند حكومة غير الحكومة الفرنسية ، لكان يخشى الكثير ولوقع قتله للاستيلاء على ثروته . وعليه ، فإنه لا يليق به بلد أحسن مما تلاثمه فرنسا ، ومن ثمة يجب أن يبقى تحت سيطرة الفرنسيين . في تلك الظروف كنت أفكر مثلهم ، فوافقتهم ولم أنتبه إلى أنهم كانوا يتكلمون كذلك عن خبث ، لأنهم كانوا يعرفون أنني كنت صديقه ، وإنني سأنصحه بالبقاء .

ولكي أذكر فضائل الجنرال كلوزيل ، ما علي إلا أن أعدد بعض الأعمال الخالدة التي وقعت أثناء ولايته لأفريقيا . ففي عهده نهب الأموات في مدافنهم ، وسمح بالتجار بالعظام البشرية ، وبيعت حجارة المقابر ثم نقات إلى باب الوادي لتحول إلى مادة البجير ووقع الاستيلاء على آجر المقابر ، الخ . . . وقد تزايدت هذه التجاوزات إلى درجة أن القاضي رأى من الواجب عليه أن يقدم للجنرال كلوزيل اعتراضات في هذا الموضوع ، ولكن هذا الأخير لم يجبه إلا بكيفية غامضة ، كما لو كان يريد التخلص منه ، هناك من يرى أن الحكومة الفرنسية لم تسمح بانتهاك المقابر إلا لحقدها على ديننا . وفيما يخصنا ، فإنه لا يوجد أي اعتبار يمكن أن يسمح بتجريد الآوات من لباسهم الأخير ، وتشتيت عظامهم في التراب . .

وفي أثناء ولاية كلوزيل على الجزائر ، لم يكن يستمع لأية شكوى ، ولقد كان الفقهاء يريدون تقديم الاحتجاجات باسم أبناء وطنهم ، ولكنهم لم يكونوا يستطيعون ذلك ، وكلما قدمنا اعتراضاً أجبنا عليه بعمل أكثر ظلمة وتعسفاً . ومن ثمة وجب السكوت والصبر . وبهذه المناسبة ، فإن هؤلاء المساكين ، الذين يزعم الجنرال كلوزيل بأنهم كانوا تحت تأثير التعصب الشرقي ، قد قالوا مستسلمين : « أنها إرادة الله ! ولا يمكن أن نعارض القدر » . وبالفعل هل كان في استطاعتهم أن يحتجوا ضد الجور ؟ هل كانت لهم الوسائل والقدرة على دفعه ؟ لقد كان على هذا الجنرال الذي ردد تلك العبارات بكيفية ساخرة ، وهو لا يؤمن ، بلا شك ، بعظمة الإله الصمد ، لقد كان عليه أن يستعمل عبارات أكثر احتراماً للمخالق الذي أحسن إليه ، لأنه لا يتكلم مع ملكه إلاّ باحترام ، وأن ملكه نفسه ينسب كل أفعاله لإرادة الله العلي العظيم . إن الطغاة أنفسهم لا يبدأون خطاباتهم إلاّ باسمه تعالى . وعلى الرغم من أن الله رحيم وقوي في آن واحد ، يبدو لي أنه كان على هذا الجنرال أن يستعمل لغة تكون أكثر لياقة .

الفصل الثاني عشر

نفسيرات حول ممتلكات الأوربيين في الجزائر

لقد حصل الأوروبيون ، في الجزائر ، على الملكيات بشروط كلها لصالحهم . إنهم كانوا يستطيعون الامتلاك بواسطة الريع الدائم أو بأثمان زهيدة جداً ، وهذه الطريقة للحصول على الأملاك قد استوردت حديثاً لبلادنا ، ولا يسمح بها قانوننا الإسلامي . ولذلك كان الباعة والمالكون الجدد في خصومات مستمرة دائمة ، خاصة إذا كان هناك سوء نية من أحد الجوانب ، وجهل من الجانب الآخر . ومن ثمة ، كان لا بد أن تكون هذه الطريقة في الاكتساب محل غموض ومحاكمة لا تنتهي . إن السكان الذين غادروا البلاد برضاهم قد وافقوا على هذا النوع من المعاملات ليمكنوا من الاعتناء بمساكنهم ومن أن يستخرجوا منها بعض المنافع . ولكن هناك من المالكين الأوروبيين من استغل الثقة وحدث كثيراً من الخسائر ، فهدموا كل ما يمكن أن توجد فيه أشياء تباع للاستفادة منها ، وضاعت حقوق المالكين القدماء في تلك

القضايا ، لأن الهدم كان يقع في حين أنه لم تكن هناك إمكانية لاستبقاء حقوقهم ، خاصة وأن معظم عقود البيع كانت تم بواسطة تحايل السماسرة اليهود .

وفي الجزء الخاص بالتشريع الإسلامي ، سأتكلم بإسهاب عن تلك التجاوزات والعقود التي كانت - وأكرر ذلك - تتنافى مع قوانيننا .

غير أنني سأذكر فيما يلي ، بهذا الصدد ، حادثة عرضية .

لقد كان أحد أقربائي يملك جنازاً فيه دار للاستجمام أنيقة البناء . وكانت هذه الملكية من جملة الأملاك المحتلة عسكرياً . ولما رأى بعضهم تلك الأبهة وتلك الزينة ، ظنوا أن الدار تحتوي على كنز دفين (لأن معظم السادة الأوروبيين لا يحملون إلاّ بالكنوز) . وهكذا ، سارعوا الى الحفر وتفتيش الأرضيات وتهديم بعض الحيطان التي شك في أنها تخفي بعض الثروات . ولما لم يجدوا شيئاً باعوا كل المواد التي كان لها ثمن بل جمع كمية من المال .

وفضل وصي هؤلاء الأيتام الذين كانوا يملكون الجنان ، فضل الكراء على أن يقوم بإصلاحات . وتقدم طبيب إنكليزي للشراء ، وبما أن الوصي لا يستطيع القيام بغير الكراء ، فإن المفاوضة وقعت فيما يخص حق الانتفاع ، لا فيما يخص الملكية . وطلب مني أن أحرر البنود والشروط وفقاً للقانون ، وقد أوضحت بأن ذلك الملك كان مستأجراً فقط مقابل مبلغ سنوي قدره كذا ، ولا تنوم الاتفاقية إلاّ ما دام المبلغ يدفع مضبوطاً . وبعد إبرام العقد ، تسلم الطبيب الملك وقام بجميع الإصلاحات الضرورية في ذلك المسكن . ولما علم القنصل الإنكليزي في الجزائر بإمكانية إجراء مثل هذه الصفقة ، وبأن نفس الأيتام كان لهم جنان محتل عسكرياً كذلك ، اقترح على الوصي المذكور أن يسلمه له بشروط مشابهة للشروط التي وقعت مع الطبيب الإنكليزي ،

لقد طلب الوصي 1800 فرنك عن الكراء السنوي ، ولكن الجنرال ك... الذي سمع بهذا الاقتراح تدخل في المفاوضات ، وأبلغ الوصي بأنه سيهدم النباتات ويقتلع الأشجار لو وقع اكتراء الجنان للقنصل الإنكليزي ومن ثمة ، فإن ذلك الوصي لم يتمكن من الاكتراء للقنصل الإنكليزي بسبب الضغط الذي وقع عليه . ويقال إن الجنان اكثري فيما بعد الجنرال ك... . . . مقابل 1023 فرنك عن كل سنة فيما اعتقد . وبدلاً من أن يقوم الجنرال المذكور بتصليحات وإعادة الجنان الى وضعه الأول ، فإنه قد أهمله وتركه يزداد تخريباً .

وبنفس الطريقة ، استولى الجنرال ك... على ضيعة جميلة كانت من أملاك علي باشا (I) وتشتمل على بنايات ممتازة ، فيها جميع المرافق التي يمكن تصورها . ولكن الملاك يشتكون من أن السيد ك... لا يدفع حتى أجرة الكراء . وبالفعل ، فإنه كان يعتبر كل هذه الأملاك من أملاكه الخاصة ، ويقال أنه كان يحتفظ بالعقود ولا يريد تسليمها لأصحابها . واستولى نفس الجنرال على ضيعة أخرى تعرف باسم « والي دادي » (2) كانت تابعة للمؤسسات الخيرية ، كما أنه استولى على ضيعة كبيرة كانت تعرف باسم « الآغا » وتدعى اليوم « الدار المربعة » ابتناها يحيى آغا ، وقد كلفته أكثر من مليون من الفرنكات . ومقابل هذه الضيعة فإن الجنرال ك... لم يهبط لأيتام يحيى آغا سوى حائوت أخذه من أملاك الدولة لهذا الغرض . وإذا كان وصي هؤلاء الأيتام قد وافق

(I) هو علي بور صالي الذي عين دايًا سنة 1817 فحاول أن يقوم بإصلاح ديني ، ولكن الطاعون الذي كان قد بدأ في تلك السنة قد أصابه فتوفي بعد عام واحد من الحكم وترك المنصب لحسين داي سنة 1818 .

(2) تقول الأسطورة بأن والي داده هو الذي أثار العاصفة التي حطمت أسطول شارل الخامس سنة 1541 .

على العملية فلأنه لم يكن قادراً على معارضة ذلك العمل التعسفي الذي ما كان
ليقع في عهد الأتراك . ، وهكذا ، أخذ الوصي ما أعطي له في المقابل بدلا
من أن يفسح كل شيء .

بهذه الطريقة أصبحت للجنرال ك... أملاك في مدينة الجزائر ! فهو لا
يريد دفع الكراء ولا إعادة العقود لأصحابها . إن السيد ك... يزعم بأنه
تحرري ، ويعارض حكومته لأنه لا يشغل منصباً . أن السيد ك... العضو
في مجلس النواب ، مكلف ببحث المصلحة العامة في فرنسا . ولكن ما أعظم
أخطائه في إفريقيا ، وهو مع ذلك شخصية بارزة ! وبمقتضى أية مبادئ
أخلاقية يتصرف على ذلك النحو ؟ انا نرى بأن هذا المشروع يطبق ، على
الأقل نوعين من المبادئ يختلفان كل الاختلاف إذا قارنا تلك التي اتبناها
في إفريقيا وتلك التي يدينها في فرنسا . ونراه كذلك بوجهين : فهو تحرري
من جهة ورائد للحكم المطلق من جهة أخرى . وأخيراً نسأله هل هو يريد
تسيير الجزائريين وحماية مصالحهم وفقاً لقوانين نابوليون أم لقوانين الإقطاعية
القديمة .

يستخلص مما ذكر أعلاه ، أن الجنرال ك... قد اغتنى على حساب
الجزائريين وشرف الأمة الفرنسية ، إن هذا الجنرال يتلقى كراءً مرتفعاً من
الحكومة الفرنسية عن جنان علي آغا . إنه يعرف كيف يأخذ مقابل أملاكه
المزعومة ، أما الجزائريون الذين أخرجوا بحمد السلاح من مساكنهم فإنه لا
يدفع لهم ثمن بيع ولا كراء . ولتتويج أعماله ، فإن هذا الجنرال لم يخش أن
اقترح إبادة الجزائريين بعد أن نفاهم وجردهم من جميع ممتلكاتهم .

أرجو أن يتق قرائي بأنني لم أعزم على ذكر سيرة السيد الجنرال ك...

في هذا الكتاب إلا بعد أن رأيت أعماله وقرأت كتاباته . وشخصياً ، فإنني لا أحقد على هذا الجفرا ل ، وعليه ، فإنني لن أعرض هنا إلا الأفعال التي شاهدتها بنفسني ، وأستطيع القول بأنني أمرّ مرّ الكرام على بعض الأحداث التي لو ذكرتها لابتعدتني عن الإطار الذي حددته لنفسني ، والتي كان يمكن أن تجلب انتباه محبي الإنسانية والعدالة .

إن كل إنسان عادل يرى بوضوح أن السيد ك... قد نقض ما جاء في وثيقة الاستسلام ، وأن هذا الخطأ الأول كاف للتدليل على سلوكه السيء إزاء الإفريقيين ، وأن طريقته في الحكم كانت تتنافى مع مصالح الفرنسيين .

وعلى هذا الأساس ، فإن أناية شخص واحد هي التي تسببت في العار والتوبيخ اللذين تعرضت لهما الحكومة الفرنسية في إفريقيا . وهذا صحيح بحيث أن القبائل صلحوا يبيعون كل من يريد إقناعهم بإمكانية حدوث اتفاق سلمي ، بقولهم : « لا ينبغي أن نصدق من لا يفون بوعودهم » . وبالفعل فما هي الثقة التي توضع في تاجر لا يلتزم بوعوده ؟ ويوفي ما عليه من سندات بالكلام الطيب ؟ إنه يكون عيبراً على أن يشتري كل شيء فقداً . إن الحكومة الفرنسية ، بالنسبة للقبائل ، توجد في نفس وضعية التاجر المذكور . هؤلاء القبائل لم يمودوا يفرقون بين الأوروبيين ، أنهم يعممون وية ولون : « أنهم مسيحيون ولا يمكن أن يصادقوهم ولا أن ينسوا حقهم الديني ، ذلك لأنهم لو أتبعتم لهم الفرصة للاعتداء عليهم لفعّلوا ، ولأنهم لا يعتدون على الأحياء فقط إنما يسلطون حقدهم كذلك على الأموات بتهديم مدافنهم ، الخ... الخ... » .

وهكذا ، فإن سلوك السيد ك... وإدارته في الجزائر لم يؤدي إلا لتنفير قلوب الجزائريين والإفريقيين بصفة عامة . انه جعلهم يحلّون من نوايا

فرنسا إزاءهم ، وقدم لهم الدليل القاطع على أن الفرنسيين ، بدلاً من أن يأتوا لنشر مبادئ الحرية والحضارة ، إنما جاؤوا معهم ، على العكس من ذلك ، بالتعسف والعبودية اللذين يجيدون تطبيقهما أحسن من الأتراك أنفسهم ، لقد كان هؤلاء الأتراك على الأقل ، يحددون مصالحهم بمصالح الأهالي ، ويمتزمون ملكياتهم وعاداتهم وحتى تقاليدهم القديمة على الرغم من أنها مخالفة للصواب .

فبتلك السياسة ، وباتباعهم تلك الطريقة ، استطاعوا أن يحكموا هذا الشعب وأن يكتسبوا قلوب الإفريقيين الذين لم يستعملوا معهم ، أبداً ، لا القوة ولا العنف . إن الظلم لا يدوم ، والعدالة خالدة ، والحرية هي أساس النظام الاجتماعي .

لقد لوحظ أن هذا الجنرال كان يذرف الدموع وهو يغادر الجزائر.. يا له من ارتباط ويا له من عطف على هذا البلد !

إنه التعطش إلى الثروة ، لا يمكن التخفيف من حدته ، فكلما شربنا تقنا إلى الشرب ، ولذلك نستطيع القول بأن نشوة الجنرال ك... ما تزال مستمرة . إنه يقارن الجزائر في مؤلفاته بالأرض الموعودة ، وأخبت الأراضي في الجزائر هي بالنسبة إليه ، أحسن من أراضي الهند والجزر . ولكن الأغرب في الأمر هو أنه يزعم أنه محبوب ، وبأن جميع سكان مدينة الجزائر يرغبون أشد الرغبة في عودته . وفي مناسبات أخرى يتهم الجزائريين بأنهم منعوه من تحقيق مشاريعه ويسأل السيد دوغنتان إذا كانت هناك وسائل أخرى للتخلص منهم غير الإبادة .

إن الجنرال ك.... في نظرنا ، قد قدّم مشاريع جنونية لا تطبق ، إن نظريته تبدو لنا صعبة التطبيق لأنه يريد أن يجعل من نتيجة مصدر ثروة لفرنسا

وسهلاً صحياً ، كما أنه يريد أن يلفظ جوها وهواها . ومن حقنا ، قبل أن يشرع في هذا العمل ، أن نشير عليه بالعمل على تخفيف حدة الطمع عند بعض الأشخاص والتخفيف من سخط سكان سهل متيجة عليه ، وعلى اكتساب قلوب القبائل وجميع الجزائريين . بقي لي الآن ، أن أبين لقراي التناقضات المترتبة عن أقوال الجنرال ك... . وسلوكه . إن هذا الجنرال لا يرى ، لضمان أمن المعمرين ، وسيلة أخرى غير بناء الحصون ، ولا يعتمد في شيء على القانون والإدارة العادية . إنه يبدو لي من المحزن بالنسبة للمعمرين والأهالي على حد سواء ، أن يكونوا مضطرين على التحارب باستمرار ، وأن يبقوا فيما بينهم أوضاعاً عدوانية تقدم لأوروبا جمعاء نوع الحضارة التي يريد السيد ك... أن يفرضها على الإفريقيين .

إذا كان الجزائريون قد أسفوا على تغيّب أو رحيل السيد ك... كما أراد هذا الجنرال أن يقتنعنا بذلك في كتاباته وجرائده ، وإذا كان محبوباً في هذا البلد ، فلماذا إذن ، يقدم تلك المشاريع الرامية لخلق العداوة ؟ وإذا كان صديقاً فلماذا يخشى أن يماثل معاملة الأعداء ؟ لا ، إنه غير محبوب عند الجزائريين ، ولا يمكن أن يكون كذلك . إنه يريد أن تعينه الحكومة الفرنسية نائب مالك في إفريقيا ليتمكن من إتمام أعماله وتحقيق مشاريعه .

أعتقد أن الجنرال ك... سيفضّب عليّ عندما يقرأ كتابي الذي يفصح جزءاً من سلوكه وتصرفه في الجزائر ، وعليه ، فلأنني أقول مسبقاً بأنني ، للدفاع عن نفسي ، سأكفي بذكر الشهود من بين أصدقائه أنفسهم . ولكن لماذا سأكون في حاجة إلى الدفاع عن نفسي ؟ إنني لا أذكر هنا إلاّ أفعالاً لا يستطيع هو نفسه إنكارها ، وأن يدي لا تخط إلاّ أحداثاً ووقائع حقيقية .

ومن ثمة ، فإذا كان السيد الجنرال ك... يريد تقديم لوم فما عليه إلا أن يوجهه لأهوائه وضميره ، لا لقلبي الذي لم يكتب إلا الحقائق . إن تفوق الرئيسي في المعركة التي تلوح من بعيد ، هو أن قرائي الذين ينتمون إلى أمة يضاهي عددا عظمتها وكرمها ، سيثيرون عليه بدلا من اتهامي ، بالانزاع للصحت لأن الإشهار سيزيد من اللوم الذي يستحقه .

يجب على السيد المارشال ، في مصلحته الخاصة ، أن يفكر ويراجع نفسه ، وأن يحكم ضميره فيما قام به من أفعال ، وإذا وجد أن هذه المرأة لا تعكس له صورة محمودة عن شخصه ، فإنه مع ذلك ، ينبغي له أن يشكرها لأنه يرى نفسه فيها على حقيقتها ، ولأن تلك الصورة يمكن أن تساهم في أن نجعل منه ذلك الشخص الذي يجب أن يكونه .

لقد تكلمت (الفصل الأول من الكتاب الأول) عن سكان إيالة الجزائر ، وقلت بأن عددها يبلغ عشرة ملايين نسمة ، قد يعتقد بعض قرائي أنني أبالغ ولذلك أقول لهم بأن على المرء أن ينتقل في داخل الإيالة لمدة أسبوع على الأقل ليكون لنفسه فكرة تكاد تكون صحيحة عن عدد هؤلاء السكان واستعداداتهم ، ولكي يصدق ما قلتمته من أقوال .

إن خصوبة أرضها وصحية جبالها وقناعة أهلها قد سلعت كثيرا على مضاعفة الجنس البشري فيها .

وعند سكان الصحراء والقبائل ، وهم كثيرون جداً ، لا يصادف المقعدون إلا نادراً ، ولا يعرف هؤلاء السكان أمراضاً مزمنة ولا كريمة .

إن الرحلتين اللتين قمت بهما إلى قسنطينة ، والأحاديث التي أجريتها

مع المرابطين وأصدقائي الذين كانوا يرافقوني ، كلها قد ساعدني على زيارة داخل الإيالة .

ولقد ركزت انتباهي كملاحظ بسيط ، وتوجهت إلى الجبابة في المدن والقرى والقبائل لأعرف عدد الأسر في كل مكان ، ثم حصرت عدد كل أسرة في أب وأم وخادم . كما أنني سألت هؤلاء الجبابة رأيهم في عدد سكان المدن أو القبائل المجاورة لأنجب الأخطاء والمبالغة وعندما كنت أصل تلك المدن والقرى ، كنت أبلغ في حسابي إلى الحلول الوسطى ، وهكذا استطعت أن أؤكد بأن عدد سكان الإيالة عشرة ملايين نسمة .

إن الكتاب الذين نشروا مؤلفات عن الجزائر ، لم يقدموا إلا بعض المعلومات المشكوك في صحتها عن تلك القارة الفسيحة . وقبل الغزو ، ان الأوروبيين لم يكونوا يعرفون حتى الجزء الساحلي من مملكة الجزائر الذي يقع بين وجدة في المغرب وغدامس في الجنوب الشرقي (مملكة طرابلس) .

إن بعض الجغرافيات المشهورين (3) لم يترددوا في اقتراح إبادة أمة بأكملها مركزين اقتراحهم على قلة عدد السكان . ولو افترضنا أن هذا العدد التقليل لا يتجاوز المليونين كما ذكر ذلك بعض الكتاب ، ألا تكون إبادة مليونين من الناس جريمة في نظر الشعوب المتحضرة والإنسانية جمعاء ؟ .

إنني أرى أنه لا ينبغي أن يكون الاختلاف في الدين سبباً في سلب الحقوق الاجتماعية .

(3) يقصد كلوزيل ودورو شيو ودورو فيكو ، الفخ ...

إن خصوبة الأرض الجزائرية لا شك فيها ، وقرب هذه القارة من فرنسا أمر بديهي ، كما أن استسلام سكان مدينة الجزائر لا يخفى على أحد . ولكن الاستعدادات العدائية لباقى سكان الإيالة تجاه الفرنسيين قد احتدمت إما بسبب التعصب نظراً لانتهاك المساجد ومعابد المرابطين وحتى مدافن الأموات ، وإما كذلك ، بسبب الطرق السيئة التي يستعملها المتصرفون الفرنسيون في الجزائر .

إن الحكومة الفرنسية لا تستطيع أن تستفيد من منافع الإيالة دون أن تنفق كنوزها وتعرض شرفها بمحاربة هذا الشعب المعارض لنظرها . ذلك أن تلك الحكومة لن تستخرج منافع الإيالة مني ومن ألف رجل مسلم آخر يستسلمون للظروف . هذا أمر مفروغ منه ، ولا أستطيع أن أخادع قرائي ، ولا أن أداهن الأمة الفرنسية العظيمة وأقول لها بأنها تستطيع أن تحصل على المنافع المتوقعة في إيالة الجزائر . إن كل من يداهن الحكومة الفرنسية ، ويزعم أنه يدها على وسائل تدليل تلك المصاعب كلها ، ليس إلاّ مناوراً يريد أن يفتني على حساب الأهالي وعلى حساب فرنسا نفسها . ولكن ، على العكس ، فإن أي رجل عادل ، والحكومة نفسها لا يستطيعان ، حسب براهيني الرياضية المذكورة ، أن ينكرا الحقيقة المتمثلة في أن الجزائر حمل ثقل على فرنسا نظراً لكلفة الاحتلال الباهظة (4) ومن ثمة ، فهي عملية تتناقض مع مبادئ الحكومة التي تدعو إلى التخفيف من مصائب الشعب وإلى تحرره . ومن جهة أخرى ، فإن نفس تلك الحكومة مضطرة إلى أن تسند إلى عدد قليل من الناس

(4) تذكر المصادر أن سنوات الحصار وحدها قد كلفت فرنسا حوالي ثلاثين مليوناً من الفرنكات .

تسيير شؤون الجزائر ، وبذلك تعرض السكان للاستبداد ، وهو مبدأ يتناقى كلياً ، مع مؤسساتها التحررية . إن تجربة ثلاث سنوات من الاحتلال قد بددت كل نوع من أنواع الشك في هذا الموضوع . إن فرنسا لن تنتفع من الجزائر ولن تدخل إليها الحضارة إلا إذا طبقت أحد المبدأين : الأول هو الإبادة ، والثاني هو دعوة جميع سكان الإيالة بصراحة وبواسطة امبراطور المغرب وباي تونس وباشا طرابلس الى بيع ممتلكاتهم والخروج من إيالة الجزائر ، أو إلى إعطاء ضمانات لفرنسا على أن يبقوا خاضعين لها دون أن تكون عجيبة على إراقة دماء البشر . وبهذا الصدد ، فإن جريدة «البريد الفرنسي» قد قالت في عددها الصادر بتاريخ ٦ سبتمبر : «ولكن ماذا ستفعل حسب زعمها ؟ . (متكلمة عن الحكومة) أستمرة أم حقلاً للإبادة ؟ (متكلمة عن الجزائر) لأن طرق السادة ولاية الجزائر قد أدت إلى استفحال المرض وجعله غير قابل للشفاء . . غير أن المبدأين المذكورين يتناقضان كل التناقض مع المفهوم الدستوري .

أما أنا الذي أرى الأشياء على حقيقتها ، فلإني أحجم عن أن أعطي رأيي بكل صراحة ، ومن الممكن أن بعض الأشخاص سيجدون في ذلك إساءة لهم ويتهمونني بالبحث عن مصلحة الخاصة أو بالعمل على إعاقة المؤسسات الأوروبية . لاني أتحدى أياً كان يزعم بأنه يستطيع معالجة الأوضاع في الجزائر دون استعمال إحدى الوسيلتين المشروحتين أعلاه ، أو الخروج من البلاد والتخلي عن فكرة الاحتلال ، وذلك بإقامة حكومة أهلية حرة مستقلة ، كما وقع في مصر ، تتدين بنفس الدين وتتبع نفس العادات ، على أن تبرم معها معاهدات تكون في صالح الشعبين . عندئذ ، فإن فرنسا ستجد مصلحتها بكل

تحقيق أحسن من أنه لو تبقى الجزائر مسعمرة لها ، وأن العالم كله سيضطرب
لذلك العمل الكريم .

عندئذ ، فإن روسيا من جهتها ستكون مضطرة إلى الاعتراف بالجنسية
البولونية ولا تستطيع أن تلوم فرنسا على سلوكها في الجزائر .

إن هذا التحرر البرالي سيزيد من شهرة عصرنا ، خاصة وأن الجزائريين
لا يتدينون بنفس دين الأوروبيين .

هذا هو رأيي إذا كانت فرنسا ، كما أعتقد ، لا تريد إلا إدخال الحضارة
إلى القطر الجزائري ، والقضاء على الاستبداد وعلى روح الانتقام وكل أنواع
الحقد .

إن الحكومة الفرنسية تستطيع أن تتبع نفس الطريقة التي طبقت في مصر .
وإن تقدمها سيكون أمراً حقيقياً ولا يمكن أن يشك في نجاحها . ذلك أن إصلاح
مصر وتدعيم النفوذ الفرنسي فيها لم يتحققا بواسطة الإدارة الفرنسية والعنف ،
ولمّا يعود الفضل لنائب الملك وللعمل باسمه في إدخال الحضارة والفنون ،
وفي مضاعفة موارد ذلك البلد التي كانت متعذرة أو مشلولة في عهد المماليك .
كما أن الفضل ، أيضاً ، يعود لوجود نائب الملك في إقامة ذلك الرباط المتين
الذي يوجد الآن بين الفرنسيين والمصريين .

إن كل واحد من بين الكتاب العديدين الذين كتبوا عن إيالة الجزائر ،
قد عالج المسألة حسب مصالحه مقدماً بذلك نظريته الخاصة ، ولم يشر أي منهم
إلى الطريقة ولم يهتم بإمكانية تطبيقها والفائدة العامة التي تنتج عنها ، خير أنني
أستشي السيد بيشون لأننا عندما نقرأ كتابه باهتمام نجد أن أفكاره عنده مرتبة

ومعالجة بكيفيات أخرى تدل بوضوح على الطريق السيء الذي اتبعه السادة الولاة في الجزائر ، وعلى وقوع بعض التجاوزات مثل الاستيلاء على أملاك الأتراك ، والمؤسسات الخيرية ، وتدنيس المساجد والمدافن والاحتلال العسكري الخ . . . وغير ذلك مما اشتكيناه منه . ما هي الفائدة التي جناها الفرنسيون من تلك الطرق ؟ إنهم جعلوا الجزائر غير قابلة للاحتلال ونفروا قلوب سكان هذه القارة الشاسعة . هذا وإن السيد بيشون قد قدم ملاحظات منذ أكثر من سنة . فماذا نقول اليوم ، وقد ازدادت التجاوزات وبلغ الشر أقصاه ؟ إنني أستشهد ، لتدعيم حججي بالجنرال بارتوزين وغيره ممن لا يمكن للحكومة والأمة الفرنسيين أن تنكرا عنهم وطنيتهم وغيرتهم .

سيرى قرائي ، في المجلد الثاني ، تلك الإدارة الحسنة التي قام بها هذان الحاكمان (بيشون وبارتوزين) وكذلك تلك الحسرة التي تركاها في نفوس المواطنين عند ذهابهما .

ولئن لم أنشر المجلدين في نفس الوقت ، فلأنني مكسور القلب من جراء الأخبار التي تصلني يومياً من الجزائر والتي تقول بأن الدماء تراق ودياناً ، وأن السخط عام ، وأن بلدي يسير نحو الخراب وأترك لقرائي يقولون لي كيف تكون أفكار رجل حساس عندما يرى أن تلك الأعمال تم باسم نفس فرنسا التي تدافع عن مصالح الشعوب وتحارب الحكم المطلق والتي يوجد من أبنائها أكبر الأساتذة في الأخلاق وفي حقوق الإنسان ، وعندما يرى أن بلده ، فقط ، هو الذي يحرم من منافع تلك المبادئ الخيرة .

لقد طلب مني أحد أصدقائي أن أنشر موجزاً لكي أجعل الفرنسيين الحقيقيين يأسون لمآلنا ، ومن الممكن أن هذه اللمحة التي كتبت على عجل

ستزعج قرائي بتكرار الأحداث وكثرة الحشو ، ويظنون بأن هذا الأسلوب متأثر بالأدب الشرقي . غير أنهم يجب أن يلاحظوا بأن أي رجل يحب بلاده حباً صادقاً لا يستطيع أن يكتب بأعصاب هادئة دون أن يتوقف عند كل حادث يمثل له إهانة مواطنيه أو تقتيلهم أو تدنيس مداخل أجداده .

ليس هذا الكتاب إلا مجرد تقرير ، وأود من كل قلبي أن تسهر الحكومة الفرنسية على قضية إيالة الجزائر ، وأن تأمر على الأقل ، بأن تقوم اللجنة (5) التي أرسلت إلى تلك البلاد بالاستماع إلى شكاوى وتبليغات سكانها لكي يظهر الحق ويذهب الباطل . هذا وما أنا إلا صدى للأحداث ولسان لأبناء وطني .

(5) هي اللجنة الإفريقية التي أنشئت يوم 7/7/1833 للتحقيق في الوضع الذي آل إليه الجزائريون ولإعطاء رأيها حول الاحتلال .

القهرس

المدخل	
مقدمة المؤلف	
تمهيد	5
الفصل الأول : البدو وأصلهم	53
الفصل الثاني : طبائع البربر وعاداتهم	61
الفصل الثالث : طبائع البربر وعاداتهم (تابع)	65
الفصل الرابع : سكان السهول ، طبائعهم وعاداتهم	69
الفصل الخامس : المتيجة طبائع سكانها وعاداتهم	85
الفصل السادس : عن سكان الجهة الغربية	93
الفصل السابع : مدينة الجزائر	101
الفصل الثامن : حكومة الأتراك ، تنظيمها وأصلها	107
الفصل التاسع : حول كيفية تجهيز سفن القرصنة وتوزيع الغنائم ، وحول التنظيم العسكري والديوان	117
الفصل العاشر : حول الداي وحكومته ومختلف العادات	125
الفصل الحادي عشر : تحديد رسوم الأرض وطريقة جمع الضرائب	143
الفصل الثاني عشر : عن انحطاط حكومة الأتراك وسقوطها	149

الفصل الثالث عشر :	عن داخل الإيالة وبعض الملاحظات حول حسين باشا آخر	
دايات الجزائر		161
الكتاب الثاني		175
الفصل الأول :	الحرب وأسبابها	177
الفصل الثاني :	قصة وصول الجيش إلى سيدي فرج .	187
الفصل الثالث :	التفاصيل الدقيقة حول كل ما جرى عندما دخل المارشال بورمون	
إلى الجزائر		207
الفصل الرابع :	عن الاحتلال العسكري وما قام به من تجاوزات .	215
الفصل الخامس :	عن البايات منذ أن وقع الغزو الفرنسي .	219
الفصل السادس :	عن إدارة المارشال بورمون .	227
الفصل السابع :	عن أحداث الرسالة والاحتلال العسكري .	233
الفصل الثامن :	تابع الاحتلال العسكري .	237
الفصل التاسع :	عن مصطفى بومزراق ، باي التيطري .	245
الفصل العاشر :	تابع لإدارة الجنرال كلوزيل ، وحملاته ضد المدينة والبلدية .	247
الفصل الحادي عشر :	عن الأوقاف ، والتغييرات التي تعرضت لها تلك المؤسسات	
والمحاكم التي تنظر في شؤونها ، أثناء ولاية الجنرال كلوزيل .		269
الفصل الثاني عشر :	تفسيرات حول ممتلكات الأوروبيين في الجزائر .	295

رسمك: ISBN :978-9947-24-158-5
رقم الإيداع : 2007-700

سحب الطباعة الشعبية للجيش
الجزائر - 2007

Bibliotheca Alexandrina



0645265

ISBN : 978-9947-24-158-5



9 789947 241585